دراسات

مجلة يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام. دمشق - لندن

العدد الأول، تموز / يوليو ـ 2014

مقالات:

• داعش وتجاوز حدود المزاودات

مراجعات كتب:

• رواية سرمدة لفادي عزام

ريبورتاجات:

• المساكنة بين الجنسين

• الرياضة السورية: ضحية من ضحايا الأزمة؟

• الحرب في سوريا وحقوق الطفولة

دراسات:

• الحروب الأهلية بين المظلومية والطمع

• فن الشارع في إيران واستعادة الحيز العام

• حق الجوار والخروج من المستنقع الطائفي

صورة الغلاف:

'ناشرين عرضا - خرجت للتو من غسّالة المجتمع'

رسم: مايا عدنان محمود، المزيد في محور 'المشهد البصري'

في الصفحة 189

دِلتَا نُـون مجلة يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام. دمشق ـ لندن. السنة الأولى، العدد الأول، تموز/ يوليو 2014

هيئة التحرير: طلال المَيْهَني (رئيس التحرير)
فرزند عمر (محرر القسم العربي)
مازن علي (محرر القسم العربي وجولة العدد)
عزام قصير (محرر القسم الإنكليزي)
ماهر المونس (محرر القسم الصحفي)

الفريق الصحفي: ديما نقولا
طارق العبد
علاء إحسان
قصي عمامة
أحمد حاج حمدو
نور شلغين (جولة العدد ومقهى دلتا نون)

فريق الملتيميديا: مصطفى دباس
كندة يوسف
خالد هربش

فريق الترجمة: يمن القيسي
ريمه سواح

مسؤول الإنترنت: طارق سواح

تدقيق لغوي: عبد السلام حلوم

للاتصال بنا:

مكتب دمشق:
شارع العابد - جادة العاني
ص.ب: 10250

مكتب لنـــدن:
436A Hamilton House
Mabledon Place, Bloomsbury
London, WC1H 9BB
Tel. +44 20 75 54 85 30

email: editors@c-tpa.org
www.delta-n.c-tpa.org

مركز دراسات الفكر والشأن العام
Centre for Thought and Public Affairs
email: info@c-tpa.org
www.c-tpa.org

التصميم والإخراج الفني:
Omran **Attar**
gaea.goddess@gmail.com

يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام، دمشق - لندن

المحتوى

تحرير 7

افتتاحية العدد	رئيس التحرير	8
تقديم العدد	هيئة التحرير	10
جولة العدد	هيئة التحرير	12

مقالات 19

مقاربة لنقد الطائفية في سوريا	نيروز ساتيك	20
الافتراضي يخضع للواقع: يعمق عيوبه ويشوه معرفته	مناف زيتون	24
كي لا تُفسد الثورة السورية بأيدي من يمتطونها	هوشنك أوسي	30
مفارقات لونية في الداخل السوري	رهام كوسا	34
الألتراس: النشأة والدور	فيكتوريوس شمس	38
التوجهات السياسية لرأس المال في سوريا	عبد الله شلاش	43
المسرح السوري أزمة عميقة تتطور	مايا جاموس	47
الأدب السوري المعارض	عبد الوهاب عزاوي	51
علاقة المذاهب الفنية بالواقع الاجتماعي والسياسي	ليليان بلان	55
داعش وتجاوز حدود المزاودات	مارك براتشر	60
في الصورة البصرية لمجلة دابق وإسقاطاتها	مصطفى دباس	63

مراجعات كتب 71

رواية سرمدة لفادي عزام	نور شلغين	72
قلق في العقيدة لسعيد ناشيد	عمار ديوب	78

ريبورتاجات صحفية 85

المساكنة	كفاح زيني	86
لبنان: لاجئون في الخيام ولاجئون في القصور	عمار المأمون وعبد الله قاسم	90
ملف المخطوفين في سوريا	قصي عمامة	96
قوارب الموت إلى أوروبا	عبد الحاج	101
الرياضة السورية: ضحية من ضحايا الأزمة؟	علاء إحسان وأحمد حاج حمدو	109
المسلحون في سوريا: البحث عن الدعم والقيادة	طارق العبد	114
رحى الحرب في سوريا تطحن حقوق الطفولة	ديما نقولا	118

دراسات 123

الحروب الأهلية بين المظلومية والطمع	سنان الحواط	124
من البنية التحتية لوسائط النقل إلى السياسة في بيروت	أحمد عثمان	131
تيار العبث بين الفلسفة والمسرح	علاء العالم	139
الدولة السورية بين مصيدة القوة والمدى	وجدي وهبي	150
فن الشارع في إيران واستعادة الحيز العام	دنكان توماس	158
حق الجوار كوسيلة للخروج من المستنقع الطائفي	طاهر زمان	174

’أم هشام‘

تصوير: كندة سكيكر*

حول العمل الفني:

التقطت الصورة عام 2013.

* كندة سكيكر: خريجة تصوير فوتوغرافي من المعهد التقاني للفنون التطبيقية، وطالبة في قسم التقنيات في المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق. تمارس التصوير التلفزيوني والفوتوغرافي حيث شاركت في أربع معارض برعاية وزارة الثقافة، واتحاد المصورين العرب.

تحـــرير

- افتتاحية العدد
- تقديم العدد
- جولة العدد

الافتتاحية

شرق المتوسط وملامح الانهيار

هذه مرحلةٌ عصيبةٌ، تتآكل فيها الكيانات السياسية في العراق وسوريا، وتنهار معها التوافقات الاجتماعية الشكلية التي جمعت، ظاهرياً على الأقل، المكونات السكانية في عموم المنطقة. فبعد سنواتٍ من الصراع العنفي العبثي والمستمر يأتي 'الحدث الداعشي'، حسب تسمية أحد الأصدقاء، تتويجاً لقتامة المشهد، ليقذف بالمنطقة في عتم المجهول، ويخلط الأوراق، ويزيد من تعقيد الصورة. تتزامن هذه المرحلة مع مأساةٍ إنسانيةٍ كبرى أجبرت شرائح واسعة على النزوح والهجرة، أو القبول بالأمر الواقع، مع شللٍ مَهُولٍ في عجلة التنمية والاقتصاد والصحة والتعليم.

ينفجر، في هذه المرحلة العصيبة، ما كان يتراكم مضطرماً تحت الرماد؛ ليعربدَ التصريحُ بما كان مخبوءاً، والنطقُ بما كان عنه مسكوتاً، فتسقط كل الأقنعة، وتقف المنطقةُ عاريةً قبالة قباحتها وتوحشها، دون تجميلٍ أو مساحيق، تاركةً إرثها الحضاري والثقافي الثري في عهدة الماضي والذكريات. وبهذا يتحول شرق المتوسط إلى ساحةٍ تضم مزيجاً من القتلة والمقتولين، إلى حلبةٍ تشهد تسابقاً محموماً على سفك الدم، وإلى بيئةٍ لتفريخ الكراهية والحقد والعَدَميّة، والسقوط في براثن الغرائزية الأولى.

لكن كيف أمكن لما حدث أن يحدث أصلاً؟ كيف سار الوضع إلى هذا الدرك من الانحطاط؟ وكيف تسنّى لهذا الكابوس أن يكون؟ أين تبخّرت أحلام النهضة والحداثة؟ وأين اختفت طموحات التغيير والتقدم؟ تكثر أمثال هذه التساؤلات في أزمنة العنف؛ فقد عرفتها أوروبا إبان وبعيد الحروب العالمية على سبيل المثال، ما أفرز العديد من التيارات النقدية التي كان لها عميق الأثر على سيرورة المعرفة والاشتغال الفكري. هذا ما نشهده أيضاً في عموم المنطقة هذه الأيام؛ إذ نلحظ تلك التساؤلات في العيون المصدومة بواقعٍ مرير، نسمعها من الألسنة المتسائلة عن مستقبلٍ مجهول، ونقرؤها في كتابات 'المثقفين' على اختلاف أصنافهم ومواقعهم. لكن نادراً ما ترقى الإجابات إلى كارثية الحدث، ونادراً ما تنجح في الفكاك من نظريات المؤامرة، لتدور غالباً في حلقةٍ مفرغةٍ من 'لَوْم الآخر' بعد صناعة هذا 'الآخر'، ويغيب البحث الصادق والجاد عن الحلول والمخارج. فالخطاب والاشتغال الفكري مهووسٌ، في الغالب الأعم، بإثبات أنهم 'هم' أساس المشكلة، وبأننا 'نحن' بريئون من أي مسؤوليةٍ فيما حدث ويحدث (بغض النظر عن انتماءات الـ 'هم' والـ 'نحن')، وفي خِضَمِّ هذا الهوس تغرق المنطقة أكثر وأكثر في وَحْلِ صراعاتها. هذه الاستماتة المازوخية في أخذ دور 'الضحية' والتنصُّل من دور 'الجلاد'، هذه الرغبة العميقة في إعلان 'براءتنا'، وإخفاء 'أيدينا' المغموسة بالدماء حتى المرافق، ليست سوى هروبٍ سافرٍ ويائسٍ من مواجهة الواقع الأليم - صفةٌ تلازم العقلية السائدة الغارقة في غيبيّتها وجنون عظمتها، الغارقة في نرجسيّتها وإقصائيتها واستعلائها، صفةٌ تكرِّسُ المأساة، وتعيد إنتاج ما هو قائم.

وبعد كل هذا، فهل ما زلنا في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الدلائل كي نُقِرَّ بضرورة التغيير الجذري في المنطقة؟ سواء على المستوى الفردي أو الجماعي؟ تغيير لا يقف عند حدود التشذيب السياسي، بل ينفذ إلى آليات المعرفة والاشتغال الفكري، وإلى عمق المواقف تجاه الحياة والأشياء والمفاهيم، وإلى مناهج وأسس العقلية السائدة وإدراكها للدنيوي والمقدس.

هذه مرحلةٌ عصيبة، أزمةٌ عميقةٌ ومركبةٌ تبحث عن حلول، تطرحُ تساؤلاتٍ كبرى وتنتظر إجاباتٍ مختلفة؛ إجاباتٍ شجاعة، إجاباتٍ قادرة على اقتحام أيديولوجيات الخوف والصمت، وعلى الخروج من أسر النماذج الجاهزة والمعلّبة، إجاباتٍ تتحرر من حُمّى التماثل والتقليد، وتعيد الاعتبار إلى عقل الإنسان في عصرٍ بات فيه شتم العقل فضيلة. ولعلّه من النافل القول بأن كل ما سبق سيلقي بمسؤولياتٍ جِسَامٍ على عاتق كل المهتمين، وبخاصة أولئك المشتغلين في قضايا الفكر والحقل العام، آملين أن تكون مجلةً 'دلتا نون' صوتاً فاعلاً، ومنبراً مفتوحاً لكافة الأقلام الشابة والجادة، لكافة الأفكار الخلاقة، لكافة الطروحات الجريئة التي تناقش ما تعيشه منطقتنا، علّنا نسهم، مع غيرنا، في عملية التغيير المنشودة.

محمّد طلال المَيْهَني
رئيس التحرير

التقديم

حول العدد الأول من مجلة 'دلتا نون'

تسعى مجلة 'دلتا نون' في عددها الأول، الذي نضعه بين أيديكم، إلى تعميق تجربة العدد صفر الصادر في أيار/مايو 2014، مع متابعة تركيزها على دراسة العلاقة الكامنة بين 'الفكر' و'الشأن العام'؛ تلك العلاقة الشائكة التي ما فتئت تعتريها مواقف مسبقة تفصل بين الفكرة 'النظرية' والواقع 'العملي'. ربما يعود ذلك إلى الالتباس القائم بين مهمة المفكرين والمثقفين، القابضين على مبضع التحليل والتشريح ونحت المفاهيم، وبين القضايا اليومية التي يصادفها ويعيشها الناس في العمل والمدرسة والشارع، وإلى عدم إدراك (أو تغييب إدراك) العلاقة التي تربط بين الفكر وهذه القضايا.

وعليه تحاول مجلة 'دلتا نون'، في العدد الحالي، إبرازَ بعض الملامح التي تحكم العلاقة بين حقلي 'الفكر' و'الشأن العام'، وذلك بإثارة أكثر من قضية على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأدبية والفنية، معتمدةً بالدرجة الأولى على كُتَّابٍ شباب يعيشون واقعهم، يندمجون فيه، ويسهمون في تشكيله. حيث تفسح مجلة 'دلتا نون' المجال واسعاً أمام الأقلام الشابة كي تستهل، أو تعمق، تجربتها في الكتابة عبر النشر في هذه الصفحات، مع التزام هيئة التحرير بروحٍ منفتحةٍ على كافة الطروحات والأفكار والآراء الملتزمة بسياستها التحريرية المعلنة.

يحتوي العدد الحالي من مجلة 'دلتا نون' على مساهماتٍ واعدةٍ يظهر عليها الجهد البحثي والعلمي والأدبي الحثيث، والطموح في تقديم مواد غنية بالمعلومة والاجتهاد الفكري؛ سواء في قضايا إشكالية كقضية 'المساكنة' بين الجنسين بقلم كفاح الزيني وقضية 'لاجئي القصور' بقلم عمار المأمون وعبد الله قاسم، أو لجهة عرض المذاهب الفلسفية وإسقاطات الواقع على الفنون؛ كما جاء في مادة 'العبث' بقلم علاء العالم، ومادة 'المسرح والمجتمع السوري' بقلم مايا جاموس.

نقرأ أيضاً في هذا العدد تغطيةً للمشهد السوري؛ على المستوى السياسي بقلم هوشنك أوسي ورهام كوسا، وعلى المستوى الاقتصادي بقلم وجدي وهبي وعبد الله شلاش. وبالإضافة إلى مقالاتٍ منوعة بقلم عبد الوهاب عزاوي ومناف زيتون وليليان بلان وفيكتوريوس شمس، يقدم العدد الحالي أيضاً مراجعتي كتب. حيث تستعرض نور شلغين رواية 'سرمدة' للكاتب فادي عزام عبر قراءتها قراءةً مكثفةً تحلل ما تحمله هذه الرواية من موروثٍ شعبيٍّ أصيل، وبأدواتٍ أدبيةٍ بالغة الأمانة في استنطاق النص. تأتي أهمية القراءة التي تقدمها الآنسة شلغين من مقارعتها ونقضها لقراءةٍ سابقةٍ، بقلم الشاعر السوري خلف علي الخلف، لنفس الرواية افتقرت فيها للروح المتسامحة مع المناهج الصارمة في قواعد فن الرواية. أما المراجعة الثانية فبقلم عمار ديوب الذي يتصدى لكتاب 'قلق في العقيدة' للباحث المغربي سعيد ناشيد. ومع أن المراجعة قد كُتبت من وجهة نظر يسارية، إلا أن ذلك لم يجعلها تقع في فخ الخضوع المطلق للأيديولوجيا. بل على العكس، فقد قدمت المراجعة عرضاً سلساً وملائماً لأطروحة الأستاذ ناشيد المثيرة للجدل في الأوساط المعنية بالفكر الديني الإسلامي.

وتمشياً مع موسم كأس العالم لكرة القدم، فقد ارتأى الفريق الصحفي في مجلة 'دلتا نون' إعداد تحقيق عن تأثر وتأثير الرياضة (المحلية والعالمية) في واقع الصراع الذي تمر به سوريا، مع استمزاج لآراء بعض صنّاع السياسات الرياضية والقائمين عليها. كما يمكن للقراء تصفح عدد من التحقيقات المهمةً حول خارطة المسلحين وقضية المخطوفين في سوريا، وتأثير الأزمة السورية على واقع الطفولة، وقوارب الموت إلى أوروبا.

وبالتأكيد كان للحدث الداعشي نصيبٌ في مقالتين. المقالة الأولى مترجمةٌ عن النص الأصلي الـمُرْسَل بالإنكليزية بقلم مارك براتشر، حيث تطرح المقالة فكرة أن 'داعش'، بإفراطه في المزاودة العنفية والممارسات المتطرفة، فإنه يحكم على نفسه بالفناء. قد لا نتفق تماماً مع ما ذهب إليه الكاتب، بخاصة وأنه يبدو وكأنه يختصر ظاهرة التطرف في تنظيم 'داعش'، إلا ان أطروحته تستحق التأمل والبحث. أما المقال الثاني فهو عرضٌ نقديٌّ للصورة البصرية ومحتوى مجلة 'دابق' التي بدأ تنظيم 'داعش' بنشرها، حيث يجادل المقال في أن الإخراج الاحترافي لمجة 'دابق' ظاهرةٌ فريدةٌ من نوعها في واقع الحركات الجهادية، مع احتمال أن تكون مقدمةً تنذر بطموح التنظيم إلى التحول من وضعه المليشياوي الفوضوي إلى وضع الدولة المنظمة.

يضاف إلى ما سبق عدة دراسات مهمة. إذ يناقش سنان الحواط، بأسلوبٍ سلسٍ وعميقٍ ومتمكن، جذور الحرب الأهلية التي يمكن أن تكون نتيجة للمظلومية أو الطمع، أو مزيجاً لكليهما. كذلك يقدم طاهر زمان في دراسته (النص الأصلي بالإنكليزية) لمحة إلى دور علاقات الجيرة في تجفيف المستنقع الطائفي الذي يجتاح المنطقة. حيث يحلل التفاعل اليومي بين مختلف المكونات السكانية في سوريا في مناطق النزوح، متقاطعاً في هذه الدراسة مع التحليل الذي قدمه نيروز ساتيك عن الحالة الطائفية في سوريا. كما يسلط أحمد عثمان الضوء في دراسته (النص الأصلي بالإنكليزية) على العلاقة الرمزية بين وسائط النقل بالسياسة في بيروت، حيث تعكس اللامساواة في واقع النقل في العاصمة اللبنانية حالةً أكثر جذرية من اللامساواة على مستوى الممارسة السياسية. أما دراسة دنكان توماس (النص الأصلي أيضاً بالإنكليزية) فإنها تدرس دور فن الشارع والغرافيتي في إيران كوسيلةٍ للاحتجاج السياسي على النظام القائم، مع عرضٍ لعددٍ من اللوحات الفنية التي توضح فكرة الدراسة.

وكما هو ملاحظ فقد اخترنا عملاً فنياً لفنانة صاعدة، مايا محمود، لتزين غلاف العدد الحالي. فقد جمع هذا العمل المعنون بـ 'ناشرين عرضا' بين البساطة والعمق؛ بساطة الملامح ووضوحها، وعمق المعنى الكامن وراءها، بخاصة وأن العمل ينقد القولبة التي يفرضها المجتمع قهراً على النساء. وتضاف إلى ذلك مجموعة من الأعمال الفنية البصرية (صور فوتوغراف ورسومات وكاريكاتور)، لتزين صفحات المجلة، قام بإعدادها مجموعةٌ من الشباب ينتسب عددٌ منهم إلى 'تجمع فناني فلسطين'.

أخيراً نود في هيئة التحرير أن نتقدم بجزيل الشكر لكل من ساهم في إنجاز العدد الحالي فريقاً، وكُتّاباً، وفنانين، دون أن ننسى دعوة القراء الأعزاء إلى إرسال انتقاداتهم وتعليقاتهم على المواد المنشورة في المجلة، أو على مستوى المجلة ككل، عبر البريد الإلكتروني التالي: editors@c-tpa.org

هيئة التحرير
مجلة دلتا نون

جولة العدد

أخبار مركز دراسات الفكر والشأن العام

تهنئة

فاز ماهر المونس بجائزة أفضل نص في 'مهرجان سينما الشباب والأفلام القصيرة الأول' في دمشق. النص الفائز بالجائزة كان تدوينةً مستندة إلى قصة واقعية نشرها المونس في مدونته 'جرعة زائدة'، ليتحول النص فيما بعد إلى فيلم قصير من إخراج نادين الهبل بعنوان 'عشر دقائق بعد الولادة'. يذكر أن ماهر المونس عضوٌ في هيئة التحرير في مجلة 'دلتا نون'، حيث يشرف على القسم الصحفي في المجلة التي يصدرها 'مركز دراسات الفكر والشأن العام'.

تعاون مع أوبن ديموكراسي OpenDemocracy

في لقاء جرى في أيار/مايو 2014 تم الاتفاق على التعاون الأولي بين 'مركز دراسات الفكر والشأن العام' والـ 'أوبن ديمكراسي OpenDemocracy'. ووفقاً لهذا التعاون ستقوم هيئة التحرير في مجلة 'دلتا نون' باختيار بعض المواد المنشورة في المجلة كي يتم نشرها في موقع 'أوبن ديمكراسي'. يتيح هذا التعاون وصول المواد، التي ستتم ترجمتها إلى الإنكليزية، إلى شريحة الواسعة من الجمهور الغربي. يذكر أن 'أوبن ديمكراسي' مؤسسة غير حكومية غير ربحية تعنى بقضايا الديمقراطية، ومقرها لندن.

لقاءات مع منظمة إنترناشيونال أليرت International Alert

حضر ممثل عن 'مركز دراسات الفكر والشأن العام' في لندن ورشتي عمل في أيار/مايو وتموز/يوليو بدعوة من منظمة 'إنترناشيونال أليرت International Alert'، وبحضور عدد من المنظمات والمؤسسات المعنية بالشأن السوري. الفكرة من اللقاءات المذكورة هي دراسة دور المغتربين السوريين في دعم الوصول إلى حلول للوضع السوري المعقد، وفي بناء السلام.

اجتماع مع مركز أبحاث تحليل النزاع في جامعة كينت

عقد مركز دراسات الفكر والشأن العام مؤخراً اجتماعاً مع البروفسور فرغال كوشران Feargal Cochrane للتباحث حول إمكانية التعاون في عدد من المشاريع الفكرية التي سيطلقها المركز حول وضع

الصراع في سوريا. يذكر أن البروفسور كوشران هو رئيس 'مركز أبحاث تحليل النزاع Conflict Analysis Research Centre' في جامعة كينت في بريطانيا، وترأس سابقاً معهد ريتشاردسون لأبحاث السلام والنزاع في جامعة لانكاستر. وتتمحور أبحاث البروفسور كوشران حول تفكيك أسباب النزاعات في المناطق ذات التركيبة السكانية غير المتجانسة، وكان له دور مساهم في إيجاد مخارج للنزاع العنفي في أيرلندا الشمالية.

سجالات

أدونيس: طبعةٌ جديدةٌ لأعمال الثمانينيات تُجدّد الجدل حول مواقفه

أشعل المفكّر السوري أدونيس فتيلاً جديداً في الجدل المستمرّ حول مواقفه من الوضع المتدهور في سوريا، بعد إصدار الجزء الثاني من أعماله الشعرية الكاملة، وكتابه 'فاتحة لنهايات القرن' عن 'دار الساقي' في بيروت.

نشرت آخر المقالات المنشورة في هذا الصدد في صحيفة 'الأخبار' بعنوان: 'أدونيس... فاتحة لنهايات الربيع العربي' للصحافي يزن الحاج، الذي تساءل عن أهمية نشر هذين الكتابين الذين يعودان إلى ثمانينيات القرن الماضي، وتعود أول بيانات ثانيهما إلى عام 1967. يوضح الحاج أنّ تأريخ بيانات الإصدار الأول للكتابين جاء بالتزامن مع الهزيمة الكبرى في تاريخ العرب المعاصر، لتأتي النسخة الثانية مع الانتكاسات المتلاحقة التي تشهدها الساحة العربية، ما يمثّل البداية الفعلية لأي نقد جديد لكتابي أدونيس.

وكان أدونيس قد أشعل فتيل الجدل عام 2011، بعد أن نشر مقالة بعنوان: 'رسالة مفتوحة إلى الرئيس بشار الأسد'، ضمّنها رؤيته حول الأزمة العالقة في سوريا منذ بداياتها، ونصائحه إلى الرئيس السوري بهذا الشأن، ليفتح نيران الجبهة المعارضة للأسد على نفسه، بدءاً من مقالة صادق جلال العظم، وما تلاها من ردود مع الكاتبة خالدة سعيد، بعد أن قرر أدونيس أن يعتزل الرد على أي من المقالات التي فتحت نيرانها عليه، قائلاً: "كل ما كتبته مُثبتٌ في كتبي، وهي في المكتبات، وأنا أثق بذكاء القرّاء".

رضوان السيّد يدير رحى الجدل حول 'الإسلام السياسي' ويُشعل سجالاً ثقافياً

شهدت صحيفة "الشرق الأوسط" منذ منتصف نيسان/أبريل الماضي، جدلاً فكرياً ساخناً بين عدة مثقفين عرب. بدأ ذلك عندما كتب رضوان السيد، أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية، مقالة بعنوان: 'الحملة على الإسلام... والحملة على العرب'، تطرّق فيها إلى انتقادات المثقفين التنويريين المستمرّة لمفهوم الإسلام المتشدد والتكفيري والإرهابي، في دراسات منقوصة برأيه.

وذكر السيد في المقال المنشور بالعدد 12925 من الصحيفة أنّ الدراسات التي يحتفل بها بعض الباحثين العرب، تشنّ حملاتها على 'الإسلام السنيّ'، مشيراً إلى أنّ 17 كتاباً عربياً صدر بعد 2010، ينحاز إلى الأصولية الشيعية بحجّة المقاومة، وتحرير العرب والمسلمين من هذا 'الإسلام السني'.

وجاء رد الكاتب السوري جورج طرابيشي سريعاً، بعد أن ذكره السيد في مقاله كأحد قادة تلك الحملات ضد 'الإسلام السنّي'، إلى جانب أدونيس وغيره من المثقفين. حيث أشار طرابيشي في مقاله إلى أنّ اتهامات السيد تضع 'الإسلام الشيعي' في دور الجلاد، مقابل نظيره السني الذي أصبح الضحية، موضحاً أنّ الضحية في هذا الأمر إنما هي 'الإسلام' عموماً، من خلال هذا الترويج لشطره إلى خير مطلق ونقيض شرير، متّهماً كل من يتبنى هذه الرؤية بقيادة الحملة المزعومة على الإسلام.

وانضم المفكّر الليبي محمد عبد المطلب الهوني إلى طرابيشي، بمقالة رد فيها على السيد عبر الصحيفة نفسها ونشرها موقع الأوان للعقلانيين العرب، بعنوان: 'إلى السيد رضوان السيّد: الخليج لا يحتاج إلى قرضاوي آخر'، أشار من خلالها إلى أنّ الوقائع التي وردت في مقالة السيد كانت مجافية للواقع، وتحدّاه أن يُثبت اتهامات التحيّز الطائفي التي أطلقها على جمع من المثقفين العرب.

لكن السجال لم ينته بمقالة الهوني، إذ عاد السيّد إلى الساحة بردّ مزدوج على المقالتين، مشيراً إلى أنّه مهموم كغيره بما يجري داخل الإسلام، وفظائع 'الإسلام السياسي' الذي برز بقوة تنظيماته إلى الساحة، بعد أن فشلت قوى المجتمع المدني بإسقاط أنظمتها السياسية، منتقداً في الوقت نفسه تدخّل 'حزب الله' اللبناني في محاربة من يقول إنّهم تكفيريون في سوريا.

وأنهى السيّد النقاش المحتدم مطلع أيار/مايو، بالإشارة إلى أنّ من حقّ التنويريين معالجة ما يريدون، ومن حقّه رفض طرقهم بالتعامل مع الدين الإسلامي وتحليله ودراسته. هذا وقد نشرت المدوّنة التابعة مجلة 'دلتا نون' روابط المقالات المذكورة.

كتب

كتاب 'La Syrie promise' للكاتبة السورية هالة القضماني، عن دار 'Actes Sud' الفرنسية، وهو عبارة عن سردية ترويها الكاتبة على شكل رسائل إلكترونية بينها وبين والدها المتوفى مؤخراً.

كتاب 'Syrie, la révolution orpheline' للكاتب اللبناني زياد ماجد، عن دار 'Actes Sud'، وفيه محاولة من الكاتب لإجمال الحالة السوية في تداخلاتها المحلية والدولية بصورة بانورامية عبر رصد أهم الفاعلين الدوليين والمحليين.

كتاب 'Les Gardiens de l'air' للكاتبة السورية روزا ياسين حسن، عن دار 'Actes Sud'، وهو رواية مترجمة عن العربية كانت قد صدرت عن 'دار الكوكب' الشقيقة لشركة 'رياض الريس للكتب والنشر' في بيروت.

كتاب 'الخلاص أم الخراب؟ سوريا على مفترق الطرق' صادر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، يضم الأوراق البحثية التي قام بتحريرها وتقديمها ياسين الحاج صالح، وساهم فيه أحمد حسو، أكرم البني، أنور البني ورضوان زيادة.

كتاب Arab Winter Comes to America: The Truth About the War We're In' للكاتب روبرت سبنسر Robert Spencer، الذي يقول فيه: "ربما يكون الجو دافئاً بالخارج الآن، ولكن عاصفةً ثلجيةً على وشك أن تهب من القلوب الباردة، التي تعيش حالة من الجمود، في شتاء إسلامي لا تبدو له نهاية".

كتاب 'الربيع العربي إلى أين؟ أفق جديد للتغيير الديمقراطي'، عن مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير عبد الإله بلقزيز، وفيه يعاد طرح السؤال القديم عن السلطة العربية: تغييرٌ من الداخل أم ثورةٌ جديدة؟

أبحاث

تقرير: 'هدر الإنسانية: تقرير يرصد الظروف الاقتصادية والاجتماعية في سوريا'

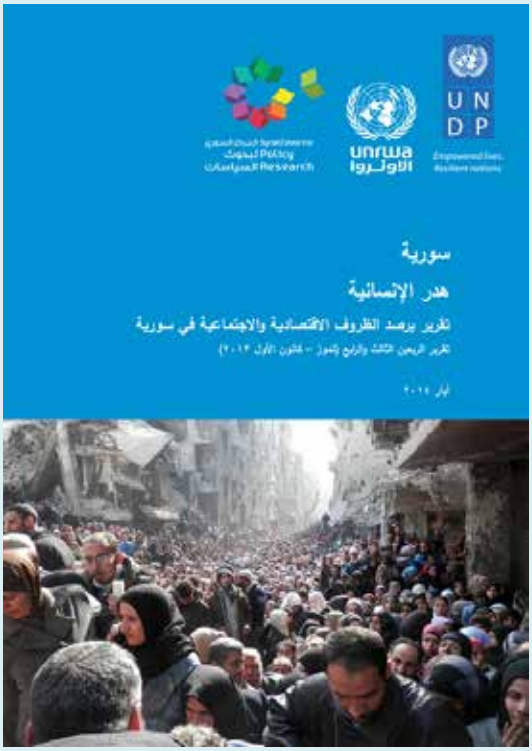

صدر عن 'المركز السوري لبحوث السياسات' تقرير الربعين الثالث والرابع (تموز/يوليو – كانون الأول/ديسمبر 2013) بعنوان: 'هدر الإنسانية: تقرير يرصد الظروف الاقتصادية والاجتماعية في سورية'، بالتعاون مع الأنوروا، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بتاريخ أيار/مايو 2014، وقد جاء في تقديمه على موقع المركز الالكتروني: "تواجه سورية واحدة من أكثر الكوارث التنموية والإنسانية حدّة في التاريخ الحديث، حيث دمِّر كل من الاقتصاد ورأس المال البشري والثقافي والاجتماعي، ناهيك عن التخلخل الذي أصاب الهوية الوطنية. وهذه الكارثة تُسيِّرها وتُذكيها قوى التسلط على المستويين المحلي والدولي، مسببة هدر الإنسانية في سورية. يهدف المركز السوري لبحوث السياسات من إعداد هذا التقرير، والذي يأتي في إطار سلسلة تقارير ربعية، إلى تقدير وتوثيق وتحليل الآثار التنموية الكارثية للنزاع المستمر، بالاستناد إلى أحدث البيانات والأدلة المتاحة ونماذج الاقتصاد القياسي".

تقرير: 'الأزمة المستمرة: تحليل المشهد العسكري في سوريا'

في إطار اصداراته المعنونة بتحليل السياسات نشر 'مركز بروكنغز Brookings' ورقة بعنوان: 'الأزمة المستمرة: تحليل المشهد العسكري في سوريا' للكاتب تشارلز ليستر، يحلل فيها المعارضة المدعومة من الغرب، والنفوذ المتزايد للمسلحين الجهاديين، والقدرات المتنامية للقوات الموالية للحكومة.

يشير ليستر إلى أن هذه الأطراف ستظل في حالة مواجهة حتى يتم التوصل إلى حلٍ سياسي، لا سيما وأنّ تحقيق انتصار عسكري حاسم يبدو صعب المنال بالنسبة لكافة الأطراف. ولكن، نظراً لتزايد عدد الجماعات المسلحة لدى طرفي الصراع، فمن غير المرجح أن تتوقّف دوامة العنف في سوريا حتى ولو توصّلت الحكومة والمعارضة إلى اتفاقٍ ما.

وبالتالي، يرى ليستر أنه ينبغي على الدول الغربية والإقليمية أن تركز على هدفين أساسين لسياستهما إزاء الأزمة السورية. أولاً، يتعيّن على المجتمع الدولي تعزيز معارضة سورية متماسكة من شأنها أن تتحدى نظام الأسد على أرض المعركة وعلى طاولة المفاوضات. ثانياً، يتعيّن على المجتمع الدولي مساعدة الدول المجاورة لسوريا على إدارة الآثار غير المباشرة لحالة العنف الناجمة من هذا الصراع، وفي شكلٍ خاص، الحد من إمكانية توسيع رقعة عمليات الجماعات الجهادية الموجودة في سوريا خارج حدود البلاد.

مساهمات ليلى أبو لغد تحت مجهر 'المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات'

نشر 'المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات' في الدوحة، دراسة للباحث السياسي والقانوني عيّاد البطنيجي، حول ما توصّلت إليه الباحثة الفلسطينية الأمريكية ليلى أبو لغد، في عدم تناسق المنطلقات الإدراكية للخطاب النسوي مع السياقات المركّبة للنساء في المنطقة العربية.

وتتناول دراسة البطنيجي المواضيع التي بحثت فيها أبو لغد حول التحديات التي تواجه النساء العربيات؛ كعدم انسجام الخطاب الحقوقي والتنموي الغربي مع فهم ظروفهن الخاصة، إضافة إلى تحليل قراءتها للدولة الحديثة بمنطق مختلف عن خطاب الحداثة، ونظرتها حول التصوّر العالمي لخطاب التنمية الليبرالي بأنّه مضرٌّ بالنساء، ما يعطيهن الحق في رفض اندراجهنّ في العالمية، والدفاع عن خصوصيتهن الحضارية والمحلية.

يُشار إلى أنّ ليلى أبو لغد، أستاذة في علم الإنسان ودراسات المرأة والنوع في جامعة كلومبيا، تخرجت من كلية كارلتون عام 1974، وحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة هارڤرد عام 1984، واشتهرت ببحثها الذي قدمته حول بدو قبيلة أولاد علي في مصر.

مازن علي بالتعاون مع نور شلغين
هيئة التحرير

’فوق الدمار‘

تصوير: بشر عبد الهادي*

حول العمل الفني:

صورةٌ فوتوغرافيةٌ مأخوذة في مدينة الرقة السورية.

* بشر عبد الهادي: مدون ومصور فوتوغرافي منذ الـ 2009. يكتب في التقنية، حيث شارك بالعديد من المقالات التقنية ضمن عدة مواقع عربية من بينها ’كشكول التقنية‘ و ’أردرويد‘. سبق ونشر في مجلة empirical magazine الأمريكية عن الربيع العربي والدمار في حلب.

مقالات

- مقاربة لنقد الطائفية في سوريا
- الافتراضي يخضع للواقع: يعمق عيوبه ويشوه معرفته
- كي لا تُفسد الثورة السورية بأيدي من يمتطونها
- مفارقات لونية في الداخل السوري
- الألتراس: النشأة والدور
- التوجهات المالية لرأس المال في سوريا
- المسرح السوري أزمة عميقة تتطور
- الأدب السوري المعارض
- علاقة المذاهب الفنية بالواقع الاجتماعي والسياسي
- داعش ومقامرة العلاقات العامة

نيروز ساتيك *

مقاربة دولاتية

لنقد الطائفية في سوريا

الخلاصة:

تتعدد حالات اقتحام جماعات ريفية للمدينة خلال يوميات الأزمة السورية، يُصَوَّرُ بعضُها على أسسٍ طائفيةٍ عندما يكون أحدهما مختلفاً مذهبياً عن الطرف المقابل. تستعرض المقالة نموذجين عن ذلك، وتحللهما وفق العوامل الاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل منطقة. وتوضح أنه رغم اختلاف أهداف الاقتحام، فإن ما يجمعهما هو الخضوع للتناقضات التاريخية بين الريف والمدينة في سوريا. ولذلك ليس من الصعب تبديلها وتغييرها أو إعادة تحالفاتها في منظومة سلطة سياسية ديمقراطية تقوم على مبادئ المواطنة. أما الخاسر الوحيد هو الطائفية الزائفة.

* يشغل نيروز ساتيك وظيفة مساعد باحث في 'المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات'، ويركز في اهتماماته على القضايا البحثية ذات الطابع الاجتماعي في سوريا. حصل نيروز على شهادة الليسانس (البكالوريوس) في العلوم السياسيّة من جامعة دمشق.

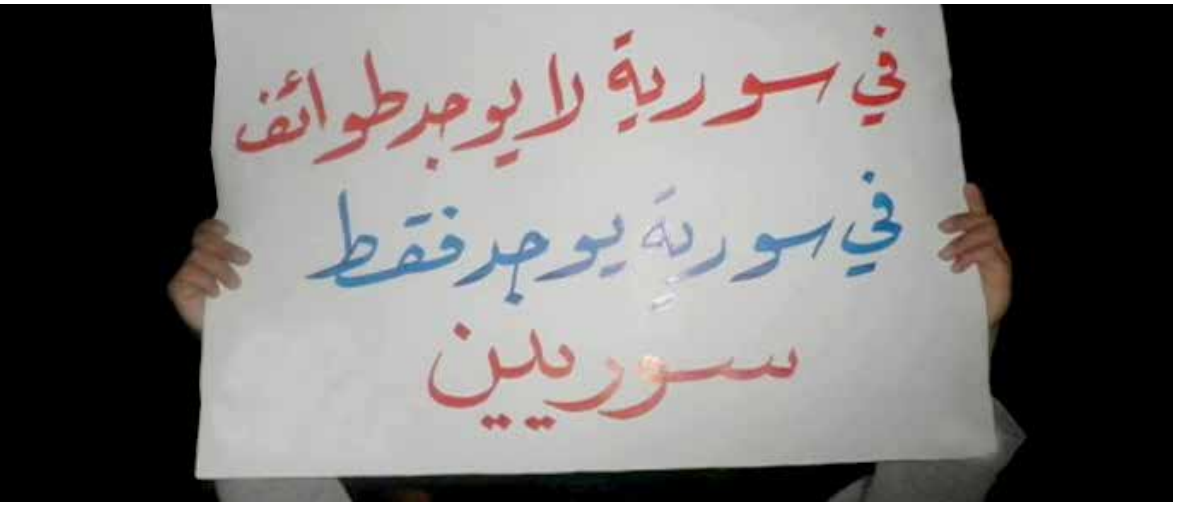

ورثت دولة الاستقلال السورية نحو عقدين ونيّف من سياسات الهوية الطائفية المنهجية والمنظمة التي اتبعتها سلطات الانتداب الفرنسي، وخُيل بعد زوال الانتداب أن المجتمع السوري قد وضع هذه المسألة خلفه إلى حدٍّ ما، إلى أن طَرَحَت المسألة الطائفية نفسها خلال الأزمة السورية الحالية بأشكالٍ ودرجاتٍ ووتائر مختلفة، مستترة أحيانًا وظاهرة أحيانًا أخرى، وبأشكال ملموسة يمكن قياسها كمؤشرات. وتَمَثَّلَ جوهرُ المسألة الطائفية في تصوير التناقض بين السلطة الحاكمة والمعارضة على أنه تناقضٌ طائفي، وهذا شكل 'فظ' من أشكال الوعي الزائف والمقلوب.

في 25 آذار/مارس 2011، عندما التحقت مدينة اللاذقية بالحركة الاحتجاجية في درعا، نزل مدنيون سوريون بسياراتهم من القرى التي يسكنها علويون من ناحية المذهب الديني من جنوب اللاذقية، لقمع الحركة الاحتجاجية في المدينة. إلا أن حواجز الجيش السوري منعت دخولهم المدينة عند دوار جامعة تشرين وأجبرتهم على العودة. في المقابل، لم تلتحق مدينة حلب الغنية بالحركة الاحتجاجية في شكلٍ فاعل، فما كان من الريف الحلبي الـمُفْقَر والمنتفض إلا أن قام بغزو المدينة في 19 تموز/يوليو 2012 مع ممارسة سلوكياتٍ انتقامية ثأرية طبقية كعمليات السلب والنهب بخاصة للمدينة الصناعية في الشيخ نجار. المشترك في كلتا الحالتين، مع اختلاف الهدف، أن هناك فعل اقتحامٍ ريفي للمدينة. صُوِّرَ الفعل الأول على أنه فعلٌ 'طائفي'، بينما صُوِّرَ الثاني على أنه فعلٌ 'ثوري'.

كان من نتائج السياسات الاقتصادية ذات الاقتصاد المخطط لحكم البعث في سوريا حتى عام 2005 أن تحولت الدولة إلى مصدر دخلٍ أساسي (الوظائف الحكومية) للمواطنين من المحافظات التي لا تشكل الصناعة والتجارة فيها نسباً عالية من أنماط الإنتاج. ومع إتباع الدولة لنهج 'اقتصاد السوق الاجتماعي'، المرتكز على سياسات اقتصادية ليبرالية في شكلٍ أساسي، اتجهت الحكومة السورية خلال العقد الماضي نحو عدم التوسع في التوظيف العام. إذ بقيت نسبة المشتغلين في القطاع العام ثابتة بين عامي 2001 - 2010 (حوالي 27%)، بينما ارتفعت نسبة المشتغلين في القطاع الخاص المنظم (من 34% إلى 43%) في الفترة ذاتها، دون أن يعني ذلك تحسن ظروف العمل من ناحية الأجور أو الحصول على التأمينات الاجتماعية أو ضمان الاستقرار الوظيفي.

ما يعني أن وظائف القطاع الخاص لم تكن ذات قيمة مضافة للمواطن السوري، بخاصة مع استمرار الحكومة السورية بتحسينها نسبياً لرواتب موظفي القطاع العام التي اتسمت بثباتها ودوامها مدى الحياة. وبفعل ذلك، تحوّلت الوظائف الحكومية إلى قضيةٍ جديدةٍ للتوتر الاجتماعي متفاعلةً مع حالة الهجرة من الريف إلى المدينة، ومع معدل نمو سكاني من أعلى المعدلات في العالم، وتراجع دور الزراعة في الدخل الوطني بسبب السياسات الاقتصادية النيوليبرالية الفاشلة، وحالة الجفاف التي مَرَّت وتمرُّ بها سوريا.

دفع تراجع المردود الاقتصادي من الزراعة لأهالي سوريا عموماً إلى البحث عن فرص عمل بديلة وبخاصة في الدولة. وقد توفر ذلك إلى حدٍّ ما لبعض الشرائح الاجتماعية المقربة من السلطة في جنوب اللاذقية، وذلك بسبب وجود موظفين علويين في موقع المسؤولية بخاصة في الجيش والأمن. لم يُوَظَّف العلويون حقيقةً بسبب سياسةٍ طائفية، بل بسبب معاملاتهم لذويهم وأبناء قراهم وفق منطق التضامن التقليدي والقرابة. إن وجود ضباط كبار في الجيش والأمن من جنوب اللاذقية ليست حالةً سوريةً فريدة، فقد كان كبار ضباط الجيش والأمن في العراق في عهد حكم البعث من تكريت العراق مسقط رأس الرئيس العراقي السابق صدام حسين.

يقودنا ذلك إلى أن الفعل الريفي الأول في اللاذقية لم ينبع من ثقافةٍ طائفيةٍ للشعب السوري، وإنما من دوافع مصلحية لشريحةٍ ريفيةٍ متضررة من تغيير الواقع السياسي والاقتصادي وتعيش على ما توفره مؤسسات الدولة من خدمات ووظائف حكومية. بينما النخبة المدينية، التي كانت ترغب في التغيير، كانت متحررةً في اعتمادها على مؤسسات الدولة في شكل أكبر من الشريحة الريفية في جنوب اللاذقية، كونها تمتهن وتعتمد على التجارة والخدمات والأعمال الحرفية وحوالات المغتربين في الخليج. هذا الفعل الذي صُوِّرَ على أنه فعلٌ طائفي يمكن وضعه في إطار قمع الريف للمدينة؛ الريف الذي ليس له مصلحةٌ في التغيير في مقابل مدينةٍ كانت تطمح لإعادة توزيع الثروة والسلطة. في مقارنةٍ عربيةٍ من الثورة المصرية لتدعيم هذا الاستنتاج، سنجد مثال ذلك في مدينة المحلة الكبرى، حيث عمد أهالي القرى المجاورة والمحيطة بالمدينة، والذين يعملون في مؤسسات الأمن والجيش، إلى قمع المظاهرات المطالبة برحيل مبارك في الميدان الرئيسي للمدينة (ميدان الشون).

اتبعت الحكومة السورية في السنوات العشر الأخيرة سياساتٍ اقتصادية نيوليبرالية أدّت إلى انخفاض نسبة مساهمة الزراعة والصناعة في الدخل الوطني لصالح التجارة والسياحة. أفْضَتْ هذه السياسات إلى زيادةٍ في معدل النمو الاقتصادي حوالي 5%، لكن نتائجه 'الإيجابية' لم تنعكس إلا على المدن الكبرى (دمشق وحلب)، بينما حصدت المدن المتوسطة والصغيرة والأرياف نتائجه السلبية من فقر وبطالة وتفاوت طبقي. وتدلل المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية في ريف حلب إلى حجم التفاوت الهائل في الاستحواذ على الثروة بين حلب المدينة وريفها الذي دمرته اقتصادياً تلك السياسات. لم يكن ريف حلب قبل تلك السياسات في مستوى اقتصادي جيد، لكنه كان مرتبطاً بالدولة من خلال سياسات الدعم التي توفرها الحكومة (المؤسسات الاستهلاكية، المحروقات، السماد)، ولأن المنطقة تعاني من التهميش وضعف سياسات التعليم، لم يكن لأبناء المنطقة حظوظٌ وفرصٌ في الحصول على وظائف في مؤسسات الدولة (المدرسة والمستوصف والجمعية التعاونية)، وقد بقيت تلك الوظائف مقتصرةً على وجهاء كل قرية. وبما أن الدولة قد بدأت تتخلّى تدريجياً عن هذه الخدمات التي كانت تقدمها، لم يعد هناك سببٌ أو دافعٌ لأبناء المنطقة للتمسك بالدولة. إن هذا التفاوت الطبقي أو الخلل في توزيع الثروة هو الذي دفع أهالي الريف المنتفضين على سياسات التهميش إلى غزو المدينة، ويمكن وضعه

في إطار 'عقاب المدينة' لأنها لم تشاركهم ثورتهم، وممارسة سلوكيات عقابية تحمل دلالات الحقد الطبقي. إن غزو الريف الحلبي للمدينة له جذوره التاريخية منذ عام 1850 عندما دخل البدو المدينة لدعم انتفاضة العامة ضد الفروض الضريبية والتجنيد العثمانية، والتي بدأت بمهاجمة بيوت الأعيان المسلمين، ومن ثم الأحياء المسيحية الغنية للحصول على المال لتمويل الانتفاضة، لكن الصراخ الأوروبي والكهنة المسيحيون، حاولوا أن يقدموا المسألة على أنها صراعٌ طائفيٌّ بحت، وفقًا لمصالحهم الخاصة.

المختلف في الاقتحامين الريفيين هو الهدف (قمع/عقاب)، والمذهب (علوي/سني)، لكن ما يجمعهما هو الخضوع للتناقضات التاريخية بين الريف والمدينة في سوريا. هذه التناقضات ذاتها خضعت للتغيير خلال العهود السابقة، ولذلك ليس من الصعب تبديلها وتغييرها أو إعادة تحالفاتها في منظومة سلطة سياسية ديمقراطية تقوم على مبادئ المواطنة. أما الخاسر الوحيد هو الطائفية الزائفة.

لا يمكن وصف الصراع السياسي الدائر في سوريا بأنه صراع طائفي. لكن المشكلة تكمن عندما يتم التمييز ضد قطاعٍ من المجتمع على أساس الانتماء المذهبي، والتعامل معه على أنه جماعةٌ واحدة تسلك سلوكًا واحدًا. يجب أن تُفْهَمَ الطائفيةُ في ضوء العوامل الاجتماعية/الاقتصادية/السياسية، وليس في ضوء العوامل الثقافية/الدينية في حدِّ ذاتها، وإن استخدمتْ بعض القوى الطائفية العامل الثقافي/الديني بحد ذاته لإعطاء الصراع بُعدًا طائفيًا في صيغة 'نحن' و'هم'. تختلف الطائفة بما هي تكوينٌ اجتماعي ثقافي أنثروبولوجي تشكّل تاريخيًا في الاجتماع السياسي الإسلامي، عن الطائفية بوصفها منظومياً نوعاً من صناعة الطائفية، أو إعادة إنتاج الطوائف في طوائفيات 'مقومنة' ومسيسة، في نقطة جوهرية: هي تسييس الطائفة وقومنتها واستخدامها في بناء وتطبيق سياسات الهوية الطائفية لغايات سياسية أو اقتصادية أو سلطوية. ويكمن في هذه النقطة التمييز بين 'نظام الملل' الإسلامي التقليدي وبين سياسات الهوية الطائفية أو 'تطييف' الطوائف الدينية والمذهبية في مرحلة الخرق الغربي-الاستعماري للعالم العربي، ولاسيما منه في المرحلتين العثمانية والاحتلال المباشر، وإعادة بناء فهم المجتمع عن طريق خلق نخب 'مقاولة' كجماعات طائفية متناحرة. أي 'مجتمع جماعات' دون مجتمع مدني، منقسم عموديًا فيما تشرحه مقولة 'المجتمع الفسيفسائي' التي هي، بوصفها مقولة نظرية متسقة، مقولةٌ استشراقية صرفة. ولقد شكلت هذه المقولة أساس ثقلٍ نظريٍّ في النظر إلى مجتمعات سوريا الطبيعية والعراق، أي إقليم بلاد الشام التاريخي والعراق كنموذجٍ للمجتمع الفسيفسائي الذي تتجاور وحداته لكنها لا تتلاقى فيما بينها حسب تنميط المقولة النظرية. مقولةٌ تُطبق حالياً في لبنان والعراق وفق نموذج 'الديمقراطية التوافقية'الذي يعتبر المفهوم الأكثر تسطيحاً لمبادئ ومفاهيم الديمقراطية. بما يعني أن من يطرح حالياً في المسألة السورية صيغاً أو مناهج طائفية يتلاقى مع المقولات والرؤى الاستعمارية لمجتمعاتنا، ويضع سوريا أمام خطورة مسألة 'تسييس الطائفة' ما يؤدي إلى انهيار المشرق العربي برمته، وتحويله من دولٍ مركزيةٍ إلى جماعاتٍ طائفيةٍ وإثنيةٍ عابرةٍ للحدود.

في الختام تجدر الإشارة إلى أن مسألة التماثل بين مؤسسات الدولة ومؤسسات نظام الحكم في سوريا هي قضيةٌ أخرى لا تناقشها هذه المقالة انطلاقاً من أن السلطة السياسية هي أحد أركان الدولة. لكن هذه المسألة تبقى في حاجةٍ إلى الكثير من الجهد البحثي لنقاشها.

مناف زيتون*

الافتراضي يخضع للواقع

يعمّق عيوبه ويشوّه معرفته

الخلاصة:

حين اخترع ألفريد نوبل متفجرات الـTNT كان يسعى لتسهيل عمل المناجم، ولكن الأمور انقلبت على عكس ما يشاء، وأسس جائزة نوبل بفروعها في محاولة للتعويض عن الذنب الذي اقترفه. من الممكن معاملة الإنترنت كحالة مماثلة، وعلى الرغم من أن أصول ظهورها العسكرية تقل نبلاً عن غاية نوبل، فإنها تجاوزت تلك الوظيفة الصغيرة مقارنة بكل ما ساهمت فيه اليوم من خراب. تعرض هذه المقالة الأثر الذي تركته شبكة الإنترنت على الواقع بملامحه العامة، بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على إتاحتها للاستخدام المدني.

* طالب ماجستير في كلية الإعلام بجامعة دمشق. يعمل كصحفي مستقل، وعمل سابقاً كمحرر ومدير تحرير في عدة مواقع إلكترونية ودوريات مطبوعة محلية. له عملان روائيان هما 'قليل من الموت' و'طائر الصدى'، إضافة لتأسيسه وإدراته لموقع 'بلوكة.كوم' المختص في نشر النصوص الأدبية ومقالات الرأي، والذي يشاركه الكتابة فيه أربعة آخرون من طلاب كليته.

كَسرَ القُيودَ الجغرافيّة، حوّلَ العالمَ إلى قريةٍ صغيرة، وغيرها من الوصوف الّتي تطلق على كل ابتكار تقني في مجال الاتصالات. الإنترنت ليس إلّا واحداً منها، سعة مجالات استخدامه وإمكانية استغلاله جعلت حجم الصدمة أكبر وأوسع، بالنسبة للكثيرين كان مبشراً بعهدٍ جديد، تفقد فيه السلطات بأنواعها ووسائل الإعلام التقليدية سطوتها على التدفق المعلوماتي، بعد أن تصبح المعلومات عن كل ما في العالم متوفرة للجميع. لكن اليوم، وبعد مرور حوالي الثلاثين عاماً على رؤية الإنترنت النور، وحوالي العقد على دخوله عالمنا العربي بالكم والنوع الكافي -بأدنى حدٍ ممكن- فإن هذه الانطباعات الأولى تحتاج إلى مراجعة.

شبكة الإنترنت كتقنية بدأت في العام 1969 على يد وزارة الدفاع الأمريكية، ليوضع بعد تطورها جزء منها (APRA Net) بمتناول المدنيين في العام 1983، ولكن معظم الباحثين يعتبرون أن العام 2000 هو نقطة انطلاق انتشار الإنترنت، خارجاً عن مكانته كجزء من الرفاهية التكنولوجية الغربية، وفي الوطن العربي يمكن تحديد هذه النقطة في زمانٍ ليس بعيداً عن هذا العام، في سوريا كانت القفزة النوعية في استخدامه في العام 2009 حين دخل مخدّما إيريكسون وهواوي بأكثر من 33 ألف بوابة إنترنت فائق السرعة (ADSL)، متيحاً بذلك للإنترنت أن يلعب دوراً ريادياً في مخاطبة الرأي العام، والاعتماد عليه كمصدر متوفر في شكلٍ دائم للمعلومات والأنباء، وقادر على كسر الرقابة الحكومية المفروضة على وسائل الإعلام التقليدية، ولكن هل من الممكن مقارنة الفوائد قليلة العدد واسعة النوع المعروفة للإنترنت بالعيوب التي باتت جلية اليوم، وبكم الأثر السلبي الذي يتركه على المجتمع فكرياً وأخلاقياً وعلمياً؟

الأفراد يخسرون رهان

يفترض بالإنترنت أن يكسر احتكار المؤسسات للخطاب الموجه، أو هذا ما قيل لنا. خارج الإنترنت هذا الخطاب محتكر من قبل وسائل الإعلام ودور النشر، إضافة للسلطات السياسية والدينية والمالية التي تخاطب الرأي العام من خلال هذه المؤسسات.

مع بداية الربيع العربي بدأت تظهر المجموعات الإخبارية، والتي تسعى – أو هذا ما تعلنه على الأقل- إلى كسر قيود السياسات التحريرية لوسائل الإعلام، خصوصاً تلك المفروضة من قبل الحكومات. وبعد مرور القليل من الشهور بدأت هذه المجموعات تفقد مصداقيتها لما تحمله من أخبار ملفقة تخدم غايات ناقليها، ولارتباط معظم أخبارها بالمكاتب الإعلامية للتنسيقيات والكتائب المسلحة، التي تمثل جهةً سياسيةً لا يناسبها أن تنقل كل الأنباء كما هي. انعدام الثقة في وسائل الإعلام التقليدية بعد تجلي ولاءاتها المتطرفة لهذا الفريق السياسي أو ذاك، لم يمنع استمرار تفوقها كمصدر رئيسي للأخبار. فلو قال شاب على صفحته على فيسبوك أنه رأى صاروخاً يمر من فوق رأسه، سيكون هناك الكثير من المشككين، في حين أن ناشطاً باسم وهمي على قناة العربية أو الجزيرة، ليس في المكان الذي مر منه الصاروخ، سيجد عدداً أقل من المشكّكين، على الأقل لأسبابٍ غير الولاءات السياسية.

مجموعتا 'أخبار شباب سوريا' و'تحرير سوري' تعتبران من أكبر المجموعات الإخبارية السورية المختصة بنقل وتبادل الأنباء. فأعضاء الأولى أكثر من 24 ألف، والثانية حوالي 20 ألف، إضافة لتقديمها مراسلاً في مؤتمر جنيف 2. هذه الأرقام تبدو جيدة للوهلة الأولى، ولكن نظرةً أكثر تأنياً على أخبار هذه المجموعات، تكشف كون معظم أخبارها منقولة عن منقولة، وغالباً ما يكون المصدر إحدى وسائل الإعلام التقليدية أو المكاتب الإعلامية للجهات السياسية والعسكرية المختلفة، في حين أن الأخبار الحصرية بالمجموعة لا تشكل نسبة تذكر، ومعظم مشتركيها لا يستخدمونها (المجموعات الإخبارية) سوى كمكان لزيادة متابعي شبكات إخبارية أخرى. ومن وجهة نظرٍ ثانية فإن أرقام المشتركين المذكورة ما زالت لا تعني شيئاً، إذا ما قارناها بأكثر من 700 ألف متابع لصفحة قناة أورينت المعروفة بتحيزها وقلة مهنيتها في نقل الأنباء منذ اندلاع الصراع في سوريا.

لا بد من التنبه إلى عدم منح هذه المجموعات أهمية إعلامية وخبرية أكثر مما هي عليه، فهي ما زالت مرتبطة بأوضاع طارئة في بلادها، سواء من حيث صعوبة تحقيق التغطية الصحفية من قبل مراسلين محترفين، أو من حيث كون كثافة الأنباء الصادرة من بلد معين تجعل من الصعوبة بمكان التحقق من جميع الأنباء من قبل صحفيين محترفين، أو على الأقل عاملين في وسيلة الإعلام نفسها. وفي حين تحتاج هذه المجموعات وسائل الإعلام الكبرى كمنصّات تنقل الأخبار عنها من حينٍ لآخر لتزيد من شهرتها ومصداقيتها، فإن العكس ليس صحيحاً، وبمجرد قدرة وسائل الإعلام التقليدية على توظيف مراسلين يمارسون عملهم الصحفي بحرية فإن الحاجة إلى هذه المجموعات ستنتفي.

توزيع الحقد

لا يمكن لأحد أن ينكر الدور الكبير الذي لعبه الإنترنت في تطور المعرفة، من حيث إمكانية التواصل الكبيرة التي أتاحها بين المهتمين بالعلوم المختلفة، ومن حيث سرعة وصول الكشوف العلمية إلى كل أنحاء العالم بمجرد تحقيقها. وقد ظهر ذلك الدور في التجارب العلمية الكبرى التي تحتاج لمشاركة عدد كبير من العلماء في تحليل بياناتها، يصعب جمعهم في مكانٍ واحد مؤهل لإجراء بحوثهم.

بالمقابل فإن سهولة تجمع أصحاب الاهتمامات المشتركة كان له ضريبة كبيرة، وأكبر من الأرباح

المحققة ربما. فكما أن الواقع يحوي من العلماء أقل بكثير من المتعصبين، فلا بد أن ينعكس ذلك على الافتراضي. وبفضل الإنترنت بات بإمكان الجماعات السلفية في لبنان، التي قد لا يزيد جمهورها داخل وطنها على المئة ألف، أن توجه خطابها لأكثر من 65 مليون مستخدم للإنترنت يتكلم العربية، ليصبح توزيع الحقد وتحريض الكراهية لدى الآخرين أسهل كماً ونوعاً. فمثلاً بإمكان كاتب مثل حكم البابا أو نبيل فياض أن يوجه آراءه العنصرية والطائفية إلى عشرات آلاف المتابعين لصفحته، نفس الآراء التي لا توجد جريدة محترمة توزيعها أقل من ثلاثة آلاف نسخة تقبل بنشرها مهما كانت سياستها التحريرية متطرفة أو متساهلة. كما بات بإمكان مئات فيديوهات العنف وامتهان النفس البشرية الوصول إلى ملايين المشتركين حول العالم؛ فيديوهات لم يكن أحد ليفكر بتصويرها لمعرفته أن لا أحدَ سيقبل بنشرها، نفسها التي باتت تعرض اليوم -على عكس الأعراف الأخلاقية صحفياً- على شاشات التلفزيون، بسبب طرحها لأول مرة بين أيدي العوام، وارتفاع الطلب عليها.

على الإنترنت الأرض مسطحة

من أكبر المضار التي تسبب بها الإنترنت سهولة تزوير المعلومات، بعضها على شكل اقتباسات تتحفنا بها صفحات الفيسبوك كل يوم، وتنسبها لشخصيات عالمية لم تقل ربع ما نقل عنها، حتى إنك تظن أن آينشتاين كان خطيباً أو مؤلفاً لكتب تطوير الذات، وليس عالم فيزياء غيرت أبحاثه مستقبل الفيزياء النظرية.

مستخدمو الإنترنت يعودون لخلفيات تعليمية مختلفة، سواء من حيث مستويات التعليم المحصلة، أو من حيث فروع المعرفة التي يختصون بها أو يضطلعون بها، وإن كان هناك حدٌّ أدنى من إتقان مهارات استخدام الحاسوب. سوى مواقع الجامعات ومراكز الأبحاث التي تقدم الدراسات التي تنجزها بنفسها، فإنكَ بالكاد تجد موقعاً أو صفحةً ذات مصداقية كاملة كمصدرٍ للمعلومات.

إحدى صفحات الفيسبوك نقلت معلومةً تقول أن بؤبؤ العين يتسع حتى مرة ونصف أكثر من الوضع الطبيعي له عند لقائكَ بشخصٍ يهمك أمره؛ معلومةٌ كهذه ستثير ضحك أي إنسان يتذكر درس العين من المدرسة الإعدادية، أما تعليقات بعض الأطباء المتحمسين لتصحيح المعلومة -إن وجدت- فستمر مرور الكرام بين آلاف التعليقات (في صفحة فيها أكثر من 18 مليون مشترك)، وفي مكانٍ ما هناك من علقتْ هذه المعلومة المغلوطة في رأسه، ليقوم بإشهارها في مكانٍ آخر، إن لم يكن قد أعاد نشرها، ليصبح بعد مرور ما يكفي من الزمن أمراً صعباً أن تخبر الحقيقة للآخرين بهذا الخصوص.

اقتصار الأمر على هذا الشكل الرومانسي من التشويه للمعلومات لا يُعد مشكلة حقيقية، إذا ما قورن بالتشويه المتعمد لحماية معتقد ما أو وجهة نظر ما. مئات -إن لم يكن آلاف- المعلومات الكاذبة تبث كل يوم على صفحات ومواقع الإنترنت لدعم فكرة 'الإعجاز' عند مختلف الأديان، وقد وصل الأمر حد إقناع البعض أن الأرض مسطحة وأن القمر نصف كروي. أما الرقابة العلمية -ولو الأخلاقية- المفروضة على الكتب المنشورة فغائبة تماماً على الإنترنت، إذ لا شيءَ يمنعك من نشر مقال حجمه أربعة آلاف كلمة تشرح فيه بناءً على أدلّة وهمية وحوادث خيالية أن زيارات الفضائيين المزعومة لكوكبنا حقيقة وليست مجرد

نظرياتٍ ضعيفة. والأسوأ أن التعصب الديني لعلمائنا بات يظهر في صورة أوضح على صفحات الفيسبوك، إن لم يكن عن طريق الترهات التي ينشرونها متجاهلين تناقضها مع ما أمضوا عشرات السنين في دراسته، فبصمتهم وتركهم معلوماتٍ و'حقائق' تتنافر مع أبسط القواعد العلمية المسلّم بها منذ آلاف السنين أحياناً، توخياً للردة على دينهم.

المال يعود لعرشه

كما كل شيء في عالمنا 'المتحضر'، المال يحكم كل شي، وشبكات التواصل الاجتماعي حتى وقتٍ ليس شديد البعد كانت استثناءً، ولكن مع الوقت بدأت تظهر بعض الإعلانات على الهوامش الجانبية لهذه المواقع، بالكاد نلاحظها، أو نبرمج نظرنا مع الوقت على تجاهلها، وفيما بعد تغيرت الأمور جذرياً.

جميع من يدير صفحة على فيسبوك لاحظ في وقتٍ أو آخر إضافة خيار جديد إلى منشورات الصفحة، Boost Post، والذي يعني دفع مبلغٍ من المال يضمن لكَ ظهور هذا المنشور لدى عددٍ معين من المشتركين في فيسبوك، قد يبدو الأمر بسيطاً، بضعة منشورات تقوم بتمويلها، تحقق بعض الانتشار وينتهي الأمر هنا. ولكن الأمر ليس كذلك، كل يوم ترى مئات المنشورات من صفحات لستَ معجباً بها، بحجة أن أحد أصدقائك علّق عليها، أو أعجب بها، أو أن المنشور جاء على ذكر فرقة موسيقية أو كاتبٍ سجلت إعجابك به، هذا كله بفضل المال، ولا تعتقد أنكَ ستملك مالاً يكفي لهذه الإعلانات يوماً يزيد عن أموال صفحة شركة إنتاج موسيقية أو دار نشرٍ كبرى تستغل هذه الميزة لتوصل إليكَ كتبها الهزيلة، معتقداً أنها وصلتكَ بمحض الصدفة على موقع شديد الازدحام مثل فيسبوك.

في عام 2012 تم إدراج فيسبوك كشركة مساهمة في بورصة نيويورك، ووُضِعَتْ أسهمه في التداول لأول مرة، ووُضِعَت بالتالي الشركة تحت الاختبار كمشروعٍ ربحي. النتائج الأولية كانت مشجعة، ولكن مع مضي الأسابيع الأولى بدأ يظهر ضعف أسهم فيسبوك، وعدم قدرتها على تحقيق أرباح رأسمالية (ناجمة عن بيع السهم بسعر يزيد عن سعر شرائه نتيجة صعوده)، لتليها الشكوك حول قدرة فيسبوك على الاستمرار كشركة برمجيات منافسة، وجاء تصريح لشركة جنرال موتورز بأنها "غير مهتمة بالإعلان على موقع فيسبوك" ليضع الموقع أمام تحدٍ حقيقي لا بد من تفاديه ليستمر المشروع.

المعادلة الاقتصادية المعتادة في المواقع الإلكترونية تكون "مضمون مثير للاهتمام = الكثير من المستخدمين أو المتصفحين = اهتمام المعلنين". ولكن اهتمام المعلنين التقليديين بفيسبوك لم يرقَ إلى مستوى النفقات التي يتكبدها الموقع نتيجة اتساع قاعدة مستخدميه وما يترتب عليها من حاجةٍ إلى مخدّمات وموارد بشرية ومالية كبيرة. الحل كان بكل بساطة هو تحويل المستخدمين -عملياً السلعة المباعة للمعلن- إلى مستهلكين، وذلك بطرح أسلوب جديد للإعلان على فيسبوك، المنشورات المرعية أو الممولة. اليوم ظهور كثير من المنشورات على صفحتك الرئيسية مَرَدُّه إلى تمويلها وحاجة فيسبوك إلى تحقيق كمٍّ محددٍ من المشاهدة ليحقق واجباته من التعاقد الإعلاني المبرم. مع الوقت هذه المنشورات ستطغى، وعدم إعجابكَ بصفحة ممولة لا يعني نجاتكَ من منشوراتها في كل مكانٍ من صفحتكَ الرئيسية،

أصدقاؤكَ سيتحولون إلى حالات نادرة، أصدقاؤكَ الذي انضممتَ إلى فيسبوك والإنترنت كله لو شئت لتتواصل معهم بشكلٍ أفضل.

اليوم شبكة الإنترنت واقعة بين نارين، فإما مراقبتها للحد من تشويه الواقع والعقول، أو تخليصه من أيدي المؤسسات الكبرى التي تديره -وتملكه في شكلٍ أو آخر- مطلقين العنان لمخيلة أكثر من مليار ونصف المليار مستخدم، يحملون ما يحملون من مقوّماتٍ كافيةٍ لتشويه كل تفصيلٍ من تفاصيل انعكاس الواقع على الافتراضي، الذي بدوره يكاد يكون مصدر المعلومات الوحيد لغالبية شعوبٍ لم تعد تقرأ الكتب أو الصحف. أياً كان الحل الأنسب، فإن الواقع ما يزال كما هو، والإنترنت اليوم يعجز أن يكون إلا حجراً آخر في الجدار الذي يرتفع فاصلاً بين البشر، مُتيحاً لأحقادهم وجهلهم بعالمهم، وببعضهم البعض، بالظهور والانتشار كوباءٍ يزيد خطورةً عن الروابط المزعجة التي تصلكَ كل يوم.

هوشنك أوسي*

كي لا تُفسَدَ الثورةُ السوريّةُ بأيدي من يمتطونها!

الخلاصة:

أثبتت الأحداث الأخيرة في المنطقة سقوط التعريفات التقليديّة للثورة كأن تكون منظمّة، منضبطة، وبعيدة عن الفوضى، أو أن تقودها أحزاب ثوريّة، وينظّر لها فلاسفة وقادة كبار. لكن سقوط الأنظمة الدكتاتوريّة لا يعني أن المنطقة ستتخلّص من الذهنيّة الدكتاتوريّة في شكلٍ تلقائي-أوتوماتيكي. والثورة السوريّة ليست استثناءاً تاريخيّاً، ولا هي طفرةٌ عمّا سبقها من الثورات التي انطوت على خزينٍ هائلٍ من الطموحات والأحلام. إلا أن ما يميّزها أن المتطفّلين والفاسدين والمتطرّفين قد امتطوا الثورة قبل وصولها للسلطة. هذه المقالة ليست للتهويل أو المبالغة، بل لقرع المزيد من أجراس الخطر لئلّا تنهار أحلامنا في التحرّر من كل الأغلال ومصادر الاستبداد.

* كاتب وشاعر وصحافي كردي سوري مقيم في بلجيكا. يكتب باللغتين العربيّة والكرديّة في الشؤون الكرديّة والتركيّة والسوريّة. نشرت له صحف عربيّة عدّة كالحياة، والشرق الأوسط، والخليج، والمستقبل اللبنانيّة، ومجلة نزوى، ومجلة الشروق، ومجلة طنجة الأدبيّة، كما ترجمت مقالاته الى التركية والإنكليزيّة. عضو رابطة الصحافيين السوريين، ونادي القلم الكردي، ونادي القلم الدولي.

منطقة الشرق الأوسط على صفيحٍ ساخن وملتهب، تعيشُ مخاض ولادةٍ جديدة؛ عسيرة ومؤلمة جداً. كل المشاكل القوميّة والدينيّة العالقة طفت على سطح الصراعات في المنطقة، لكن الشرق الأوسط لن يعيش في هذا النفق الدموي، أو الجحيم إلى الأبد. الثورات في أفضل أحوالها صراعات، ربما تنزلق نحو الحرب الأهليّة أيضاً، وهذا ما جرى في فرنسا سنة 1789 وفي روسيا سنة 1917 وفي الصين وفيتنام وكوبا ومناطق عديدة من العالم راح ضحيّتها الملايين، لكنها تبقى ثورات. أثبتت الأحداث الأخيرة في المنطقة، سقوط التعريفات التقليديّة للثورة، وأنها يجب أن تكون منظمّة، منضبطة، وبعيدة عن الفوضى، وتقودها أحزاب ثوريّة، وينظّر لها فلاسفة وقادة كبار. لقد سقط التعريف الكلاسيكي-اللينيني الذي يقول: "لا حركة ثوريّة بدون نظريّة ثوريّة".

مع سقوط الأنظمة الدكتاتوريّة التي أتت للحكم عبر انقلابات عسكريّة غلّفها أصحابها بشعارات ثوريّة رومانسيّة يوتوبيّة عن العدالة والحريّة والديمقراطيّة والاشتراكيّة. أثبتت الأحداث أن هنالك حركة اجتماعيّة ثوريّة بدون نظريّة وأحزاب ثوريّة. ومع ذلك، ليس من الإنصاف وضع كل الفكر اليساري في المتاحف.

سقوط الأنظمة الدكتاتوريّة لا يعني أن المنطقة ستتخلّص من الذهنيّة الدكتاتوريّة في شكلٍ تلقائي-أوتوماتيكي. ذلك أن تراكم نمط المعيشة القائمة على الإذعان والرضوخ والولاء والطاعة العمياء، وقتل مراكز الإحساس بالتفرّد والتمايز في الشخصيّة وتدجينها ودغمها في القطيع، واغتيال إرادة التحرر لدى الإنسان التي مارستها الأنظمة الدكتاتوريّة الدينيّة والقوميّة على مدى قرون، لا يمكن التخلّص منها في بضع سنوات. حركة الفكر والتاريخ لا يمكن حصرها ضمن بعض الدوغمائيات الأيديولوجيّة اليساريّة أو اليمنيّة. التاريخ يقول: ما من ثورةٍ دون تدخّلات خارجيّة، مباشرة أو غير مباشرة. كل طرفٍ يريد أن يقطف ثمار الثورات وفق مقتضيات مصالحه الدوليّة الإقليميّة القوميّة الدينيّة الطائفيّة. وإذا لم تكن الثورة في صالحه،

حينئذ، يسعى إلى وأدها أو الطعن فيها كما تفعل روسيا والصين وإيران حاليّاً مع الثورة السوريّة. ما من ثورةٍ قطف ثمارها أصحابها الحقيقيون الذين ضحّوا من أجلها. ورغم ذلك تبقى ثورات. حتّى لو فشلت ثورةٌ ما ولم تحقق أهدافها، يبقى علم الاجتماع السياسي يسمّيها ثورة، لأنها ساهمت في خلخلة البنى الاجتماعيّة والفكريّة الجامدة في المجتمع، وفتحت المجال أمام التحوّلات وولادة أفكار جديدة.

الشاعر الروسي المعروف فلاديمير مايكوفسكي (1893 – 1930) وصلت به حالة اليأس والانكسار والخيبة مما آلت إليه حال السلطة التي أفسدت كل الأحلام الثوريّة لدى شباب ثورة أكتوبر سنة 1917 إلى درجة الانتحار. وقبل مايكوفسكي انتحر الشاعر سيرغي يسينين (1895 – 1925)؛ وقتئذ، كانت تفسّر هذه الانتحارات بأنها حدثت على خلفيّات اجتماعيّة أو عاطفيّة أو ما شابه ذلك، بغية التعمية عليها كردّ فعلٍ أو تعبيرٍ عن الخيبة والخذلان وانكسار الأحلام الثوريّة تجاه السلطة الجديدة الحاكمة. ولكن فيما بعد، أعاد النقّاد النظر في تفاصيل وارهاصات هذه المواقف - الانتحارات. فالإنسان هو حلم-طموح، إن مات الحلم مات الإنسان، ذلك أن حياة المرء دون طموحٍ وأملٍ كعدمها.

وحين وضعت الثورة الجزائريّة أوزارها على الاحتلال الفرنسي، وتحرّرت الجزائر ونالت استقلالها، بدأت الطفيليّات 'الثورجيّة' تمتطي الثورة-السلطة وتقطف ثمارها بنهمٍ وشراهة. وسرعان ما بدأ الشجار والتطاحن 'الثورجي' على السلطة يظهر على السطح، وصارت البلاد نهباً لأزلام وحاشيّة السلطة الجديدة إلى يومنا هذا.

وحيال انهيار الأحلام الثوريّة وزوال سحر الثورة على الاحتلال، وانكشاف بطانة من امتطوها، ووصلوا إلى السلطة على جثث الجماهير، فأفسدوا السلطة وأفسدتهم، كان للمبدع الجزائري موقفٌ مبدئي، رصين وحازم، سواء في الرواية أو الشعر أو القصّ، ويمكن إيراد قصّة 'الشهداء سيعودون هذا الأسبوع' للكاتب والروائي الجزائري الراحل الطاهر وطّار (1936 – 2010)، وكيف أن الحكّام الجدد (الثوّار السابقون) يشككون في عودة الشهداء (مليون ونصف شهيد) وبل يرتعبون من حدوث ذلك، بحججٍ واهيّة، لأن كل مسؤولٍ حاكمٍ له قصة غدرٍ وخيانة مع أحد هؤلاء الشهداء. وبعودتهم إلى الجزائر يعني أن من امتطوا الثورة واستحوذوا على السلطة واستأثروا بها لن يفقدوا امتيازاتهم وحسب، بل سينتقم منهم الشهداء أيضاً، وسيساقون إلى المحاكم، وستفتح دفاترهم وينكشف غدرهم برفاقهم الشهداء حين كانوا أحياء. لذا، وبحسب تلك القصّة، فإن السلطات الحاكمة (ثوّار الأمس) تتخذ التدابير اللازمة للحؤول دون عودة الشهداء الذين فقدوا حياتهم لتتحرر الجزائر. وحين انتقد وطّار النظام الجزائري الحاكم، وتدميره سحر الثورة الجزائريّة، بالتأكيد كان هنالك من الكتّاب والصحافيين والأدباء الجزائريين ممن وقفوا إلى جانب النظام، وهاجموا وطّار سرّاً أو جهراً سعياً وراء منفعة أو جرياً خلف مقامٍ أو صيتٍ أو حظوة.

الثورة السوريّة ليست استثناءاً تاريخيّاً، ولا هي طفرةٌ عمّا سبقها من الثورات التي انطوت على خزينٍ هائلٍ من المشاريع والأفكار والطموحات والأحلام العابرة للأقوام والأديان والطبقات، وصولاً للفضاء الإنساني الأكثر رحابةً وعدلاً وحريّةً وديمقراطيّة. هذه الأحلام التي كانت لها بريقٌ وسحرٌ لاهبٌ وأخّاذ، استقطبت ملايين البشر ونخبها، أفسدتها السلطة حين وضعت الثورات أوزارها، وغدا الثوّار طلاّب سلطة، فتحوّلت الثورة بعد استلامها للسلطة إلى توليد الاستبداد والفساد والإفساد، وتحويل الجماهير (الأصحاب الحقيقيون للثورة) إلى قطيعٍ وهمج، تسبّح بحمد مستبدّيها والطغاة الجدد.

ما يميّز الثورة السوريّة عن سابقاتها في العالم العربي والعالم بأسره، أن المتطفّلين والفاسدين والمتطرّفين قد امتطوا الثورة قبل وصولها للسلطة وإسقاط نظام الأسد، وليس بعد إسقاطه. وصارت الثورة السوريّة، نهباً ومرتعاً لكل طالب سلطة أو لاهثٍ وراءها. وهذا ما كان يفسّر الحال المتردّيّة للمعارضة السوريّة التي وصلت وتسرّبت إلى الجيش الحرّ أيضاً، وفسح المجال أمام استشراء التطرّف والتنظيمات التكفيريّة. وإذا كانت جرائم المعارضة السياسيّة تقتصر على الأخونة والعرعرة والاستيلاء على المنح الماليّة الآتية للمعارضة أو الآتية للاجئين السوريين، فإن جرائم الجيش الحرّ، وبخاصّة كتائب 'داعش' و'جبهة النصرة' المتطرّفة قد وصلت حد الإرهاب والقتل على الهويّة. والحال في تفاقم من سيّءٍ إلى أسوأ. مع الأسف، زد على ذلك أن كل عنصر أو مسؤول عسكري أو أمني أو سياسي ينشقّ عن النظام، بعد أن كان يفعل "السبعة وذمّتها" (كما يقال في الدارجة) أثناء تواجده على رأس عمله كجزءٍ من نظام الأسد، يصبح ثوريّاً معارضاً وينضمّ إلى المعارضة أو الجيش الحرّ، فيستمرّ في فساده واستبداده في المعارضة بنفس القدر الذي كان يمارسه على السوريين، حين كان في السلطة. ناهيكم عن اختراقات النظام للمعارضة السياسيّة والعسكريّة في سوريا.

وربما لا يمتلك المثقف السوري جرأة الطاهر وطّار في الكتابة عن مساوئ ومفاسد الثورة السوريّة، إلى جانب ذكره مفاتنها ومحاسنها، أو لا يمتلك شجاعة مايكوفسكي، أو خليل حاوي الذي لم يتحمل رؤية بلده يُغزى من الإسرائيليين فأطلق النار على نفسه. ربما لا يمتلك المثقف السوري بعد هذه الخصلة في المواجهة والتحدّي، حين يرى ثورته على استبداد وفساد نظام الأسد، تتعرّض للغزو الأخواني والسلفي والقومجي وفساده، ما يدفع المواطن السوري العادي وضع يده على قلبه ويتحسّب ما سيأتيه من الحكّام الجدد، بعد إسقاط نظام الأسد. لكن، بكل ثقةٍ سيأتي اليوم الذي تفتح فيها ليس فقط ملفّات النظام، بل ملفّات المعارضة أيضاً، في حال وصلت للسلطة أم لا.

ما سلف ذكره أعلاه، ليس من باب التهويل أو المبالغة، بل هو التحذير والتحذير ثم التحذير، وقرع المزيد من أجراس الخطر، وإطلاق صافرات الإنذار، لئلّا تنهار أحلامنا البسيطة في وصول الثورة السوريّة بالبلاد نحو التحرّر من كل الأغلال ومنابع ومصادر الاستبداد والفساد السياسي والاقتصادي والثقافي والديني.

من نافلة القول: إن فساد السلطة من فساد المعارضة، وإذا كان إفساد الشيء يعني قتله تدريجيّاً، فإن إفساد الثورة السوريّة لا يعني قتلها وحسب، بل قتل كل حلم جميل بمستقبلٍ جميلٍ وهادئٍ وراقٍ ومدنيٍّ لسوريا.

رهام كوسا*

مفارقات لونية
في الداخل السوري

الخلاصة:

منذ كانون الثاني هذا العام، ومع الحديث عن انتخابات رئاسية سورية في حزيران، تبدأ أغلاق المحلات في المدن السورية بارتداء العلم السوري، ما رآه البعض تمهيداً للحملة الانتخابية التي طُرِحَ فيها الرئيس بشار الأسد مرشحاً رئيسياً. يخرج العلم السوري من رمزيته الوطنية التي تمثل الدولة والوطن، ليمثل طيفاً سياسياً محدداً، بخاصة مع اعتناق معارضة الخارج علماً بألوان أخرى. يحاول المقال تسليط الضوء على الخطاب الإعلامي والبصري الـمُعْتَمَد في الحملات الانتخابية الرئاسية، ودورها في تحديد ألوان الحياة السياسية الحالية في الداخل السوري، مع مقارنةٍ أوليةٍ لتلك الحملات مع مثيلاتها في لبنان حيث فراغٌ رئاسيٌّ ينتظر أن ينتهي.

* طالبة ماجستير في كلية الإعلام جامعة دمشق، ومعيدة في قسم الإذاعة والتلفزيون في الكلية ذاتها. تعمل صحفية لجمعية قرى الأطفال SOS. عملت محررة لعدد من المواقع الالكتروني السورية واللبنانية، ومراسلة لمجلة Syria Today الورقية. لديها مدونة شخصية أدبية تحمل اسم 'فتات أيام'.

يشهد السوريون للمرة الأولى منذ أربعين عاماً انتخابات رئاسية، تزامنت مع حرب أهلية لم يعتادوها قبلا. يحاول المواطن السوري التصرف مع فعل الانتخابات على أنه عادة، متكيفاً مع اللوحات والرايات التي تبدأ بدعوة لفكرة الانتخاب فقط، لتتحول إلى كرنفال لوني حاد. يضطلع الخطاب الإعلامي والسياسي بالدور الأبرز في صياغة التوجه العام نحو الانتخابات وخلق ثقافة الاختيار، محاولاً أن يقنع الرأي العام في الداخل والخارج بوجود بدائل مختلفة، لكن سقط سهواً أن ما نقله من حملات لمرشحين مختلفين اعتمد هوية بصرية حد التطابق.

المراقب للحملة الانتخابية في سوريا منذ بداية الحديث عنها، يعلم كيف بدأت تصاعدياً على اللوحات الطرقية وفي الإذاعات والمحطات التلفزيونية الرسمية وشبه الرسمية. تبدأ بطرح مفهوم الانتخابات أمام العامة بالقدر المطلوب من البساطة، لا تدعوه لانتخاب هذا دون ذاك، بل تحضه فقط على التجربة، مقنعة إياه أن صوته سيصنع الفرق، تحمل إعلانات الانتخابات الحالية شعار "صوتك رئيس... صوتك الوطن". تربط اللوحات الإعلانية بين التصويت والوطن كمفهوم عاطفي، رغم أن محللين ومطالعين للوضع السياسي في سوريا يدركون تماماً أن المشاركة في الانتخابات ستكون ضمن شرائح اجتماعية ومناطقية معينة، تفرضها حربٌ أخرجت مدناً سورية خارج الخارطة إلى المجهول، كما رمتْ ملايين ممن يحق لهم الانتخاب على الحدود في مخيمات اللجوء. وفقاً لمنظمة الأمم المتحدة، وبناء على حسابات أجراها بعض الصحفيين في صحف عربية وعالمية، لن يتعدى عدد المشاركين في الانتخابات القادمة الخمسة ملايين، وذلك بعد عملية حسابية بسيطة مفادها أن من يحق له الانتخاب في سوريا وخارجها هم 12 مليوناً ممن يتعدون الثامنة عشرة، نصفهم أو أكثر خارج سوريا في مخيمات اللجوء أو في مناطق الشمال والشمال الشرقي ممن تسيطر عليه المعارضة التي لن تسمح بانتخابات رئاسية يشارك فيها الرئيس بشار الأسد كأبرز المرشحين.

وفي خطوة سابقة وأكثر توقعاً لتهيئة السوري مسبقاً لما سيبرم في حزيران، تنطلق منذ بداية العام،

ودون إشعار مسبق دعوة رسمية لطلاء أغلاق المحلات في المدن السورية. منتصف كانون الثاني الماضي، في حي المزة شيخ سعد، بعضهم كان قد بدأ في طلاء الواجهات المعدنية بالأسود من الأسفل. كان واضحاً أنهم يرسمون العلم السوري.

لا يتطلب الأمر دهاء لاكتشاف أنه فرض للحضور بداية الحملة التي يرجح كثيرون أنها ستثبت مكان الرئيس بشار الأسد بعد العاصفة التي دمرت الكثير. يمثل العلم السوري طرفاً سياسياً واضحاً أمام الأطراف التي اتخذت لها هويات لونية مختلفة من علم الانتداب الأخضر الذي يمثل الائتلاف السوري المعارض في الخارج، والذي تتمثل به فئة من المعارضين، إلى العلم الأسود ذي عبارة التوحيد االذي يطبع كل تحركات الكتائب الإسلامية المتشددة. نسخ العلم على الواجهات التجارية للمحلات كافة هو إضفاءٌ للشرعية على طرف دون آخر، أي أن الانتخابات الحالية لن تضم سوى أصحاب العلم الأول. فيسبوكياً يرى البعض في تلوين الواجهات ضرورة لفرض النفوذ والحضور الحقيقيين، فيما يعتبره آخرون استفزازاً سياسياً فقط. اتفق معظمهم أنه كان حرياً بهم استثناء واجهات محلات دمشق القديمة الخشبية، بعضها أثري يعود لأكثر من مئة عام، ومحو خدوشها بطلاء صامت هو أمر مؤلم حقاً.

دمشق اليوم ملونة بالعلم السوري في كل المحلات دونما استثناء. وإن بدأ بعضهم بطلاء الأغلاق برتابة قسرية، راح آخرون يتفنّنون في ذلك، جاعلين من العلم والغلق لوحة بسيطة، تخرج من إطارها السياسي لتجعل الشارع أفضل. يألفها الدمشقيون. إذ ليست المرة الأولى التي يفرض فيها إجراءات شكلية مجتزأة لخلق هوية بصرية مطلوبة لمواكبة حدث سياسي أو ثقافي معين. لُوِّنَتْ واجهات محلات حلب بالأخضر عند اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية عام 2006. إجراء مماثل فرض في تسعينيات القرن الماضي بإلغاء كل أسماء المحلات الأجنبية وترجمتها حرفياً إلى اللغة العربي، ليمسي محل 'فوركاتس' للألبسة النسائية، محل 'القطط الأربعة'. أيضاً ما لبث أن اعتاد الشارع السوري الأسماء المترجمة باللامنطقية الفكاهية تلك، بعضها ما زال إلى الآن.

ومع الحديث عن مقاطعة الأحزاب والتكتلات المعارضة الداخلية والخارجية للانتخابات، يبدو أمر اعتماد العلم السوري مكملاً للتصور العام. تحمل الحملة الحالية طابعاً منظماً وتراكمياً. هذه المرة بدأ الموعد مبكراً، لكن لم يكن مستغرباً أبداً أن تبدأ حملة منظمة.

تعتمد الانتخابات الحالية العلم السوري كهوية لونية يفترض أنها تخاطب جميع التوجهات السياسية متجاهلة ما اعتمدته الأطراف الأخرى من أعلام ورايات يصر أصحاب كل منها على شرعيتها، لكن ليس مجهولاً أبداً أن هذا العلم فرض نفسه كشعارٍ لوني يمثل الطرف الحاكم في دمشق. محاولة استخدام هذا الشعار اللوني للترويج لفعل الانتخاب، في شكلٍ يدفع كل السوريين للإدلاء بأصواتهم، لا يبدو أنه ينجح في إقناع ممن قرروا مسبقاً أنهم لن يشاركوا في الانتخاب. ويطرح هذا تساؤلاً على الجانب الآخر: هل يمكن أن تقنع هذه الشعارات الوطنية البسيطة، المعلقة على اللوحات الإعلانية في العاصمة دمشق، الناس للإدلاء لأصواتهم في الانتخابات الرئاسية؟ بخاصة مع غياب شخصية معروفة مرشحة مقنعة غير الرئيس الحالي؟

يعلن مجلس الشعب حتى اللحظة عن ترشح اسمين مغمورين، لم يكن لأحدهما أي شعبية سياسية قبلاً، سوى أن الحجار عضوٌ في مجلس شعب. لكن ليس للسوريين اهتمامٌ بأسماء أعضاء المجلس سوى

بعض الأعلام المعروفة للجميع، ممن يمثلون قاعدة فعالية تجارية أو صناعية ضخمة. ومع الأخذ في عين الاعتبار الفوارق في القدرات المادية بين المرشحين الثلاثة، يلاحظ التفاوت الواضح في مستوى نضج اللوحات الانتخابية للمتنافسين. يجمع كثيرٌ من الصحفيين على عدم وضوح الشعارات التي أطلقها كل من الحجار والنوري، متزامنةً مع هوية بصرية هي أبعد ما تكون عن الجدّية في طرح العناوين الرئيسية للبرامج الانتخابية.

في بيروت، انتخاباتٌ رئاسية أخرى، ولكن الألوان وتصاميم اللوحات هناك تحمل طابعاً آخر. لا تطرح عناوين قصيرة تلخص البرامج الانتخابية المفقودة حتى الآن، بل تدعو الجميع للمشاركة في الفعل السياسي الأهم لتحديد مستقبل البلد. في لبنان يبدو التصوير البصري في اللوحات الإعلانية أكثر تعقيداً، واحترافية، ربما لاعتياد الشعب اللبناني حياة سياسية أكثر تعقيداً، تضطلع بها الرايات والشعارات وصور الزعماء السياسيين، كلٌّ حسب حيّه. هناك يحذرون من الفراغ، رابطين بينه وبين عدم استقرارٍ دائم. ومع اختلاف الاعتبارات التي سيسمى بها الرئيس اللبناني القادم عن الاعتبارات الحاضرة في سوريا، تبقى اللوحات المتزاحمة في العاصمة اللبنانية نوعاً من 'التوعية الترفيهية' للعامة ممن يدركون أن لا دور لهم بتاتاً في تحديد القائد السياسي المرتقب. للمرة الأولى يتم الحديث عن 'لبننة' القرار الرئاسي أي أنه لن يقوم على تسويةٍ بين الدول العربية والغربية التي تتقاسم النفوذ السياسي بأسماء زعماء السياسة المحليين في لبنان. مايزال المستقبل الرئاسي اللبناني غامضاً دون أن يضطلع الإعلام اللبناني، في منابره المقروئة والمرئية، إلا بالنقد الساخر الفاقد للأمل في إيجاد حلٍّ قريب، ليتعامل الشارع اللبناني مع الأزمة الطارئة كواحدة أخرى من المشاكل الحياتية اللاحول لهم فيها ولا قوة كأزمة الكهرباء والبطالة والغلاء وغيرها ممن اعتادوا معايشتها والحديث عنها دون حنق كبير.

في تركيا، ينتشر انتقادٌ إعلاميٌّ لأردوغان لاستخدامه العلم التركي في حملته الانتخابية. يختلف مفهوم الرمز الوطني هناك، حيث يفترض أنه يمثل جميع الأطراف السياسية لا حزباً بعينه، وهو ما يفتقد حالياً في سوريا مع تزاحم رايات فرض النفوذ.

على الطرف الآخر من سوريا، وفقاً لشهودٍ عادوا من هناك، فرض الحضور السياسي والعسكري منحىً لونياً معاكساً. السواد الكامل ودون ذلك الجلد أو القتل. تحمل الوحدة اللونية في المدينة طابعاً آخر: كل النساء متشحاتٌ بالسواد الدموي، لا يمكن الاعتراض أو حتى مناقشة القرارات القطعية هناك، حيث تدأب داعش إلى نشر مقاطع فيديو لإعداماتها اليومية لزرع رعبٍ يفحم الجميع.

نهايةً، لا يتوانى أيٌّ من الأطراف السياسية على الساحة السورية في نشر رأيه السياسي للعامة، مستخدماً الخطاب الإعلامي 'الدعائي' وسيلةً واضحةً لنشر الأيدولوجيا المطلوبة. أحياناً يأخذ النشر مسلك الفرض، ليكون مجرد نصحٍ في أوقاتٍ أخرى. يعتاد السوريون الألوان المفترضة لمواكبة الخيار السياسي اليومي، وللمرة الأولى تفلح دمشق في الالتزام بلباس موحد. لم تكن تهوى التخلف، لكن كانت فوضويةً حد الواقع. هي مازالت كذلك، وإن وَحَّدَتْ تَبَرُّجَهَا هذه المرة.

فيكتوريوس بيان شمس*

الألتراس:
النشأة والدور

الخلاصة:

ليس هنالك أسهل من أن يصنع النظام عدوه بنفسه، فأغلب شباب الألتراس (روابط المشجعين لكرة القدم، في مصر في هذه المقالة) يتحدّرون من بيئات وطبقات فقيرة معدمة. أي أنّهم طاقة اجتماعية هائلة، ستشكل فيما لو توحّدت على برنامج سياسي اجتماعي اقتصادي تهديداً لا يُستهان به للنظام. فوجود الألتراس، وعلى عكس ما هو حاصل في أوروبا التي قطعت أشواطاً في المسائل المتعلّقة بتحقيق الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية وحرية الرأي والتعبير مثلاً، يُعتبر في عالمنا العربي مؤشراً على نجاح النظام السياسي في تضليل وعي جماهيره. فكانت الأتراس بعدائها لأجهزة أمن النظام، وبالتحديد لقوى وزارة الداخلية، العدو المثالي بالنسبة للنظام. وهو العدو الذي في أقصى طموحاته يريد مساحةً من الحرية تتيح له التعبير عن نفسه بتفجير مكبوته في هذا المجال، الذي لن يصل في حال من الأحوال لدرجة تهديد وجود النظام. في شباط/فبراير 2013، أي أثناء ما عُرف بأحداث 'قصر الاتّحادية'، تراجع حضور الألتراس عمّا كان عليه في الموجة الأولى في 2011، فيما سُجّل حضورٌ لافتٌ لشباب الأحزاب والتنظيمات التي نشأت بعد الإطاحة بالرئيس السابق محمد حسني مبارك، وهو ما يؤشّر إلى أن هذه القوى كانت رهينة تمثيلٍ سياسيٍّ مختلف، أبعدَ فئاتٍ واسعةً من الشباب المهمّش عن مصالحها المباشرة، فجاءت الثورة لتعيدهم إلى مواقعهم الطبيعية. هذا يعني أن قسماً كبيراً منهم انخرط في العمل السياسي عبر الأحزاب والتنظيمات حديثة النشوء.

* كاتب سوري مقيم في القاهرة منذ أواسط العام 2012 بعد أن انتسب إلى 'ائتلاف اليسار السوري'. عمل في صفوف 'اتحاد الشباب الديمقراطي السوري' منذ العام 1995 وحتى 1998، ثم في 'الحزب الديمقراطي الشعبي' في لبنان منذ العام 1999 وحتى أواسط العام 2011 حيث تركه بعد أن اتّخذ الحزب موقفاً مؤيّداً للنظام السوري. درس العلوم السياسية والإدارية في الجامعة اللبنانية ببيروت، وله مساهمات في عدد من الصحف والمجلات والمواقع السورية والعربية.

مقدّمة

تعتبر الرياضة كما باقي الأنشطة الاجتماعية، الفن بمختلف ألوانه، العلم، التكنولوجيا، انعكاساً طبيعياً للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في أي بلد؛ تؤثّر فيه، وتتأثّر، فتساهم في تشكّله الثقافي. والتعاطي مع المسألة الرياضية، كما غيرها من الأنشطة، يختلف من بيئةٍ لأخرى، أو من بلدٍ لآخر، بحسب غنى وتنوّع الثقافات فيه، إضافةً لتأثير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في شكلٍ مباشرٍ عليها وعلى المهتمين بها. بتطور وسائل الاتّصال والطفرة التكنولوجية الحاصلة، أصبح بإمكان المهتمّين بالحدث الرياضي، كما بغيره، أن يتابعوا ويتفاعلوا مع مجريات ما يحدث في أي بقعة من العالم لحظة بلحظة. هذا ما سمح لأيٍّ كان أن يتحزّب لنادٍ أو فريقٍ خارج حدود بلاده.

وما يحدث في مصر، جزءٌ لافتٌ ممّا يحدث في عالمنا العربي المتأثّر بما حوله. هذا ما أظهرته أحداث 'الربيع العربي' المنطلقة من تونس في 17 أيلول/سبتمبر 2010، فأبرزت على سطح الأحداث قوىً وتنظيماتٍ لعبت أدواراً ضخمة وأساسية، لم يكن المواطن العربي خارج حدود مصر يعرف عنها شيئاً.

الألتراس ultras، أو روابط المشجّعين لفرق كرة القدم المصرية، واحدة من القوى الفاعلة التي لعبت دوراً لا يُستهان به إبّان الثورة المصرية التي اندلعت أحداثها في 25/يناير/2011، والتي أطاحت برأس السلطة، فظهرت كقوة سياسية منظّمة بشكل جيد، أكثر منها روابط مشجّعين. لكنها ما لبثت أن خبت، وخفّ وهجها، خاصة بعد الأحداث والمراحل المفصلية المتعاقبة التي مرّت بها مصر بسبب من تطوّر الأوضاع السياسية والتنظيمية والأمنية فيها.

سيتطرّق هذا البحث السريع، لظروف نشأة الألتراس، وأسبابها التاريخية، والدور الوظيفي الذي من أجله تساهل النظام في منحها الترخيص. لكن من زاوية موقعها وتأثيرها في الحياة السياسية كلاعب أساسي في الفترة المفصلية التي أدّت للتغييرات التي نشهدها اليوم، لإستكشاف ما يمكن استنتاجه من هذه الظاهرة.

نشأة الألتراس وأسبابها التاريخية

مرّت مصر بمراحل وأطوار سياسية مختلفة نتيجة تفاعل قواها الإجتماعية والسياسية، عدا عن موقعها الجيوستراتيجي في العالم العربي والعالم، الذي كان يفرض نفسه على واقعها، فقد تمرحلت الحياة السياسية المصرية بثلاث نقلات أساسية، كانت الأولى منها قد بدأت مع ثورة 23/يوليو/1953، حيث قيّدت حرية إنشاء الأحزاب والجمعيات لصالح الحزب الواحد 'كالاتّحاد الاشتراكي' الذي استأثر بالسلطة حتى المرحلة التالية، والتي بدأت في عهد الرئيس أنور السادات عندما صدر قانون الأحزاب الذي يحمل الرقم (40) للعام 1977، بحيث استحدثت لجنة شؤون الأحزاب التابعة لمجلس الشورى المصري، وهي اللجنة المولجة بمنح التراخيص. أنتجت هذه المرحلة عدّة أحزاب، منها 'حزب الغد' بزعامة أيمن نور، و'الحزب العربي الديمقراطي' الذي حاز على حكم من محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة (دائرة الأحزاب). وقبلها، وأهمّها جميعاً 'الحزب الوطني' المنحل على إثر ثورة 25 كانون الثاني/يناير 2011، وهو الذي كان مهيمناً في شكلٍ مطلقٍ على 'لجنة شؤون الأحزاب'.

في عام 2005، أُجري تعديلٌ على القانون رقم (40) للعام 1977 ليضع على إنشاء الأحزاب والجمعيات شروطاً أشبه بالتعجيزية مثل: "عدم قيام الحزب في مبادئه أو برامجه أو في مباشرة نشاطه أو في اختيار قياداته أو أعضائه على أساس ديني أو طبقي أو طائفي أو فئوي أو جغرافي أو إلى استغلال المشاعر الدينية أو التفرقة بسبب الجنس أو الأصل أو العقيدة". قبل هذا العام، أي في عام 2004، نشأت 'حركة كفاية' الشهيرة، وعملت على فضح ممارسات النظام في ظل احتجاجات كانت تتصاعد في أكثر من مكان، أبرزها احتجاجات عمال المحلّة. أي أن 'حركة كفاية' نشأت متمرّدةً على القانون رقم (40). يضاف إلى هذا، أن هنالك أحزاب وتنظيمات دينية قديمة 'كالإخوان المسلمين' المؤسَّس منذ عام 1928، وبعض التنظيمات 'الجهادية' كانت موجودة على الساحة السياسية المصرية، تعمل بصمت تارة، وبصخب ورعب وإرهاب تارة أخرى.

بناءً على التعديل الأخير للقانون رقم (40)، رُخّص 'لاتّحاد محبي النادي الأهلي' الذي كان يرمز له بـ 'ALU'، والذي كان عبارة عن موقع الكتروني أنشأه في عام 1996 مجموعة من المغتربين المصريين في الخارج، ليصبح جمعية رسمية مشهرة هي 'رابطة مشجّعي الأهلي'. كل هذا كان يجري في ظل أوضاع اقتصادية متردية وصعبة يمرّ بها المجتمع المصري تحت حكم قوانين الطوارئ، وفساد مستشرٍ يصعب، بل يستحيل علاجه وفقاً للوضع القائم. وهو ما سمح بتراكم الأسباب حتى لحظة انفجارها في الثورة التي استطاعت الإطاحة برأس النظام في 2011.

كانت الألتراس المصرية من حيث التركيبة والدور الشكلي لها، محاكاة للتجارب التي سبقتها في بلدان أخرى كالبرازيل والأرجنتين في أميركا اللاتينية أربعينيات القرن الماضي، والتي امتدت فيما بعد إلى أوروبا وبالتحديد إلى أوكرانيا ليؤسّس في البداية 113 طالباً مجموعة 'التورسيدا' التي كانت تشجّع فريق 'هايدوك سبليت' الكرواتي في نهائيات كأس العالم 1950. ثم انتقلت شرارة الألتراس إلى بولندا، ثم إلى روسيا، وإيطاليا، وبريطانيا، ثم انتشرت في العديد من دول العالم. أمّا في عالمنا العربي فقد بقيت محصورة في بضع دول هي دول شمال إفريقيا. والمفاجئ هنا أن أول ألتراس عربي، تشكّل، كان في ليبيا عام 1989 تحت اسم 'دراغون' الذي كان يشجّع نادي 'الاتّحاد'، إلا أن سلطات العقيد معمر القذافي كانت

قد أوقفته على الفور وقتها.

بعد ظهور 'رابطة مشجعي النادي الأهلي' أو ما يُعرف بـ "Ultras Ahlawy" بفترة قصيرة، نشأ 'ألتراس وايت نايتس' المحسوب على فريق الزمالك، لتكر السبحة فيما بعد، ويُنشئ كل فريق على امتداد الجمهورية رابطة مشجّعيه. وأغلب أعضاء هذه الروابط من الشباب، في بلد نسب البطالة فيه تتجاوز الـ 12%، ونسب الأسر الفقيرة 33% بحسب 'الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء'.

الدور الوظيفي للألتراس

بعد انطلاق الثورة من ميدان التحرير في 25 كانون الثاني/يناير 2011، كان للألتراس حضور لافت ووازن، فقد أضفوا على الحراك زخماً لا يُستهان به استمر لأشهر بعد سقوط مبارك في 11 شباط/فبراير 2011، ليتركوا بصمتهم التي أصبحت جزءاً من المشهد السياسي، والتشكّل الثقافي للمجتمع المصري بعد الثورة. إذ استطاعوا بأساليبهم الفنّية (الغناء، الغرافيتي، التحركات الاحتفالية أو الاحتجاجية عالية التنظيم) جذب الأنظار إليهم، كظاهرة جديدة بدأت تقتحم المشهد المصري بكل جوانبه.

لكن السؤال المحوري هنا: لماذا منح النظام المصري ترخيصه وموافقته للألتراس للبدء بإنشاء روابطهم وممارسة نشاطاتهم، على خلاف الأحزاب والجمعيات الأخرى التي كان من الصعب عليها استيفاء كامل شروط القانون (40) بتعديلاته عام 2005؟ يقول محمد جمال بشير، مؤلّف كتاب 'الألتراس' الصادر عن 'دار دَوِّن' في طبعته الخامسة (ص 75): "الألتراس مجموعات غير مُسيّسة نتيجة لعدم توافقية أفرادها على اتجاه سياسي محدّد، وهو ذلك النوع الذي تنتمي إليه أغلب مجموعات الألتراس المصرية، والذي يمنعها من المشاركة سياسياً، ويجعلها تقف بعيداً عن المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية أو المشاركة المجتمعية لأفرادها".

إذاً، الألتراس مجموعات غير مسيّسة، وليس لديها أيديولوجيا. هذا يعني أن بنيتها لا تسمح لها المشاركة في الحياة السياسية كباقي التنظيمات، التي بالضرورة سيكون من أهدافها الوصول إلى السلطة في ظل نظام توتيوليتاري-أوليغارشي، لا يقبل المنافسة. عدا عن أن أعضاء الألتراس، وبحسب نفس الكتاب (ص 96)، يعتبرون أن عداءهم هو للمثلث متساوي الأضلاع: "كل رجال الأمن أوغاد – ضد الميديا – ضد الكرة الحديثة".

في أوائل شباط/فبراير 2012، وقعت مجزرة راح ضحيتها 74 مشجّعاً، بحسب مديرية الشؤون الصحية في بور سعيد، على خلفية عراك بين 'مشجّعي فريق النادي المصري' المحسوب على مدينة بور سعيد، و'مشجّعي فريق النادي الأهلي' المحسوب على العاصمة القاهرة. اضطر الجيش، الذي اتُّهم بالتواطؤ لتسهيل المجزرة وتشتيت أنظار الشعب المصري عن الأوضاع السياسية الدقيقة التي تمر بها البلاد، إلى إخراج مشجّعي الأهلي من المدينة بدبّابته. ومازالت تبعات هذه المجزرة ماثلة إلى اليوم، ومازال القضاء يحقّق في ملابساتها. هذا عدا عن الحوادث الكثيرة المتفرّقة هنا وهناك، والتي تقع بشكل ملفت، بحيث تشهد شوارع القاهرة في بعض المواسم الرياضية حروباً طاحنة، تستعمل فيها الأسلحة البيضاء في شكل واضح.

وبالعودة لأواسط عام 2009، حيث في ذروة احتدام الصراعات السياسية، وقبل انتخابات مجلسي

الشورى والشعب بأشهر قليلة، وفي ظل غليان في الشارع المصري، وحراك سياسي لافت، استخدم النظام المصري المشكلة الحاصلة على خلفية مباراة كرة قدم بين المنتخب المصري ونظيره الجزائري، حيث توسّعت لتلامس حدود التلويح بالقطيعة السياسية والدبلوماسية بعد الأحداث المؤسفة التي وقعت أثناء المباراة التي جرت في ملعب المريخ في منطقة أم درمان في العاصمة السودانية الخرطوم، والتي كشف فيما بعد عن تورّط جمال مبارك ابن الرئيس المخلوع بتأجيج هذه الأحداث. حيث عمل على نقل المشجّعين المصريين بالطائرات مجّاناً إلى السودان، في خطوة لافتة لتضخيم الأزمة، وإعطائها أكثر من حجمها. هذه الأزمة التي لا علاقة للألتراس بها، لكن النظام في ذروة مآزقه كان مضطراً لافتعال مشكلة كهذه، تصرف الأنظار عنه. وبالطبع، ليس هنالك أفضل من توظيف حدث رياضي بهذه الضخامة، وتوجيه الإعلام لإعطائه صخب أكبر، فيصبح الحدث حدثاً 'وطنياً' يجلب التعاطف مع النظام في أشد لحظات ضعفه.

عبد الله شلاش*

التوجهات السياسية لرأس المال في سوريا

الخلاصة:

يقدم هذا المقال شرحاً موجزاً عن التوجه السياسي لرأس المال في سوريا، مسلطاً الضوء على نشأته التاريخية وطبيعته التراكمية غير الوطنية، ثم علاقة الفساد المتبادل بين رأس المال والسلطة قبل الثورة السورية انتهاء بسلوك رأس المال خلال الثورة، من حادثة سوق الحريقة إلى دعوات الإضراب، ثم غياب أي رؤية سياسية وغياب المسؤولية الاجتماعية مع بدء العسكرة وختاماً هجرة رؤوس الأموال. وحاولنا في نهاية البحث لفت انتباه القارئ إلى الفرق الجوهري بين النمط السياسي لرأس المال في سوريا ورأس المال في الغرب.

* عبد الله شلاش، خريج كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، ويعمل مراقب مالي في شركة خاصة في القاهرة.

مقدمة

شهدت سوريا في العقد الماضي تحوّلاً نحو الرأسمالية، تجسد ببيع قسم كبير من المؤسسات الإنتاجية العامة بالتزامن مع ظهور مؤسسات جديدة خاصة. ووسط فوضى التحول، كان مصطلح 'المسؤولية الاجتماعية لرجال الأعمال' من أكثر المصطلحات رواجاً في الأوساط الأكاديمية ولدى صُنّاع القرار على حد سواء. ويجسد المصطلح دعوة رؤوس الأموال للمشاركة في دعم قطاعات المجتمع الأقل دخلاً؛ سواء عبر دعم التعليم بالمنح أو البنية التحتية كما هو سائدٌ في الغرب، أو عبر تقديم معونات مباشرة للطبقات الفقيرة في صورة منتظمة أو بالحد الأدنى عبر سداد الضرائب المستحقة.

غالباً ما جُوبهت هذه الدعوات بالتجاهل من قبل رأس المال المحلي. والملفت في هذه الدعوة أنها كانت مقتصرةً على المشاركة في الجانب المعيشي الاجتماعي دون الجانب السياسي، وهو ما دفع برأس المال المحلي إلى الابتعاد عن الجانبين معاً، باستثناء قسم من رؤوس الأموال المرتبطة ارتباطاً وثيقا بالسلطة والناتجة عنها أساساً. وقبل الخوض في التفاصيل سنقوم بفرز مبدئي لرأس المال في سوريا بناء على نشأته التاريخية

التاريخ الحديث لرأس المال السوري

لا يمكن الحديث عن تكوينٍ تراكميٍّ حقيقيٍّ لرأس المال في سوريا. فبعد موجتي التأميم وحقبة البيروقراطية الطويلة، كان صدور قانون الاستثمار رقم 10 عام 1991 بمثابة دعوة لاستثمار الأموال المتراكمة خلال الفترات السابقة، وأيضاً جسد دعوة لرأس المال الأجنبي للعمل داخل البلاد 'بما ينسجم مع الخطة الإنمائية للدولة'. وإذ يعتبر القانون رقم 10 نقلة نوعية في مجال التشريع لرأس المال الخاص في سوريا، فإن ما ظهر لاحقا أثبت أن دعوة الاستثمار الصريحة المتضمنة في القانون لم تكن عامة، بل هدفت إلى توظيف رؤوس الأموال الناتجة عن الفساد، والتي جسدت معظم التوظيفات المحلية في حين لم تكن البنية التحتية المادية منها أو التشريعية (من حيث وجود قانون يحمي رأس المال الأجنبي ويعطيه فرصاً

متوازية) مواتيةً لرأس المال الأجنبي للاستثمار في مشاريع طويلة الأجل. وهكذا برزت حالة رأسمالية غير منظمة، يمكن إدراج الرأسماليات الناشئة ضمنها في ثلاث فئات كما يلي:

1. رأس المال الناجم عن السلطة: و هو رأسمال بدأ يتكون مع موجة التأميم الثانية بسبب الفساد القائم في السلطة الاشتراكية التي تلت التأميم. ونتيجة تحكم السلطة السياسية بكافة مصادر الثروة، فإن معظم الأموال الموجودة في سوريا قبل ظهور قانون الاستثمار رقم 10 لعام 1991 وبدء حالة الانفتاح العامة عام 2000 كانت مدرجة ضمن هذه الفئة. ومع غياب التشريعات التي تسمح بالاستثمار الخاص قبل عام 1991، كان الاستثمار في الخارج أو الادخار هما الخيارين الوحيدين لهذا النوع من التراكم. ونظراً لارتباط رأس المال هذا بالسلطة، فإن توجهه السياسي غنيٌّ عن التعريف. وسنكتفي بالقول أن رأس المال المتراكم نتيجة البيروقراطية القائمة قبل عام 2000 هو الوجه الاقتصادي للنظام السياسي في سوريا حتى وقتنا الحالي، وهو رأسمال ملتصق تماماً بالسلطة القائمة.
2. رأس المال القادم من الخارج بفعل المغتربين السوريين أو المستثمرين الأجانب: بعد ظهور التشريعات التي سمحت لهم بالعمل عام 1991 -كما ذكرنا- فإن البنية التحتية لم تكن مؤهلةً لنشوء استثمارٍ طويل الأجل في سوريا، ما جعل رأس المال الأجنبي حالةً ربحيةً موقتة، حيث تجلّى معظمه باستثمارات في مجال الخدمات، وهو ما يعكس زيادة عدد المصارف وشركات النقل على حساب ثبات أو تراجع المشاريع الزراعية أو الصناعية المتوسطة والثقيلة طويلة الأجل.
3. رأس المال المحلي المنفصل عن السلطة: وهو رأس المال الذي تقلص بعد التأميم واقتصر على المشاريع الفردية أو شراء الأملاك، ثم عاد للظهور بعد عام 2000 في صورة تدريجية، بخاصة بعد طفرة العقارات التي بدأت عام 2003، والتي ولّدت حركة بيعٍ للأملاك، وإعادة ظهور البرجوازيين القدامى ضمن سقف العمل المسموح به، وهؤلاء هم الفئة التي كان يعوّل عليها لتكوين توجه سياسي مختلف لرأس المال في سوريا

سنركز في دراستنا على المجموعتين الثانية والثالثة من رؤوس الأموال، لأن التوجه السياسي للمجموعة الأولى يعتبر واضحاً.

علاقة السلطة برأس المال قبل الثورة:

مع الغياب التام للحياة السياسية في سوريا قبل الثورة، لا يمكن الحديث عن توجه سياسي محتمل لرأس المال، علماً أن الليبرالية السياسية تعتبر شرطاً أساسياً لليبرالية الاقتصادية التي كانت سوريا تسير نحوها. لكن المرجعية الفكرية المشوشة لرأس المال في سوريا كانت بعيدةً تماماً عن محاولة خلق نمطٍ مخالفٍ للسلطة القائمة، بل كانت تتماشى معها تماماً، كأنها تموّل فساد السلطة في صورةٍ غير مباشرة. ويمكن توضيح علاقة السلطة برؤوس الأموال الخاصة بعد التشريع والسماح لها بالاستثمار كملكيةٍ خاصة بمثالٍ كثير التكرار في سوريا: تاجرٌ يحاول استيراد منتج مستوفياً كامل الشروط، ومع وصول البضاعة، تقوم السلطة بالحجز عليها دون وجود مسوّغٍ قانوني، فيلجأ التاجر إلى الدفع في صورة غير قانونية أيضاً لإدخال بضاعته بدل اللجوء إلى القانون. وعليه، يمكن وصف علاقة السلطة برأس المال في سوريا بعلاقة الفساد المتبادل، مع عدم تدخل رأس المال المصنف ضمن البندين الثاني والثالث بالحياة السياسية، أو بأي جانبٍ له علاقة بإدارة الدولة أو بناء مؤسساتها.

التوجه السياسي لرأس المال خلال الثورة:

شكّلت حادثة سوق الحريقة الشهيرة بتاريخ 17 شباط/فبراير 2011، مؤشراً قوياً على التململ القائم في الأوساط الرأسمالية في سوريا، ودفعت الكثيرين إلى الاعتقاد أن رأس المال الوطني بدأ يحاول صياغة واقعٍ سياسيٍّ مختلف، وأن الليبرالية الاقتصادية التي جلبتها السلطة السياسية قد انقلبت عليها، لما يعنيه سوقُ الحريقة كمركزٍ لرأسمالية العاصمة.

ومع تصاعد وتيرة الاحتجاجات، بدأت هذه الرؤيا تثبت فشلها تدريجياً، وانقلبت تماماً مع دعوات الإضراب التي أطلقها الناشطون، والتي لاقت دعماً في الأرياف وقل دعمها في المراكز الرأسمالية. وبدا واضحاً حينها انفصال الفئة الثانية والثالثة من رؤوس الأموال عن حراك المجتمع. ومع مرور الوقت وبدء ظهور الكتل المدنية كمحاولةٍ لصياغة رؤيا سياسية جماعية، غاب رأسماليو سوريا عن المشهد مرةً أخرى، فلم يظهر أي تجمعٍ أو مبادرة لوضع رؤيا سياسية موحدة قد تظهر الهوية السياسية لرأس المال المحلي.

ومع بدء ظهور حالة العسكرة وتدهور الوضع الإنساني في سوريا، كان المجتمع بأمس الحاجة إلى تحركٍ جماعيٍّ غير مسيس لرأس المال، يهدف إلى حماية الفئات المتضررة والحد من الفقر والتمويل المسيس القادم من الخارج. لكن هذا التجمع لم يكن موجوداً باستثناء وجود دعمٍ إنسانيٍّ في صورةٍ فردية في بعض المناطق، إلّا أن التوجه العام لرأس المال كان التمسك بالحياد. ومع ازدياد حدة المعارك وانتشارها جغرافياً وتدهور البنية التحتية في سوريا، بدأت حالة التدفق العكسي لرؤوس الأموال ضمن الفئة الثانية؛ مصطحبةً معها شرائح واسعة من الفئة الثالثة. ليبقى جزءٌ من البرجوازية الوطنية يعمل في شكلٍ محدودٍ في مراكز المدن، إضافةً إلى إعادة سيطرة الفئة الأولى على معظم مفاصل الحياة الاقتصادية في المجتمع بصفتها الرافد الأساسي لاقتصاد النظام القائم.

ما يمكن استخلاصه من سلوك رأس المال في سوريا خلال الانتفاضة، أنه أقرب إلى رأسمال مضارب يعمل ضمن الواقع السياسي بغرض الربح دون محاولة تغيير الواقع، ودون وجود رؤيا سياسية علنية مع ما يحمله رأس المال المضارب من صفات أخرى، وهي الانسحاب عند الشعور بالخطر وعدم مراعاة مأساة المجتمع. ويعود ذلك، كما ذكرنا في بداية المقال، إلى نشأته في صورة غير تراكمية وعدم اكتسابه هوية وطنية حقيقية.

يجب التنويه دائماً إلى أن رؤوس الأموال في الغرب، رغم تعاملها مع كل ديكتاتوريات العالم وتأقلمها معها، إلا أنها تحمل توجهاً سياسياً صارماً في بلادها لدعم الديمقراطية. وإن كانت تدعم حزباً في الانتخابات، إلّا أنها في العمق تدعم نظاماً سياسياً تعددياً. تعتبره شرطاً أساسيا لليبرالية الاقتصاد التي تتيح لها العمل بحرية. هذا فضلاً عن التزامها اجتماعياً في شكل كبير في دعم فئات المجتمع الأخرى. وهنا يجب التذكير دائماً بمقولةٍ كان يرددها الدكتور عارف دليلة -أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة دمشق وعميد كلية الاقتصاد الأسبق- في كل الندوات الاقتصادية التي كانت تقام في دمشق قبل الثورة: "يجب البدء بالنظام السياسي قبل الحديث عن أي إصلاح اقتصادي"، وهي في الواقع مقولةٌ لا تبرر لرأس المال تقصيره في بناء مستقبل بلاده بقدر ما تحمّله جزءاً من مسؤولية التدهور القائم، وتدعوه مع بقية طبقات المجتمع إلى التفكير في نموذجٍ سياسيٍّ بديلٍ يكون حاملاً لنظام اقتصادي عصري.

مايا جاموس*

المسرح السوري
أزمة عميقة تتطور

الخلاصة:

يبرز التساؤل عن المسرح في بعض المدن السورية التي عرفت احتجاجات واسعة ضد النظام السياسي ووصل الأمر ببعضها إلى الخروج المطلق لكل أشكال سلطة النظام منها، وبالتالي انتفاء الحجة الصحيحة القائلة بقمعه، وقبل استفحال دور الإسلاميين. لمَ لم تظهر أو تتطور أشكال مسرحية تفاعلية؟ تستمر الشروط القديمة لتخلف دور المسرح في سوريا أي 'لأزمته'، وتُضاف إليها شروطٌ وأسبابٌ أكثر تعقيداً.

* حاصلة على إجازة من المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق من قسم الدراسات المسرحية، وتكتب في مجال الصحافة الثقافية، والمسرح خاصة.

مع بداية الحراك الذي شهدته مناطق واسعة من سوريا في 2011، برز التساؤل عن المسرح، أين هو؟ بخاصة مع دخول بعض المدن ضمن مصطلح 'التحرر' وخروج كل أشكال سلطة النظام فيها، وبالتالي انتفاء الحجة الصحيحة القائلة بالقمع والرقابة اللَّذَين كانت تمارسهما السلطة السياسية، لماذا لم تتمكن طاقة الحراك من تطوير أو استنهاض أشكال مسرحية إبداعية جديدة؟

ثمة عوامل أساسية تحكم ازدهار المسرح عالمياً، أهمّها مراحل المدّ التاريخية، وهذا انطبق على سوريا التي عرف مسرحها انتعاشة خلال الفترة التي بدأت مع مرحلة المد القومي، ثم النهوض التحرري من الاستعمار، حتى أن نكسة 67 لم تكن ذات تأثير سلبي على وضع المسرح السوري رغم الإحباط الكبير الذي خلّفته لدى المثقفين، بل كانت موضعَ حوار بينهم، انعكست أسئلةً وأجوبةً في النصوص المسرحية والعروض والمهرجانات والندوات. أي لم تؤثر الهزيمة على طاقة المجتمع آنذاك بل رفدت المجتمع بمحفّز للأسئلة القلقة والبحث عن إجابات لها في الثقافة، والمسرح على نحو محدّد (تجارب سعدالله ونّوس، وفرحان بلبل، وممدوح عدوان، ووليد إخلاصي، إلخ).

مع انحسار موجة المد القومي، تقدّمت الموجة الدينية الإسلامية وأخذ الإسلام السياسي يملأ الفراغات في سوريا، بين معاهد تدريس وتحفيظ القرآن، وتشجيع الجوامع والطرق الصوفية، ضمن عملية مجاملة واستغلال من قبل السلطة السياسية للإسلام السياسي، مع الأخذ في الاعتبار صراعها الدموي مع الإخوان المسلمين، ما أدخل البلاد في حالة من الشلل والخوف والحذر وتحفيز عصبيات متخلفة تطل برأسها كلما سنحت الفرصة لها، دون أن تتم أية عملية مصالحة وترميم في المجتمع حتى اليوم، وترافق ذلك مع تغييب المبدعين والنخب الثقافية والسياسية (من كل التيارات) بين السجون والمنافي وممارسة التضييق على أي إبداع. وبالتالي باتت السلطة-الدولة هي العامل الأهم في وضع الثقافة والمسرح في شكل خاص عبر العقود الأربعة الماضية، من خلال مسك المجتمع بكامله واحتكار كل شيء وتوجيهه وفرض الرقابة عليه واستخدام الثقافة لأسباب أيديولوجية ودعائية. ففقدَ المسرح جوهره وروحه القائمة على العلاقة العفوية الخلّاقة والجدلية مع المتفرج، وتفاقمت أزمته حتى هذا اليوم، دون أن يأتي شرطٌ جديدٌ يحفّزه.

ومن جانب آخر فإن للبناء الفوقي للمجتمعات تأثيراً كبيراً، إذ بقدر ما يكون منفتحاً وعقلانياً وديموقراطياً بقدر ما يساعد في بروز ظواهر ثقافية فنية مختلفة، وتطورها مثل المسرح كظاهرة جمالية تأثيرية، كما يساهم في تخليص المجتمعات نفسها من أزماتها. وعلى العكس من هذا عندما يكون البناء الفوقي للمجتمع محافظاً، أو تكون القوى الاجتماعية، التي تمسك بالقيادة فيه، ذات طبيعة مغلقة، فإنها تؤثر سلباً في ظاهرة المسرح. من هنا -في شكل أساسي- يمكن أن نفهم عدم تطور تجارب مسرحية في المدن أو المناطق السورية التي خرجت منها سيطرة النظام السياسي، في وقت مبكّر نسبياً، إضافةً إلى عدم أصالة العملية المسرحية بحد ذاتها في سوريا لتكون جزءاً بنيوياً حيوياً في ثقافة المجتمع.

حيث تم تهميش المسرح من قبل السلطة منذ استلام البعث، وتغييبه في شكل جزئي أو كلي في عدد من المدن السورية التي عرفت لاحقاً حراكاً شعبياً معارضاً مثل دير الزور وإدلب ودرعا. كما تفاقمت الأزمة بسبب غياب دور المسرحيين الذين احتُسِبُوا على الشق المعارض الداعم للحراك، سواء بسلميته أو بتسلّحه، والذين اكتفوا بإعلان مواقفهم السياسية المتماهية مع الشارع المحتج، بدل أن يقوموا بدورهم الثقافي والإبداعي، فلم نسمع عن مسرحيين عادوا إلى مدنهم 'المحررة' من العاصمة ليعملوا عروضاً مسرحية.

وهذا جزء من أزمة المثقفين الذين لم يساهموا خلال مرحلة الحراك السلمي، في بلورة مشروع 'ثقافي' يكرّس قيم الحرية والتنوير والديمقراطية، بل على العكس من ذلك بات السؤال عن 'المشروع' مادةً للتخوين والاتهام بحجة وجود هدف أساسي يتمثل بإسقاط السلطة، وبعده يتفرغ السوريون للاتفاق على ما يريدون. وبهذا تكرّست عقلية قمع التساؤل والنقد والاختلاف. وغدا عدد كبير من المسرحيين الذين برزوا كرموز معارضة، أو نشطوا في الحراك، خارج البلد، فلا هم في الجزء الذي يخضع لسيطرة النظام، يقدمون نشاطهم في الشق الإبداعي أو السياسي حتى، ولا هم في الجزء الخاضع للمعارضة ينشرون قيمهم من خلال الفن أو النشاط السياسي. إذاً المسرحيون بمن فيهم المعارضون اتجهوا حيث الأمان ولو جزئياً، بعضهم بقوا في العاصمة (حيث تخضع لسلطة النظام) يعملون ضمن شروط 'المتاح'، محاولين تلمُّس الأزمة السورية في مسرحهم في شكل غير مباشر، وآخرون اختاروا البحث عن خيارات العمل خارج البلد.

ولا ننسى أن دخول البلاد في فوضى السلاح والعنف غيّر كثيراً من أسئلة الناس والمثقفين، كما صعّب من العمل الجماعي المؤسسي كالمسرح، الذي يحتاج إلى شرطٍ آمنٍ ومستقر، علماً أنه ليس قاعدةً لاستمرار المسرح وازدهاره، ففي الحرب الأهلية اللبنانية لم يتوقف الإبداع المسرحي بل استمر حتى اليوم ينهل منها.

هناك ظواهر نشأت بعد الحراك يمكن احتسابها على المسرح في بعض المدن، على يد هواة، وبعض المسرحيات التي جاءت ضمن احتفالات سنوية انطلاق الحراك. كما برزت عروضٌ مسرحيةٌ في مخيمات اللجوء أو في بعض بلدان اللجوء الأوروبية. واستمر المسرح بمركزيته في دمشق، وتوقف في شكل كلي في بعض المدن المنكوبة مثل حمص والرقة، ونشط في مدينة اللاذقية محاولاً -كما في دمشق- أن يستفيد من هامشٍ ضيّقٍ لحريةٍ فرضتها الأزمة، يلعب على 'مفردات حديثة' عن الفساد والديمقراطية وهجاء القمع، والعنف، والحوار، إلخ.

تستمر الشروط القديمة المساهمة في تخلف دور المسرح في سورية، بخاصة الدور السلبي للغياب

الطويل للديمقراطية عن سوريا. كما الدور السلبي والمعيق للبناء الفوقي الديني في سوريا والعالم الإسلامي عموماً. ويمكن تكثيف هذين الشرطين بما قاله الراحل سعد الله ونّوس: "المشكلة أعمق وأكثر تعقيداً من علاقة سلطة/مجتمع. هناك تركيب ثلاثي، وربما يجب الغوص فيه أكثر لمحاولة استكشافه: بنىً اجتماعيةٌ متخلفةٌ جداً، مع بنًى اجتماعيةٍ حديثة شكلياً، وغياب أي تساوق أو مشروع مستقبلي يمكن أن تقوم به دولةٌ عصريةٌ لا تتعادى فيها السلطة مع المجتمع، بحيث تهمّش السلطة مجتمعها، وتجبره على العودة، في آليةٍ دفاعيةٍ سلبيةٍ، إلى بُناه التقليدية والأخلاقية المفوتة" (من حوار ونّوس مع د.ماري إلياس المنشور في مجلة الطريق، العدد الأول، سنة 1996).

وأضيفت شروطٌ أكثر تعقيداً بسبب الانقسام الحاد في المجتمع الذي شمل المثقفين والمبدعين، بخاصة بعد سيطرة العنف، واستنزاف الطاقات بحروب عديدة وانتماءات متخلفة، وتعقيدات بشروط الحياة والمعيشة.

ما الذي يمكن توقعه من المسرح؟ إن أزمة المسرح في سوريا قديمة وعميقة وتتطور بتطور المجتمع نفسه، وهو لم يدخل في ثقافة المجتمع السوري، من حيث اتصاله بالجماهير الواسعة، ولم يحدث ذلك بعد مرحلة انتعاشه التي تحدثنا عنها سابقاً، إلا في تجارب قليلة إما كان النقد الجريء للسلطة السياسية عنصرها الأساسي، أو عروض حملت عناصر أساسية جاذبة للجمهور مثل وجود أسماء فنانين معروفين تلفزيونياً، أو بعض العروض الكوميدية. بالتأكيد ما سبق هو صورة سلبية عن وضع المسرح باعتباره حالة اجتماعية متأثرة بمجمل الشروط الموضوعية لمجتمعه مضافاً إليها شروطه الخاصة. لكن في كل مرة نشاهد أو نسمع عن حدث مسرحي، أينما كان ومهما كان انتماؤه السياسي، فإن الأمر يستحق الوقوف عنده كثيراً، أولاً لاختبار هذا الفن ودوره في المجتمعات خلال أزماتها، وثانياً لاختبار المجتمعات نفسها وقدرتها على تطوير ذاتها وتجاوز أزماتها من خلال الفنون، سواء بتطوير فنونها والقدرة على خلق إبداعات متجددة، أو بالنكوص. فالمسرح مثله مثل أي عملية تاريخية اجتماعية ثقافية إبداعية لا بد من امتلاكه لقدرات وقابليات ذاتية للتفاعل والتطور والمواكبة.

عبدالوهاب عزاوي*

الأدب السوري 'المعارض' في مأزقه

الخلاصة:

الكتابة السورية الإبداعية في الوسط المعارض بعد الانتفاضة تُنَمِّطُ الإنسان السوري كضحية أو بطل، وتغرق في هجاء الديكتاتورية راسمةً صورةً موازيةً للواقع، بدل أن تدخل في عمق التحولات الإنسانية بسبب شروطٍ معقدةٍ وعبثية، وبدل أن تبحث عن أسئلة جديد تفرضها هذه الشروط وتسهم في تشكيل هويتنا على المدى الطويل.

* طبيب عيون، وعضو في 'رابطة الكتاب السوريين'. أعدّ عدة ملفات أدبية نُشرت في مجلة 'الآداب' بين عامي 2008-2009. صدر له ورقياً: 'حزن فوضوي'، 'نوتا.. فضاءات الحرية'، 'موزاييك الحصار'.

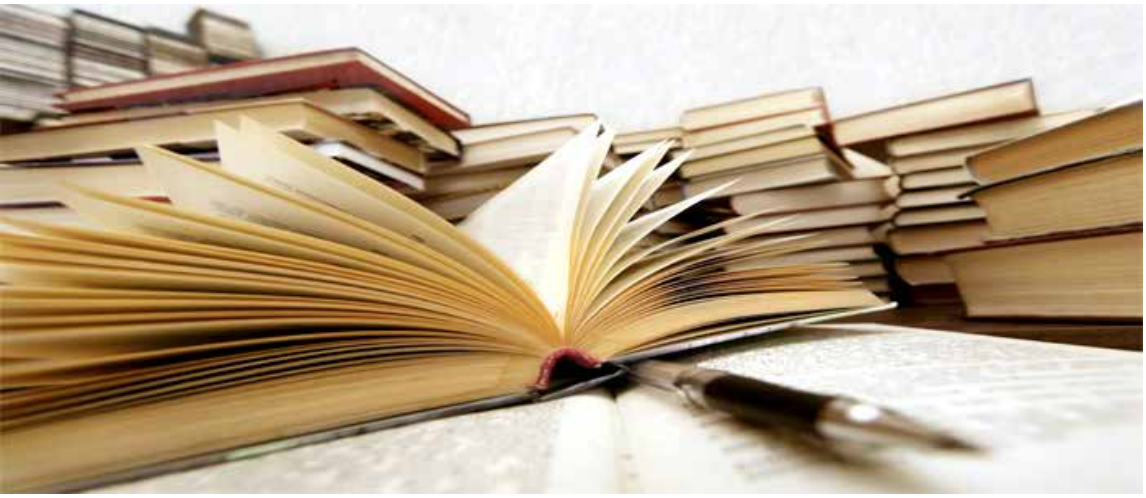

لن يجد المراقب للخط العام للكتابة الإبداعية السورية في وسط الكتّاب المعارضين بعد الانتفاضة السورية القائمة على السرد، ما بين يوميّات وشهادات ومقالات ذات طابع وجداني والمعنية بتناول القضايا المتعلقة بالانتفاضة، صعوبةً في ملاحظة وقوعها في فخ الكتابة عن الإنسان السوري بطريقة نمطية، بين قالبي 'الضحية' و'البطل'، وسيرصد كتابةً تكرّس العداء ضد الديكتاتور، تهاجمه، تحقّره، كتابة إنشائية في كثير من الأحيان. ذلك مفهوم ومبرر في بداية الانتفاضة السورية، في سياق إسقاط 'ألوهة' الديكتاتور ومؤسسته، والأهم أنها تأتي في سياق حماسٍ عامٍّ مُحمَّلٍ بالكثير من الآمال في الأشهر الأولى من عمر الانتفاضة، كما حصل في العديد من الحالات في التاريخ، مثل كتابات بابلو نيرودا في الحرب الأهلية الإسبانية، أو شعر 'القضية الفلسطينية'. هذه 'الوظيفة' المرحلية عبر المباشرة المبالغ فيها التي تصل الشتيمة أحياناً قد تكون ضرورية ومبررة، ولكن ذلك يفترض أن ترتبط في شكل عميق بمدٍّ في المجتمع مرافق ومتآثر معها، كما حصل في الحرب الأهلية اللبنانية. هناك نجد للكتابة وظيفة أخرى ساحرة ليس من الضرورة أن تكون مبنية على الخبرة أو العمق الفني، هي دور مباشر وفاعل في الحدث، لعل كتاب أمجد ناصر 'بيروت صغيرة بحجم قبضة يد' يرصد تفاعل هذا النمط من الكتابة مع الحدث في سياق كتابة يومية سردية تكرّست لاحقاً في الأدب السوري.

أعتقد أن تعقّد الأزمة في سوريا ودخول الانتفاضة في مآزقَ عميقةٍ، ووقوعها مُرغمةً في فخّ التسلح، وبالتالي لاحقاً بين همجية النظام من طرف والتطرف الإسلامي كوحش وحيد قادر على الصمود أمام عنف النظام، فرض انحساراً هائلاً على المدّ المجتمعي، وتهميشاً للطاقات التي كانت فاعلة على الأرض ليغدو السلاح سيداً للموقف. هنا من المفترض أن تكتشف الثقافة أسئلتها الجديدة التي تتعلق بعمق التغيرات الحاصلة لدى 'السوري'، وللأسف هذا لم يتكرّس. فما زالت الكتابة تغرق في هجاء الديكتاتورية ورثاء الشهداء والتباكي على المدن، في الوصف الذي لا يرقى إلى الألم المعاش يومياً، أو لسيل الصور المروّع، لتكون في خطّها العام محاولة محاكاة للواقع، وتدخل في حيّز يصادر المتلقي، يطالبه بالتعاطف أو يفرضه عليه مكتفيةً بتكريس موقف، مرتبطةً بالحدث العام فقط. كتابة تعتمد على التفاصيل التي

توّضح وحشية النظام وهول المأساة، لكنها لا تدخل في المخفي والمتعدد والمركّب، لا تمارس دورها في الكشف عن التناقضات التي تنتج عن هول الديكتاتورية والتي تؤدي إلى تعقّد الشرط الإنساني. المفارقة تغدو أكثر عمقاً بسبب هامشية دور المثقفين السوريين في الانتفاضة منذ بدايتها، وبغياب مشروعٍ ينقلها إلى ثورة، مشروعٍ يتحول إلى هدف أعمق وأكبر من مجرد "إسقاط النظام"، فيبقى النظام رمزاً للمعارضين الذين يريدون إسقاطه وللمؤيدين الذين يودّون حمايته، دون تشكّل "رمز" نقيض له يكثّفُ آمال وأهداف الانتفاضة. هذا الفراغ ملأه "الإسلاميون" مع دفعٍ التدخلات الدولية، وفرضوا بالقمع والقتل خيار "الخلافة الإسلامية"، مع إقصاءٍ عنيفٍ للأصوات العقلانية السَلمية والعلمانية.

كل كتاباتنا لا تؤثر على أرض الواقع ولا يهتم بها "الثوار" فعلياً، وقُرّاؤنا أغلبهم خارج سوريا أو ضمن النخب الباقية في سوريا وهذا هو حالنا دوماً، قبل الانتفاضة وبعدها. هذه حقيقة علينا الاعتراف بها إن كنّا نودّ أن نقدم شيئاً لسوريا على المدى الطويل، أتساءل لو عاد إلى الحياة نزار قباني، أشهر الشعراء السوريين، وكتب نصوصاً مماثلة بمباشرتها لتلك التي كتبها بعد حرب الخليج الأولى، هل سيهتم بها السوريون؟ أجرؤ على افتراض أن من سيهتم بها هو النخب، وليس من الضرورة أن يحتفوا بها أيضاً. ولهذا فإن الدعائية الممارسة في الكتابة فقدت حاملها الاجتماعي وفقدت مبرّرها إلى حدٍّ ما، هذا من المفترض أن يريحها من عبء دورها كـ "بروباغندا للثورة" وأن يوسّع خياراتها. ولكنْ ما نشهده هو العكس. ومع ذلك فإن ضعف تأثير الكتابة حالياً لا يلغي ضرورتها بل يزيدها لأنها تساهم في بناء روح المجتمع على المدى البعيد، إنها بابٌ لرسم ملامح أخرى لما نعيشه، ودعوةٌ للقدرة على التجاوز والمشاركة في مصيرٍ آخر.

لعل الحراك السوري أسقط مرجعيات كبيرة فكرية وأيديولوجية كانت تسيطر على الكتابة الإبداعية، عبر أسماء صعدت من خلال تيارات سياسية في مراحل سابقة، كما فقدت أسماءٌ كبرى تأثيرها الهائل على المشهد الإبداعي، ولكن للأسف هذا لم يترافق مع إنتاج مرجعيات جديدة. لعل الواقع الـمُعاش والتجربة الشخصية شكّلا مرجعية أكثر حضوراً عبر كتابة سردية متعثّرة بالدرجة الأولى أشبه بالمذكّرات، تقتبس من اليومي وتعتمد على تناقضاته، وعبثيته أحياناً، ومع ذلك وقع كثيرٌ منها في فخ الكتابة الدعائية. وعلى مستوى آخر تكرّست عقلية إقصاء وتخوين لكل كتابة نقدية تقارب الحراك وترصد أخطاءه أو أسئلته الخلافية خاصة في المراحل الأولى، حالة رقابة يمارسها المعارضون لا تختلف كثيراً عن تلك التي يمارسها النظام، وعدنا لنسمع ما يشبه "لا صوت يعلو على صوت المعركة".

هناك عدة حالات إبداعية مغايرة للسياق السابق منها على سبيل المثال لا الحصر محمد ديبو، رائد وحش، وعارف حمزة، ولكنها ظواهر فردية ولا تشكّل تياراً عاماً. وهناك حالات لا تعتمد النشر الورقي مثل دارين أحمد التي تنشر في صفحتها على الفيس بوك، وبالتالي من الصعب اعتبارها ظاهرة مكرسة في الأدب السوري بخاصة أن قسماً مهماً من أفرادها اضطر إلى مغادرة سوريا وبالتالي انقطع السياق الذي تشكّلت هذه الحالات ضمنه، ومع ذلك هي ما يُراهن عليه في الأدب السوري.

من جانبٍ مقابل القسم الأغلب من الكتابات والأعمال الإبداعية التي تأتينا من السوريين الذين انتقلوا إلى المهجر، تأتي مصابةً بعقدة النجاة إن صح التعبير، فهي تفترض لنفسها دوراً ثورياً في دعم الانتفاضة السورية، والأسوأ أنها تتماهى مع ما تتمناه من الـمُشاهد الغربي، فتركز على الإنسان السوري كضحية يجب إنقاذها، وبالتالي تَتَنَمَّط، وتتحول إلى مونولوج طويل مملّ أحياناً، ولا يقدم غير شحنة

عاطفية فائضة فوق الصورة البصرية والتقارير الدولية. ومن المضحك المبكي أن أغلب هذه الكتابات يَنظر لها من في الداخل بنوعٍ من الريبة أو النفور أحياناً، لأن أصحابها 'هربوا' أو لا يعانون ما يعانيه من في الداخل، وبالتالي تزداد الهوة بين الكاتب والمتلقي، ويغدو 'أدب المنفى السوري' للمنفيين والدول المضيفة!

كل ما سبق يهدف إلى مقاربة سؤال حول مستقبل الأدب السوري، هل علينا أن ننتظر عدة سنوات لنتجاوز عتبة التنميط نحو التنوع والغنى؟ هل يمكن أن ننتج أدباً يدافع عن الإنسان بإغناء إنسانيته عبر رصد تحولاتها تحت شرط حياتي ضاغط وعبثي، أن يقول ما تعجز عنه الكاميرا والتقارير، هل كان هذا حال الأدب العراقي مثلاً قبل أن يعود إلى الخارطة الإبداعية بتجارب ملفتة منذ فترة ليست بعيدة، أو الأدب الفلسطيني خارج إطار 'أدب القضية'؟ هل علينا أن نصلب أنفسنا ونجاهد لاحقاً للنزول عن الصليب (في اقتباس مباشر من محمود درويش)، مع غياب من يسأل عنا مصلوبين أم غير مصلوبين؟ هل علينا أن نقضي سنوات أخرى لنتجاوز الأزمة ونكتشف أسئلة جديدة تسهم في تشكيل هويتنا وتفضي إلى أساليب جديدة في طرحنا وفي عمق التناول؟ والأهم أن تصمد نصوصنا أمام امتحان الزمن؟ أهم المدارس الأدبية في أوروبا جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، وبغض النظر عن مصير هذه المدارس فقد مثّلت تفاعلاً هائلاً مع المجتمع، وغيّرت فيه وأغنته، ولعل هذا هو دورها الحقيقي: التغيير على المدى الطويل.

ليليان بلان*

علاقة المذاهب الفنية بالواقع الاجتماعي والسياسي

الخلاصة:

تهدف المقالة إلى التعريف بالدور التأثيري للحركة السياسية على المذاهب الفنية. فالعلاقة المتبادلة بين السياسة والفن تظهر في تنوع الاتجاهات الفنية تبعاً للحركات للسياسية والاجتماعية، ومن خلال اعتبار الفن كجزء لا يتجزّأ من واقع الحراك الشعبي والجماهيري عبر الزمن، وكتعبير عن حركة سياسية تبلورت أدبياً وتصوّرت تشكيلياً ضمن مفاهيم فترة سياسية ما. وتظهر هذه العلاقة أيضاً من استمرارية فكرٍ فنيٍّ معيّن وارتباطه باستمرارية الواقع السياسي المعاش بدءاً من المدرسة الاتباعية، وانتهاءً بباقي المدارس التي اختلفت توجهاتها تبعاً لزمنها السياسي والاجتماعي وحتى يومنا هذا.

* حاصلة على إجازة في الفنون الجميلة قسم الحفر والطباعة، وعلى دبلوم تأهيل تربوي. تعمل كفنانة تشكيلية ومدرّسة لمادة التربية الفنية، كما شاركت في لجان تأليف قسم المناهج وزارة التربية السورية.

ككلٍّ ما هو مترابط في حياتنا، لا بدَّ لفلسفة الفنون من الارتباط الوثيق بواقعها المعاش، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، والتصوير الأوضح لكلِّ حالاتنا الاجتماعية والسياسية يتجلَّى عبر العصور بفنون هذه المجتمعات، فالفن هو مرآة المجتمع وبوابته للتعبير عمَّا يدور بداخله، ومعبَرٌ للمبدعين. ومن هنا جاء الارتباط الوثيق عبر التاريخ بين الفن والسياسة والاجتماع، فكانت نشأة المذاهب الفنية مرتبطةً، بكلِّيتها، بواقعٍ سياسي ساد ضمن حقبةٍ زمنية معيّنة، وهي ليست وليدة الصدفة ولكنّها تعبر عن ضروراتٍ تاريخيّةٍ ملحّةً.

وغالباً ما يرتبط ظهور مذهب فنّي بصعود طبقةٍ اجتماعيةٍ جديدة، ويزدهر بازدهارها. فعصر المذهب الاتّباعي، على سبيل المثال، هو عصر أنظمة الحكم الملكيّة المركزية التي قلّصت نفوذ الأمراء الإقطاعيين، وحدَّت من سلطتهم المستقلة، ووحّدت إقطاعاتهم المشتّتة في دولةٍ واحدة. فبعد أن كان رجال الأدب وأهل الفن والقلم والفكر موزّعين متنقّلين بين بلاطات الأمراء الصغيرة في أوائل عصر النهضة، التأم شملهم في العصر الاتّباعي في بلاطات الممالك الكبيرة. وهذا العصر هو العصر الذي ترسخت فيه بصفةٍ نهائية اللّغات القومية لمختلف الشعوب الأوروبية، كما تغيرت علاقة الفنان بجمهوره. فحين كان هذا الجمهور أرستقراطياً بات أقرب إلى أن يكون بورجوازياً. ولكن هذا لا يعني أن الأدب الاتّباعي هو أدبٌ ثوريٌّ، فهو في جوهره محافظٌ لا يحرِّض الفرد على المجتمع، ولا يرمي إلى هدم النظام القائم ولا المساس بالتسلسل الطبقي الهرمي. لأنّ الفنانين تهيّبوا من خوض موضوع الإصلاح السياسي والاجتماعي، كحقوق الأمة وحرية الفرد والنقد للمسؤولين، خوفاً من ارتداد البلاد إلى ما كانت عليه من فوضى وعذاب في ظل الإقطاع، ولاتّجاه العصر نحو سيادة الحكم الملكي المطلق ضمن سلطةٍ الوحدة والائتلاف. وقد تجلّى ذلك واضحاً، أدبياً، من خلال أعمال الأديب الفرنسي بوالو الذي نظم مطوّلةً شعرية من ألف ومئة وعشرة أبيات عن أهم القواعد الاتباعية التي بقيت طوال جيلين منارةً لما جاء بعده من اتّباعيين. ومن جهةٍ تشكيلية ظهر نيوكولا بوسان (ت. 1665) وما اتّسم به أسلوبه من الدقة والمتانة في البناء أنموذجاً، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لمن جاء بعده أمثال شاردان (ت. 1799) وغيره، ومن أهم أعماله: 'مذبحة

طفولة باخوس لبوسان

الأبرياء'، 'طفولة باخوس'، 'وحي الشاعر'، و'لوحة الشتاء'.

وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأت دعائم الاتّباعية تتداعى نتيجة الانقلاب الصناعي الذي ساد أوروبا في النصف الثاني لهذا القرن. وقد مثّل هذا الانقلاب ثورةً لا نظير لها في تاريخ الانسانية والتقدّم البشري، حيث صعدت الطبقة المتوسطة لتعرف بما يسمى بالبورجوازية التي قلبت معالم المجتمع رأساً على عقب. فبعد الثورة الفرنسية تبلورت مفاهيم جديدة مثل الجمهورية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحق الأمة في اختيار مصير شعوبها، ونشأ المذهب الفنّي الجديد الذي عُرِف باسم 'المذهب الإبداعي' الذي كان التعبير الفنّي عن ثورة البورجوازية السياسية والاجتماعية. وكان من أهمّ رواده جان جاك روسو وأبرز مؤلفاته 'العقد الاجتماعي'، وغوته وهو من الكتّاب الألمان ومن أعماله 'آلام فرتر'. أما الفنان فرانشيسكو دي غويا (ت. 1828)، الذي يُعتبر من روّاد هذا المذهب في إسبانيا، فقد صوَّر بشاعة الحرب ومآسيها وما يرافقها من آلام، كما أنّه يعدُّ الفنّان الأوّل الذي أدخل عنصر البشاعة والتشويه، خارجاً بذلك عن مفهوم الجمال التقليدي، ومن أهم أعماله 'حادثة 3 أيار 1808' ومجموعته 'كوارث الحرب' 1810-1814. وأيضاً أوجين دي لاكروا (ت. 1863) الذي يُعد رائد الإبداعية لما يقارب الأربعين عاماً في فرنسا الذي تأثّر بمؤلفات غوته وشكسبير وسكوت. ومن أهمّ أعماله 'الحرية قائدة للشعب' و'مذبحة سيو'.

ولكن مع بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر ظهر مذهب 'الفن الواقعي' كنتيجة للثورة الفكرية على المذهب الإبداعي والتقدم العلمي الهائل من فتوحات علمية، كنظرية داروين والفلسفة الوضعية لأوغست كومت (لاسبيل إلى معرفة الحقيقة من غير طريق الملاحظة والتجربة)، وإخفاق ثورات 1848 الديموقراطية، حيث سمّي هذا العام بعام 'ربيع الشعوب' الذي انتهى بفواجع في كل مكان وإطباق قبضة الحكم الرجعي الملكي، بالإضافة إلى انتشار الأفكار الاشتراكية التي لفتت الأنظار إلى الطبقات الشعبية التي تئن تحت نير الاستغلال، وخصوصاً العمال والفلاحين. فقد عكس مذهب 'الفن الواقعي' هذه الأشياء الجديدة وصوَّر بؤس هذه الطبقات

الحرية قائدة للشعب لدي لاكروا

مغربلات القمح لكوربييه

ورغبتها بتغيير واقعها المادّي. وقد اتسم فنُّ هذه الفترة بأنه لا شخصي، ويطلب الدقّة والموضوعيّة، مثلما يطلب العلم، فكان خير ممثّل لهذه الفترة الروائي الفرنسي إميل زولا في روايته 'الحيوان البشري'، وأيضاً الروائي الفرنسي بلزاك واضع 'الملهاة البشرية'، وتشارلز ديكينز في رواياته 'أوليفر تويست' و'قصة مدينتين'. كما تجلّت في فنّ العمارة نظرية فيزلاي القائمة على 'الوظائفية' حيث استعمل الحديد في العمارة، فكان برج إيفيل. وتشيكيلياً الفنان غوستاف كوربييه (ت. 1877) ومن إحدى لوحاته 'مغربلات القمح'.

ثم جاءت بعد ذلك المدرسة الرمزية التي تدين بنشأتها لعوامل فلسفية أولاً، وخصوصاً الفلسفة المثالية، التي جاءت رداً على شطط النزعة المادية الوضعية في تفسيرها الجبري للكون والتاريخ والإنسان. لذلك جعل الرمزيون هدفهم الأساسي هو الإبحار داخل دائرة اللّاوعي وكشف غوامضها. وكذلك تزامنت على الصعيد الاجتماعي مع استقرار أنظمة الحكم الرجعية الملكية والإمبراطورية، في جميع أنحاء أوروبا عقب قمع الحركات الشعبية وخصوصاً انتفاضة 'كومونة باريس' في العام 1871. ومن رواد هذه المدرسة أدبياً إدغار آلان بو، وبودلير الذي قال بيته الشهير: "أنا جميلة... أيها البشر... كحلم من حجر". أما تشكيلياً فقد أعطت الرمزية الألوان والظلال قيمة رمزية وتعبيرية جديدة، فكان كل لون مرتبط بإحساس محدود أو بفكرة معينة؛ فالأحمر يرمز إلي الحركة والصخب والشهوة، والأصفر للمرض، بينما الأخضر للّامحدود.

ولكن مالبثت العوامل التاريخية أن تغيرت، وتغيّرت معها المعطيات السياسية، فساد عصرٌ جديد هو عصر انتصار الاشتراكية شبه العالمي، من ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفييتي إلى ثورة الصين، وظهرت أفكارٌ جديدة تنادي بالتحرر القومي والاجتماعي من أجل الديمقراطية والحرية وحق تقرير المصير في العالم الثالث وسميت 'بالواقعية الجديدة'.

جانب من لوحة الاستعداد لدييغو ريفيرا

واتسمت بسمات جديدة تختلف عن 'الواقعية القديمة' حيث يتميز الإنسان بحرية الإرادة والاختيار، كما أنه ابن الشروط التاريخية المحيطة به التي هي في الحقيقة من صنعه، وتؤكد أن الفن هو عبارة عن إعادة خلق للواقع وتغليب عناصر على أخرى، كما أن الواقع بالنسبة لهذا المذهب الفني هو عبارة عن واقع متحرك ومتحول قابل للتغيير والتغير،

والهدف الأساسي ليس هو تثبيت هذا الواقع إنما تجاوزه وتخطيه نحو الأفضل فهي رؤية مستقبلية متكاملة. وتثق هذه المدرسة بأن بذور التغيير لغد واعد تكمن في قلب الواقع الحالي المعاش، فمن أهم مميزاتها عرض حالة البؤس، والثورة عليه في آن، ومن هنا اتسمت بالنظرة التفاؤلية. لذلك تولي هذه المدرسة اهتمامها للقوى الفاعلة في التاريخ أي قوى الجماهير، إذ أن هدفها الأساسي إبراز المبادرة التاريخية للجماهير على صعيد جمالي وفني. ويُعتبر مكسيم غوركي مؤسس هذه المدرسة وهو كاتب روسي ولد عام 1869 من أهم أعماله 'حياة طفل' و'الأم' حيث نذر كتاباته للثورة، ومن إسبانيا الشاعر الشهيد فيديريكو غارسيا لوركا، وتشكيلياً يعتبر دييوجو ريفييرا (ت. 1957) المكسيكي خير مثال على هذا المذهب ومن لوحاته الشهيرة 'الاستعداد'.

وبهذا نؤكد أنه لايمكننا فصل الحياة الواقعية عن الحياة الفنية، لا أدبياً ولا تشكيلياً، لأنها كلٌّ متساو في خط سيره ولا بدّ لها من التأثر بعضها ببعض لتكون مرآة التاريخ على الواقع المعاش. وكما هو الحال في أوروبا كان الحال في الشرق الأوسط، لابد من التداخل اللامنتهي بين الفن والسياسة منذ الجاهلية حيث استخدم كل من الفن والسياسة للترويج للدين، وحتى عصرنا هذا، وإن كان بطريقة مغايرة أصبح فيها الفن والدين يخدمان الواقع السياسي بصورة أو بأخرى. وهذا ما تبلور في شكل واضح جداً ضمن أحداث السنوات الأربع الأخيرة في المنطقة العربية. وهو ما سنتكلم عنه في مقالات قادمة.

مارك براتشر*

دولة الإسلام في العراق والشام 'داعش':
تجاوز حدود المزاودات**

الخلاصة:

أثار 'داعش' مؤخراً الذعر بين وسائل الإعلام، مهدداً بتفكيك سوريا والعراق وتحويل مسلمي أوروبا إلى متطرفين، وتقويض القضية العلمانية للثوار السوريين. تبحث هذه المقالة في الجدال الذي يزعم أن داعش ربما في الواقع يعمل كقوة مضادة للتطرف، بحيث يردع المجاهدين المستقبليين الذين سيخافون من الانضمام إلى 'داعش' كونهم سيضطرون لقتل زملائهم الثوار أكثر من قتل قوات النظام، كما أنه سيردع الجماعات الجهادية الأكثر اعتدالاً من التعامل مع 'داعش' خوفاً من تقويض شرعيتهم.

* يحمل مارك بارتشير Marc Bracher شهادتي البكالوريوس والماجستير في الحرب والمجتمع من جامعة ويلز، سوانزي. ينهي حالياً التحضير لشهادة الماجستير في سياسات الشرق الأوسط من جامعة إكستر، حيث يتخصص بالتطرف الإسلامي والصراع الطائفي.

** هذه المقالة ترجمة للنص الأصلي المرسل إلى مجلة دلتا نون باللغة الإنكليزية بعنوان: Overstep "Out-Bidding" 'ISIS.

كثيراً ما يُنظر إلى الصراع الثوري في سوريا كحالة تشبه النظرية التطرفية المعروفة بـ 'المزاودة'. اقترحت ميا بلوم هذا المصطلح عام 2005، ليشير إلى العمليات التي تقوم بسببها الجماعات الفاعلة في نفس المنطقة، والتي تمتلك نفس الأيديولوجيات وتتنافس فيما بينها، في سبيل الحصول على الدعم ذاته؛ عبر تصعيد خطابها وممارساتها من أجل الفوز بملكية تلك القضية. في سياق الصراع السوري، تتنافس الميليشيات الإسلامية التوسعية، التي تدّعي جميعها ملكية قضية الجهاد السلفي، متحولةً إلى ميليشيات أكثر تطرفاً وأكثر قسوة، كل ذلك في سبيل تعزيز اعتبارهم 'محاربي الله الحق'. تم تنشيط عملية المزاودة في سوريا من قبل جهات أخرى، حيث نرى أن الجماعات المتطرفة –وبخاصة 'جبهة النصرة' المرتبطة بتنظيم 'القاعدة'– تحصل على حصة الأسد من التمويل الخارجي من المؤسسات الخيرية الإسلامية السعودية. وهذا ما حفَّز فصائل ثورية أخرى أكثر اعتدالاً، وربما أكثر علمانية، على المزاودة على الإسلاميين من أجل الحصول على السلاح والدعم والمحاربين اللازمين لمواجهة العدوين التوأمين؛ مجموعات الأسد والمجموعات الجهادية.

يبدو أن دوامة التطرف والتعصب التي لا يمكن إيقافها قد سببت الذعر للإعلام العالمي وصانعي السياسات، ودفعت إلى حالةٍ من الهستيريا من خلال المزاودة الأخيرة التي قام بها 'داعش' في حربه الخاطفة في العراق، وإعلانه هذا الأسبوع عن إقامة 'دولة الخلافة الإسلامية'. بدأت السعودية العربية بحشد قواتها على الحدود العراقية، ويقال إن إيران أرسلت طائراتٍ مقاتلة، بينما يبدو أن حالةً من الشلل قد أصابت أوباما وكاميرون. ومع ذلك، ورغم كل شيء، فإن فوز 'داعش' بعملية المزاودة الأخيرة التي قام بها قد يكون سيفاً ذي حدين؛ شل 'داعش'، وتشويه حركة الجهاد السلفي بكاملها.

مشكلة النجاح أنه يؤدي إلى غطرسة. ويظهر السجل التاريخي للميليشيات الجهادية السلفية أن 'جنود الله' ليسوا منزَّهين عن هذه الصفة السيئة. أدى النجاح العملياتي بدايةً لدى 'الجماعة الإسلامية المسلحة' في الحرب الأهلية في الجزائر 1990 وصولاً إلى 'القاعدة في العراق' خلال سنوات الاحتلال إلى إهمالٍ إستراتيجي. فبينما تقوم هذه الجماعات بتمجيد نجاحاتها في ساحات المعارك، تمكن ملاحظة

فشلها في احترام أهمية العلاقات الأهلية. وهكذا وجد كلا الطرفين أنفسهما بين المطرقة والسندان، حيث أثار تطبيق قوانين الشريعة بطريقة قاسية حفيظة القاعدة الشعبية المؤيدة لها سابقاً. وجدت 'الجماعة الإسلامية المسلحة' في الجزائر نفسها مهمشةً ومنبوذةً من قبل باقي الثوار، في حين أصبحت 'القاعدة في العراق' دون أي أهمية تحت وطأة الجيش الوطني العراقي من ناحية، وتمرد أهالي العراق الغاضبين من ناحية أخرى. عام 2011 تم نشر 'بيان شباب غزة' الذي أوضح أن حتى حركة حماس التي تحظى بشيء من الاحترام لم تكن في منأىً من هذا المصير.

يبدو أن الجماعات الجهادية السلفية تعلمت من أسلافها خلال الأعوام الثلاثة الأولى للثورات العربية منذ عام 2011. فقد ركزت 'جبهة النصرة' الطفل المدلل للقاعدة في سوريا على تلميع شهاداتها العسكرية والوطنية بقتالها ضد الأسد، بدلاً عن محاولة فرض قوانين الدولة الإسلامية الصارمة التي يرفضها أغلب السوريين. أما في ليبيا فقد حاولت الجماعات الجهادية الموجودة مسبقاً 'كالجماعة الليبية الإسلامية المقاتلة' التأقلم مع الأجندة الديمقراطية الجديدة، أما الجماعات الجديدة 'كجماعة أنصار الشريعة' فقد تعلمت احترام رأي الشعب، مستبدلين العنف بحملات 'القلوب والعقول' بعد أن ثار أكثر من 30000 ليبي احتجاجاً على طردهم من بني غازي بعد هجومهم على القنصلية الأميركية عام 2012. وحده 'داعش' لم يتعلم الدرس، حتى أن 'القاعدة' قد تبرأت منه لشدة تطرفه، وأصبح هدفاً للجماعات السنية المنافسة في سوريا والعراق.

بعد تصرفات 'داعش' بدأت الدول السنية المجاورة لسوريا تفكر مرتين قبل دعم الجماعات الجهادية السلفية ضد الأسد. انتصرت 'جبهة النصرة' بمسابقة المزاودة بفضل قوتها الجهادية، وحافظت أجندتها الوطنية البحتة وعقلانيتها الظاهرة على صورتها كقناةٍ آمنة بالنسبة لدول الخليج. في المقابل، فإن برنامج عمل 'داعش' العالمي الذي أعلن عداوته للفصائل السورية الثورية، وللأنظمة السنية المجاورة، جعل منه بديلاً خطيراً بالنسبة للراعين المحتملين. لقد وقّع 'داعش' على شهادة موته بعد مزاودته على 'جبهة النصرة' وتوسيع عملياته خارج الأراضي السورية، وإعلان قيام 'دولة الخلافة الإسلامية'. بينما ترغب الدول الخليجية الراعية رعاية مجموعةٍ ذات أهداف واضحة لزعزعة المنطقة برمتها، فإن التكتيك الوحشي الذي يستخدمه 'داعش' في العراق وسوريا، بذبح الثوار الزملاء والقوات الحكومية على حد سواء، سيؤدي غالباً إلى نفور الجهاديين المستقبليين الذين سيدركون ببطء أن الانضمام لهذه الجماعة سيتضمن حتماً قتلهم 'لأشخاص سنيين' بدلاً عن محاربة الطغيان.

وسيذهب داعش بشرّه إلى أبعد من ذلك أيضاً. فباعتبار أن 'داعش' موصومٌ بالعار، ستبذل الجماعات الجهادية السلفية المشابهة مثل 'جبهة النصرة' في سوريا، والجماعات الأخرى التي تحمل نفس الفكر 'كأنصار الشريعة' في ليبيا تونس واليمن، جهداً للابتعاد عن هذه الجماعة كون الخيار المباشر المطروح هو التقليل من قيمتها. وطالما هذا الوضع مستمر، فلن يتم تنفير الجهاديين المحتملين في المستقبل من الانضمام إلى 'داعش' فقط بل حتى من الانضمام إلى 'جبهة النصرة' و'أنصار الشريعة' أيضاً. وربما سيتحول 'داعش' إلى أكبر قوةٍ مضادةٍ للتطرف في المنطقة.

مصطفى دباس*

في الصورة البصرية لـ 'مجلة دابق' وإسقاطاتها:

من التنظيم الميليشياوي إلى الدولة القروسطية

الخلاصة:

اختلفت الأدوات التي بدأ تنظيم 'داعش' المتطرف يغزو بها المنطقة، ولعل أهمها استخدامه لوسائل الإعلام كافة المرئية منها والمسموعة، والآن المقروءة بعد صدور العدد الأول من مجلة 'دابق' التي ستكون الناطق الرسمي باسم التنظيم، والتي أدهشت الكثيرين بصرياً. فقد تمتعت المجلة بالحرفية وأناقة الإخراج وجودة الصور التي احتوتها، الأمر الذي جعل البعض يصفون الإعلام الذي يحاول داعش تقديمه أقرب إلى الإعلام المنظم 'للدولة' منه إلى الإعلام 'الميليشيوي' المتخبط. كما أن صدورها بأكثر من لغة يؤكد أن 'داعش' بدأ يتجه نحو العالمية، خصوصا أنها تحاكي الغرب من حيث تقديمها للمقولات العامة للتنظيم. المجلة التي حملت عنوان 'العودة للخلافة'، وصدرت بـ 48 صفحة، وبالمواصفات القياسية تطرح كثيراً من التساؤلات حول الإمكانيات المادية التي يمتلكها هذا التنظيم، وحول قدرته على تسخير التكنولوجيا الإعلامية لخدمته في زمنٍ عجزت فيه كثيرٌ من التنظيمات الدينية الأخرى المشابهة له على القيام بذلك.

* صحفي وخريج كلية الإعلام بجامعة دمشق. مصور فوتوغرافي ورسام كاريكاتور. شارك في معرض تصوير بعنوان 'أنت'، ومعرض كاريكاتور بعنوان 'وجهة نظر'.

لم تكن الحرفية الإخراجية للعدد الأول من مجلة 'دابق'، التي أصدرها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، جديدة على هذا التنظيم الذي اعتاد بث مقاطع فيديو عالية الدقة منذ تأسيسه مطلع نيسان/أبريل 2013، فقد وصفها مراسل الـCNN بأنها سلسلة أفلام تشابه في جودتها أفلام هوليود، وسماها التنظيم 'صليل الصوارم'، حيث ترصد بدقة كل المعارك والانتصارات والإعدامات التي يقوم بها. تظهر في هذه الأفلام عالية الجودة أسلحةٌ، ومعداتٌ عسكرية وتقنية، وكاميرات وسيارات حديثة. وقد تم تصوير مقطع الافتتاح في الجزء الرابع من 'صليل الصوارم' من طائرة عمودية، ووصل عدد المشاهدات لهذه المقاطع إلى ملايين خلال أيام قليلة، فضلاً عن استخدام التنظيم للفضاء الإلكتروني في شكل واسع من خلال المدونات وحسابات 'تويتر' و'فيسبوك' لنشر أخباره والترويج لأفكاره ومنهجه، وبأكثر من لغة، وهو ما لم تستطع فصائل المعارضة المسلحة في سوريا من القيام به خلال ثلاث سنوات؛ ما يطرح بقوة العديد من علامات الاستفهام حول مدى قدرة 'داعش' على تسخير التكنولوجيا وتطويعها لخدمته.

المجلة التي حمل عنوانها الرئيسي 'عودة الخلافة' أصبحت متوفرة الآن في العديد من الموقع الالكترونية بنسختها الإنكليزية، كما تصدر بنسخة ورقية بلغات أخرى باعتبارها الناطق الرسمي باسم التنظيم. وقد تشهد المرحلة القادمة ولادة أداة إعلامية لتنظيم بدأ يفكر بمنطق 'الدولة'.

من يدري فقد تصبح المجلة على قائمة وسائل الإعلام الأكثر شهرة بجانب صحفٍ عربية وعالمية لا سيما بعد انتشارها إلكترونياً كالنار في الهشيم، حيث يتبع التنظيم في تحريرها وإخراجها أسلوب الإعلام الرسمي الأحادي، مستثمراً كافة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة لإيصال رسالته، بغض النظر عن مدى وحشية مضمونها، فهو يركز على شكل الرسالةعبر إظهار عناصر منتقاة من الخبر؛ سواء من حيث المعلومة أو من حيث المشهد البصري المرافق (الذي لم يكن بقسوة مشاهد الفيديو المسربة عبر موقع يوتيوب حيث تظهر عمليات الإعدام والذبح بحق من يصفهم التنظيم بـ 'الكفرة').

تبدو المجلة جذابةً بصرياً، ولم يخفي الكثير ممن حصلوا على نسختها الإلكترونية، ومن رواد مواقع التواصل الاجتماعي وبعض الفنيين في مجال الإخراج، دهشتهم لقدرة هذا التنظيم -الذي وُصِفَ سابقاً

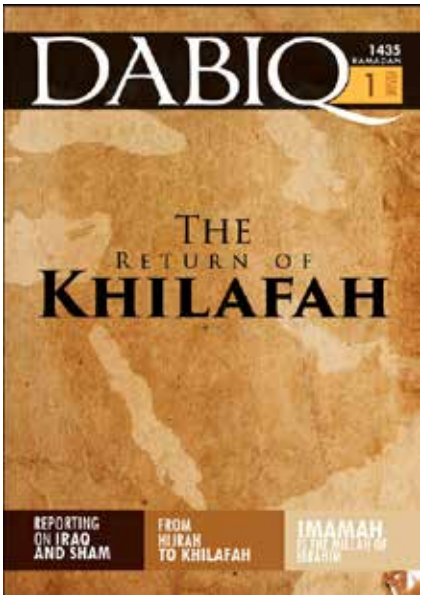

بأنه أبعد ما يكون عن التكنولوجيا- على إخراج وسيلة إعلامية على هذا القدر من الاحترافية ولو على مستوى الإخراج البصري. فقد صدرت المجلة بـ 48 صفحة وهو رقم عالمي إذا ما تحدثنا عن المواصفات العالمية لعدد صفحات المجلات، كما استخدمت النسب العالمية في حجم القطع المستخدم. صدْر غلاف المجلة عبارة عن صورة مصممة يظهر فيه القسم الآسيوي من الوطن العربي، وجزء من مصر، بالإضافة إلى تركيا وإيران على كامل الصفحة، ويتوسطه عنوانٌ عريضٌ باللون الأسود كتب فيه 'عودة الخلافة' بدلالة واضحة إلى أهدف هذا التنظيم في التوسع الجغرافي. كما اكتفى بثلاثة عناوين فرعية كتبت بأسفل الصفحة 'أخبار الشام والعراق' و'من الهجرة إلى الخليفة' و'الإمامة في ملة إبراهيم'، وبتنسيق خطي ملفت حيث اعتمد على استخدام أحجام مختلفة للخطوط بطريقة تجعل القارئ الغربي يشعر وكأنه يقرأ مجلة عالمية، مستخدماً خلفيةً لهذه العناوين منسجمةً تماماً مع اللون الكلّي لبطن الغلاف.

في الصفحات الداخلية يبدو التركيز على المشهد البصري أكبر من القسم التحريري، وتقدر نسبة الصور بثلثي محتويات المجلة، وأما القسم التحريري فيظهر على شكل أعمدة تفصل بينها صور أو قد تكون الصورة هي خلفية للنص. كما لوحظ استخدام صور كبيرة على مساحة صفحتين متصلتين كما في أساليب الإخراج الحديثة، حيث أن الصورة تتكلم. وبالنسبة للقارئ العربي يكفي أن ينقل بصره بين الصور حتى تصل إليه الكثير من المدلولات الدينية أو حتى الحربية التي تهدف المجلة إيصالها للمتلقي، ويبدو واضحاً بأن هذا التنظيم 'داعش' قد أدرك منذ البداية أهمية امتلاكه لأدوات الإعلام كي يحارب بها، كما يحارب بقواته وعتاده على الأرض.

تبدأ المجلة باقتباسٍ لأبو مصعب الزرقاوي، القيادي السابق في تنظيم القاعدة في العراق، يقول فيه "لقد أشعلت الشرارة هنا في العراق، وحرّها سوف يتصاعد بإذن الله، حتى تحرق الجيوش الصليبية في دابق"، في إشارة إلى أن هدف هذا التنظيم ليس مرحلياً أو مرتبطاً بالأحداث التي تجري في سوريا، بل نابع من عقيدة دينية وتاريخية تهدف إلى إعادة الدولة الإسلامية إلى أمجادها السابقة في الفتوحات والانتصار على الصليبيين 'الكفرة' بنظرهم، والاستمرار في التمدد، حيث استخدم التنظيم عبارة 'داعش باقية وتتمدد' في كثير مما نشره عبر مواقع التواصل الاجتماعي وفي المواقع الإلكترونية.

من مجموعة الأخبار والصور التي تضمنتها المجلة، يبدو أنها موجهة للغرب أكثر من العرب. فقد حاولت عرض المقولات العامة التي يستند إليها تنظيم 'داعش'، ومنها: "أيها المسلمون في كل مكان، أبشروا خيرًا، وارفعوا رؤوسكم عالية، بعون الله أصبح لكم دولة خلافة تعيد لكم الحقوق والكرامة والقيادة، إنها دولة حيث العرب وغير العرب، الأبيض والأسود، الشرقي والغربي جميعاً أخوة، دولة تجمع القوقازي

والهندي والصيني والإفريقي والأميركي والفرنسي والألماني والأسترالي، جمع الله قلوبهم معاً فأصبحوا إخوة بنعمته، يحبون بعضهم في الله ومن أجل الله، اختلطت دماؤهم وأصبحوا موحدين تحت راية واحدة، وليعلم العالم إننا نعيش اليوم في عصر جديد".

تبتعد المجلة في أسلوبها التحريري عن سرد التفاصيل في كتابة المواد الصحفية، حيث لا نجد في المجلة الأخبار التقليدية التي اعتاد الإعلام المضاد لداعش التركيز عليه من انتهاكات، ومقابر جماعية، وفرض للشريعة الإسلامية من طريق القوة، وعمليات الذبح والجلد، ولم تسلط الضوء على الأشخاص الذين يعيشون في المناطق التي يسطير عليها التنظيم، بل اكتفت باستعراض مجموعة من الصور تظهر الهدوء في المدينة التي يسيطر عليها التنظيم. وفي المقابل تتحدث عن معاناة 'رعيتها' في المناطق التي تتعرض للقصف المستمر من قبل النظام السوري وبخاصة في مدينة دير الزور. والمثير للسخرية أن دير الزور وحسب وسائل إعلام كثيرة، ونشطاء معنيين بحقوق الإنسان، كانت المدينة الأكثر معاناة من انتهاكات وتنكيل هذا التنظيم.

تتضمن المجلة مقالاتٍ وأخباراً وتقارير مصورة تهدف إلى التركيز على مفاهيم التوحيد، والمنهج، والهجرة، والجهاد والجماعة، حيث تقسم المجلة إلى سبعة فصول؛ حمل الفصل الأول تعريفاً عن مجلة دابق وأهدافها وخلفياتها وسبب التسمية، إذ يكتب المحررون الدواعش أن الاسم مستوحى من اسم منطقة 'دابق' شمالي حلب، والتي ذكرت في حديثٍ نبوي، وجرت فيها معركة 'مرج دابق' الشهيرة بين المماليك والعثمانيين. وفي الرواية الدينية الإسلامية، فهذه المنطقة علامةٌ سابقةٌ ليوم القيامة، ففيها سيلتقي المسلمون والصليبيون في معركةٍ ينتصر فيها المسلمون. استخدم المحررون في التعريف بالمجلة لفظ 'ملحمة' أو 'هرمجدون'، وهو مصطلح يعبّر عن عقيدةٍ يهوديةٍ، ويقال بأنها يهودية-مسيحية مشتركة "تؤمن بمجيء يوم يحدث فيه صدامٌ بين قوى الخير والشر، وسوف تقوم تلك المعركة في أرض فلسطين في منطقة مجدّو، أو وادي مجدو، متكونةً من مئتي مليون جندي يأتون لوادي مجدو لخوض حرب نهائية". كما يستشهدون بحديثٍ نبويٍّ لأبي هريرة، ووفقاً للحديث، فإن منطقة دابق ستلعب دوراً تاريخياً في الملاحم التي تسبق فتح القسطنطينية، بعد انتصار المسلمين ورفع راية الخلافة في الأرض.

في الفصول اللاحقة تستمر المجلة في اللعب على الوتر الديني لاستقطاب مزيدٍ من الناس من طريق إيهامهم بعودة أمجاد الدولة الإسلامية، ورفع راية الإسلام في بقاع جغرافية متنوعة، حيث تعرّف وتصف المجلة 'داعش' بأنه المخلص لهم من عذابات الدنيا، ومن قمع الأنظمة الديكتاتورية الكافرة، ويقبل التوبة، ويحض على الهجرة والمبايعة التي تعتبر بمثابة صك غفران لذنوبهم.

الدعوة للهجرة تظهر في شكل واضح من خلال مقالٍ في الصفحة 11 من المجلة معنون بـ 'دعوة للهجرة'، حيث يطلب من كل الناس الهجرة إلى العراق والشام لأن هذه الأراضي ليست فقط للسوريين أو العراقيين، بل هي لجميع المسلمين، كما يوجه دعوةً في شكل خاص إلى الأطباء والمهندسين والطلاب والخبراء باعتبار أنهم قدوةٌ لباقي الناس، كما أن لديهم واجباً دينياً بمساعدة باقي الناس على فهم عقيدتهم واصفاً إياهم بـ 'المتعطشين لفهمها'، معتبراً أن "الهجرة فرضُ عَيْنٍ على كل مسلم".

تعمل المجلة على تبييض صفحة داعش من خلال تركيزها على القهر والظلم الذي تتعرض له شعوب المنطقة، في محاولةٍ منها لإكساب داعش مزيداً من الأطراف إلى جانبه باعتبار أنه يتبنى قضيةً عالميةً

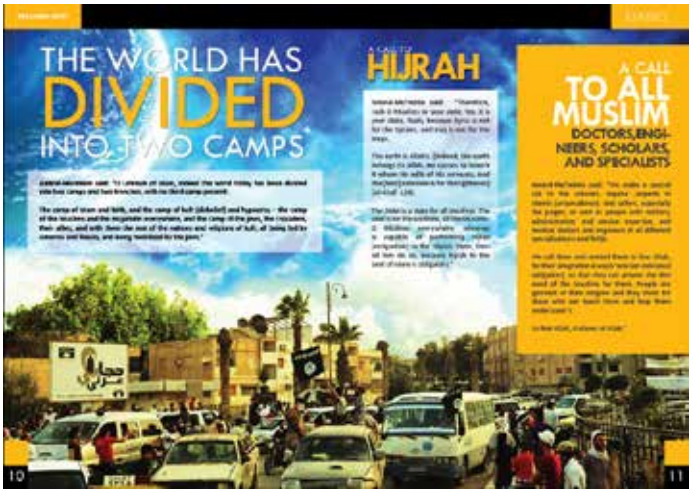

دعوة للهجرة إلى دولة الخلافة

تهدف إلى تحرير شعوب العالم من الاستبداد والظلم.

يبدو أن تنظم داعش استطاع -من خلال الإعلام في شكل عام ومجلته الجديدة في شكل خاص- أن يمتلك وسائل وأدوات عجزت التنظيمات 'الميليشيوية' أو الدينية المناهضة لأنظمة الحكم استخدامها، ولعل تنظيم 'جبهة النصرة' في سوريا أكبر مثال على ذلك. فرغم الإمكانيات المادية التي يحظى بها، إلا أنه ومع مرور 3 سنوات من تواجده في شكل علني على الأراضي السورية لم يستطع أن يقدم إعلاماً يتصف بالحرفية والمؤسساتية. بل كان يكتفي بنشر بيانات متفرقة ومقاطع فيديو تكاد تكون في معظمها مسرّبة ولا تحاكي بشكلها أو مضمونها الرأي العالمي، وهي خالية من التقارير الصحفية والميدانية باستثناء بعض التقارير الفردية من قبل نشطاء إعلاميين في المناطق التي يسطير عليها التنظيم، والتي غالباً ما تُشْتَرَى من قبل محطات عالمية أو محلية، أي أنها ليست ناطقة رسمياً باسم التنظيم. كما لم يستخدم فيها كاميرات الـ HD إذا كنا نتحدث عن التقارير المصورة، أو الإخراج الإلكتروني المبهر إذا كنا نتحدث عن المخرجات الصحفية الإلكترونية أو حتى الورقية والتي لا زالت نادرة جداً. وينسحب ذلك على باقي التنظيمات المسلحة في سوريا، وحتى على النظام الحاكم الذي يوصف إعلامه من قبل كثيرين بأنه إعلامٌ خشبيٌّ ولا يحاكي التطور التكنلوجي الذي وصلت إليه المرحلة الراهنة.

تنتقل المجلة في القسم التالي إلى مناقشة خبر إعلان الخلافة الإسلامية في الأول من رمضان، مشيرةً إلى فرح المؤمنين الذين ملأوا الشوارع احتفالات بقيامها. ثم مقتبسات من خطبة الخليفة أبو بكر البغدادي الذي يتبع اسمه دائماً بجملة 'نصره الله'، وتكاد لا تخلو صفحة من المجلة من أحد اقتباسات البغدادي بوصفه أميراً للمؤمنين وقدوتهم الحسنة. ورغم تنوع المواد التي تنشرها المجلة بين الأخبار والتقارير، إلا أن الدعوة للهجرة والجهاد كان لها الحصة الأكبر، مستخدمةً الكثير من المفردات التعبوية التي تحاكي المشاعر والعقل معاً، لتوضح من خلال اقتباسات لخطبة الخلفية بأن العالم انقسم إلى معسكرين؛ الأول مخيم المسلمين أو المؤمنين، والثاني مخيم المنافقين أو غير المؤمنين الذي يتضمن "اليهود والصليبيين وحلفاءهم، ومعهم بقية الأمم والأديان الكافرة". وبهذا يخرج التنظيم من المنظور الضيق للصراع القائم في سوريا والعراق حالياً، والذي يبدو أنه صراعٌ سني شيعي، ليظهره على أنه صراعٌ تاريخيٌّ بين الإسلام وغير الإسلام، وهدفه ليس محلياً كما يسوق له من قبل 'اللا داعشيين'، ولا يقتصر على العراق وسوريا فقط، بل يهدف إلى بسط سيطرة الإسلام على كل أنحاء العالم.

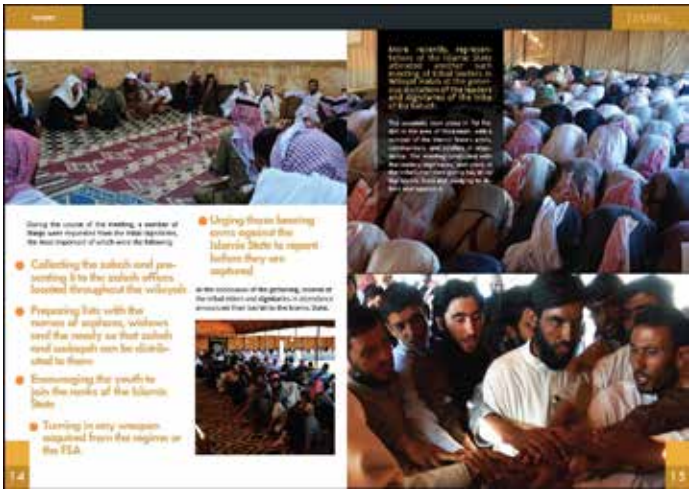

اجتماع مع العشائر العربية

ومن الأخبار التي نشرتها المجلة في الفصول التالية "عقد اجتماع موسع بين زعماء ووجهاء القبائل في ولاية حلب وبين ممثل الدولة الاسلامية، تحدثوا خلاله عن جمع الزكاة، وأعدوا قوائم بأسماء الأيتام والأرامل والمحتاجين للزكاة والصدقات، وكيفية تشجيع الشباب للانضمام للدولة الإسلامية"، وبهذا يظهر التنظيم براعةً في إيصال رسالته للجميع بأنه لم يعد تنظيماً مشتتاً وفوضوياً، بل يقوم بخطواتٍ مدروسةٍ ومتقنة لاستقطاب الفئات المستضعفة من جهة، وإبراز توسعه عسكرياً في المنطقة من خلال تحريره لمنطقة الخبر والبوكمال التي يطلق عليها اسم 'ولاية'، مع التركيز على الضحايا المدنيين الذين يستهدفهم الطيران العراقي والسوري في قصفه على مواقع 'داعش'.

ولم يتردد المحررون في وضع صور المجاهدين 'الشهداء' الذي سقطوا في سبيل نشر دعوة الله ونصرة المظلوم في الأرض في شكل متوازن، مع نشر صور وصفهم بأنهم قتلى من جنود الأعداء، والذي يقصد بهم جنود النظام، مبتعدين عن نشر صور الرؤوس المقطوعة أو الجثث الممزقة أو مشاهد الذبح. وبهذا يثبت التنظيم مرةً أخرى من خلال 'دابق' أنه يسعى لتقديم إعلام احترافي، فهو لا ينشر الصور الملتقطة بكاميرات موبايل أو كاميرات هواة، بل بكاميرات احترافية -كاميرات المؤسسة- ليقول للعالم أنه يقدم إعلام 'دولة' وليس إعلام 'تنظيم'.

تنشر المجلة أيضا أخبار التنظيم في سوريا، وأخبار معارك التنظيم، وتعدد انتصارات 'الدولة الإسلامية' منذ دخولها العراق، وفي مقدمتها تحرير عدة محافظات، أو ولايات بحسب ما يسميها التنظيم، من قوات الجيش العراقي، الذي أطلقت عليه صفة 'الصفوي'، كـ "ولاية الأنبار، وديالى، وكركوك، وصلاح الدين".

وحول مخالفيها من رجال الصحوة والجيش والشرطة الذين يسميهم التنظيم بـ 'المرتدين' تنشر المجلة عن توبة آلاف المرتدين خلال تحرير مدن العراق على التوالي، ويبين أن عمليات التحرير هذه قد ساعدت الكثير من المرتدين على التوبة والخلاص من حكم الجيش 'الصفوي' الذي فرَّ من المعركة مخلفاً الأسلحة والذخائر التي جهزته بها الدول 'الصليبية'، مشيرةً إلى أن أعداداً كبيرةً من مقاتلي الصحوات في الولايات المحررة أعلنوا توبتهم.

إن قدرة تنظيم داعش على تسخير التكنولوجيا الإعلامية لصالحه، وإيجاد كوادر إعلامية للعمل على مستوى عالٍ من الحرفية، وما يتطلبه ذلك بدوره من الكثير من الأموال، يطرح خلفه تساؤلاتٍ عديدة

عن مصادر تمويله. وفي هذا السياق ذكرت صحيفة 'فايننشال تايمز' بأن التنظيم "يعتمد في تمويل نفسه على نشاطاته الإرهابية"، مشبهةً إياه بـ "شركةٍ وجمعيةٍ خيرية وحكومةٍ في نفس الوقت، واستطاع تمويل نشاطاته عبر شبكة في الداخل والخارج وتعود لسنوات". وزعمت الصحيفة أن ما أسمته "نجاح التنظيم، والسرعة الفائقة التي سيطر فيها على شمال العراق في الأيام الأخيرة ووضع البلاد على حافة الحرب الأهلية، جاء نتيجة لنشاطات تجارية واسعة، ومربحة في الوقت نفسه، وتم بناؤها عبر السنين". وقالت الصحيفة إن "سيطرة المسلحين على مدينة الموصل والأموال التي حصلوا عليها من البنك المركزي في المدينة، وتقدر بحوالي 225 مليون دولار أمريكي، استفاد 'داعش' منها، وشكلت لديه ثروةً لا تنافسه فيها أي جماعة أخرى". وفي المنطقة المحيطة بالرقة يقوم 'داعش' باستخراج 30.000 برميل نفط يومياً، حسب تقارير استخباراتية غير دقيقة، وهذه الكمية قليلة مقارنة مع 300.000 برميل كانت تستخرجها حكومة النظام السوري، "ومع ذلك توفر للتنظيم مصدراً للدخل لا بأس به".

وأضافت الصحيفة أنه "يتم بيع النفط من خلال وسطاء، وينقل بعد ذلك لتركيا، ويتم تهريب كميات كبيرة منها للعراق". وعثر المسؤولون الأتراك على أنابيب نفط بدائية مطمورة تحت الأرض لتهريب النفط عبر الحدود. وأوضحت الصحيفة أن تنظيم 'داعش' يبيع النفط للنظام السوري، وذلك حسب عدد من التقارير المستقلة؛ فالنظام يبقي على الكهرباء في المناطق التي يسيطر عليها 'داعش' مقابل حصوله على براميل للنفط.

الآن وبعد صدور العدد الأول من مجلة دابق، لم يعد تنظيم داعش تنظيماً افتراضياً، بل أصبح مادةً إعلاميةً منتشرةً عبر البريد الإلكتروني، وعلى صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وقريباً ستصبح على رفوف المكتبات وربما في البيوت، إلى جانب العديد من الصحف، كمصدر لقراء الأخبار والحصول على المعلومات. تتوفر الآن المجلة بنسخةPDF بحجم 70 ميجابايت، على عدد من المواقع الالكترونية التي وضعت رابطاً لتحميل المجلة[1]، كما يمكن للأشخاص في المناطق التي يسيطر عليها داعش الحصول على النسخة الورقية منها، والتي ستطبع بعدة لغات منها الإنكليزية والعربية.

نعم إنه تنظيم 'داعش' الذي أربك العالم، وابتلع نصف المنطقة، ينطلق باتجاه 'المأسسة' ليصدر أول مجلة ناطقة باسمه وبعدة لغات، لتنحو ليس فقط نحو الداخل، بل لتأخذ مكانتها إلى جانب الصحافة العالمية.

1 http://ia902500.us.archive.org/24/items/dbq01_desktop_en/dbq01_desktop_en.pdf

’تعالوا جميعاً إلى العرض‘

تصوير: أمان الله ميساوي*

حول العمل الفني:

تم التقاط الصورة بتاريخ 14-02-2013. الأمل ليس تنظيراً بل ممارسة.

* أمان الله ميساوي: حاصل على شهادة الماجستير في التسويق من المدرسة العليا للتجارة بتونس. أسس شركة إنتاج سمعي بصري في تونس عام 2014، وله عدد من المشاركات في معارض فنية.

مراجعات كتب

- رواية سرمدة
- قلق في العقيدة

نور شلغين*

سرمدة – عن الرّوح والتمرُّد والخوف:
عبادةٌ في محراب المكان

مراجعة لرواية 'سرمدة'، تأليف فادي عزّام
221 صفحة، قطع متوسط، نشر 'الدار العربية للعلوم ناشرون'، بيروت، 2011.

الخلاصة:

تحاول هذه المراجعة تسليط الضوء على رواية سورية، ظُلمت بعض الشيء من حيث الانتشار، والجدل السلبي الذي تمخّض عن إساءة فهم بعض عناصرها لدى الكثيرين. ويختصر الكاتب في سطوره دوافعه وشغفه وانتمائه لـ سرمدة، والتي تجلّت ملامحها بين دفتيّ هذا الكتاب، متناولاً بأسلوب متميّز المنطقة الجنوبية من سوريا (سهل حوران)، منتقداً ومحللاً وعارضاً أدق تفاصيل هذا المكان، الذي كان مهداً للثورة السورية الكبرى ضد الاستعمار الفرنسي عام 1925. المكان هو بطل الرواية إلى جانب الكثير من الشخصيات التي كوّنت ملامحه، وحملته إلى القارئ بجرأة متفرّدة، ومفزعة بالنسبة إلى آخرين ممن تركوا تعليقاتهم الممتعضة من الرواية والراوي، عبر موقع Good reads. وعلى أي حال تصُعب مقاربة الرواية في شكل مباشر مع أحداث سوريا الحالية، وإن مهّدت ملامحها إلى الأسباب العميقة لحاجة السوريين إلى التحرر من أصفاد كبلتهم عبر السنين، وتبقى محاولة مناسبة للتنبؤ بالتحوّل السوري الكبير الذي بدأ بُعيد إصدار الرواية بقليل عام 2011. ويعود فادي يردّد الأمل رغم الخراب في شبه سيرته الذاتية: "الكلمات تجعل منا أحراراً، فكلما تخرب مكان أو زمان يلجأ المعذبون إلى الكلمات، تمنحهم العزاء والأمل".

* خريجة كلية الإعلام في جامعة دمشق، ومهتمة بالشؤون الثقافية والفكرية. تدرّبت وعملت في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية السورية والعربية. وتعمل كمحررة وصحفية في الفريق الصحفي لمجلة دلتا نون، إضافة لعملها كمحررة في موقع 'الاقتصادي' الإلكتروني.

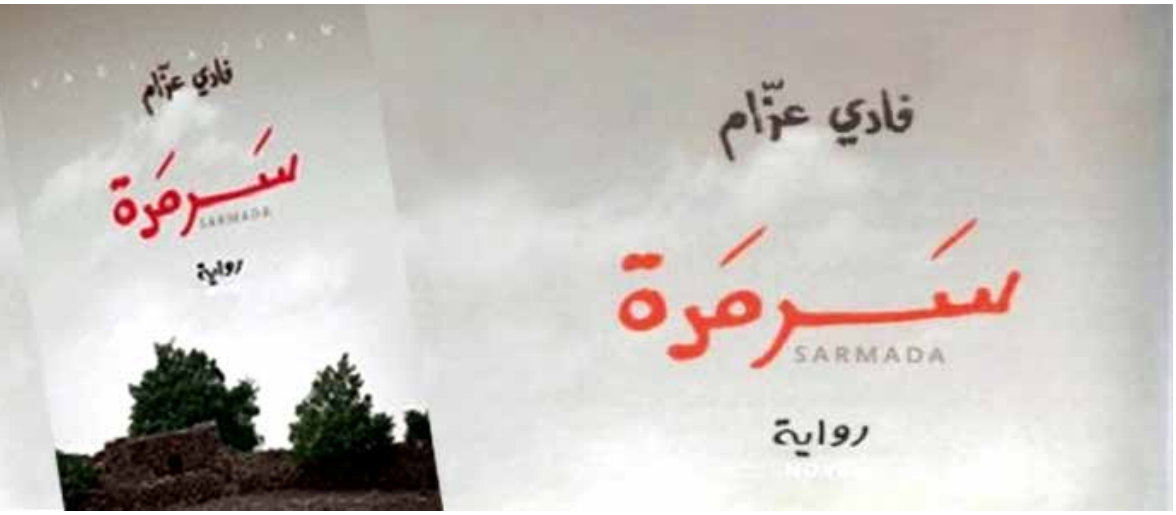

”يا أبي افتح لي الباب
يا ابنتي أسكتي صوت أساورك
يا أبي أخشى وحش الغابة
يا ابنتي وأنا أخشاه..“[1]

بهذه التهويدة الأمازيغية المترجمة، تبدأ قصة هيلا منصور في منتصف سرد مشهد سرمدة الطويل، وأسبوع آلام رافي عزمي، لسان الكاتب الشاب فادي عزام، الذي آثر أن يكون كتابه الأول ملغوماً، يحمل غلافه لقطة هادئة ساكنة، لن تقول الكثير عمّا تخبئه وراء أحجار جبل حوران السوداء، ولن تبوح بالكثير عن الدغل الذي سيقود فادي إليه قُرّاءَه بهدوء، وبصبر، بنَفَسٍ روائي طويل، والكثير من الأحداث والأشخاص الذين سيسردون حميمية المكان بأكثر الأدوات جدلاً.

هي ليست دعوة إلى قراءة رواية، فلن تجد هنا مجرد مكان يسرد نفسه عن طريق شخوصه فحسب. إنها دعوة إلى البكاء والحزن بأقصى إنسانيتك. فرافي عزمي الذي تغيّر مسار حياته لبرهة عندما تنبّه إلى جذوره الغارقة في القدم والحميمية، يكتشف عبر صفحات ’سرمدة‘ الـ 221، أن الزمان مكانٌ سائلٌ، يجرفنا تيّاره بغتة إلى ما لم نكن نتوقع حدوثه يوماً.

عزة توفيق.. أول عتبات المتاهة..

”لم تكن سرمدة بالنسبة لي سوى مكان أجوف مررت به. عشت فيه مرارة أيامي، دمغني بالألم والخوف والخفوت. احتجت لسنوات لأخرج منه وأخرجه مني“. لن أعيد هنا سرد الحالة الذهنية المختزنة لدى رافي عزمي عن سرمدة، قبل أن يبدأ بالاعتراف بشرعية وجهَي قصته الأولى: عزة توفيق وهيلا منصور.

1 تهويدة مغربية من التراث الأمازيغي، اسمها: أفافا إينوفا

فقد كثّف الكاتب كل مايودّ قوله في العبارة السابقة في شكل مختصر، الأمر الذي برع به فادي طيلة أجزاء القصة، من خلال توزيع المعاني بدقة على الأحداث، وبكثافة متناسقة على طول جسد الرواية، مستخدماً خياله الواسع، والواقع الغني بالحميمية لبيئة جبل حوران، داخلاً إلى نوع من الواقعية السحرية في بعض أجزائها.

لطالما كانت فكرة التقمص أغنى أفكار هذه البقعة القريبة/البعيدة من سوريا، أغناها مخيّلةً، وأحياناً واقعيةً، ودائماً الأكثر جدلاً. فعزة توفيق، دكتورة الفيزياء التي تدخل بغتةً إلى حياة رافي عزمي، ستقوده إلى حكاية لن تتناسق مع شخصية امرأة بتخصص علمي عالٍ، تقيم في باريس، المدينة التي ستبدو بالطبع باردةً بالنسبة للحرارة التي تضج بها جنبات سرمدة حميميةً. بهذا الغموض والوضوح المثيرين للجدل، يروي فادي فكرة التقمص التي يعتقد بها جلّ أبناء الطائفة الدرزية الـمُشكّلة لمعظم سكان البقعة السورية المسماة 'جبل العرب'، بالاشتراك مع نسبة لابأس بها من المسيحيين والمسلمين. ولا ينسى أن يشير إلى التجانس الفذّ والجليّ بين كل هذه الانتماءات المتنوّعة، يقول: "كانت سرمدة تتعايش ببساطة... ما لم يستطع العقل الطائفي اللبناني فهمه: كيف لبلدة درزية أن يكون مختارها مسيحي! وكيف لمسيحيي سرمدة أن يتبرعوا لبناء مِجْلِسْ، مكان العبادة الخاص بطائفة الدروز، في البلدة!".

يختار فادي الجزء الأكثر جدلاً في حياة الدروز، الجزء الذي سيوفر له على مدى الجزء الأول من روايته أكبر محرّك للأحداث، وجاذب للقارئ الذي لن يجد مفرّاً من الوقوع في براثن هذه الأداة التي تمسك بطرفي الحياة والموت بطريقة ساحرة، تحمل الكثير من ملامح الأسطورة، وبعض ملامح الواقعية المؤكدة. تحتار أثناء قراءتك. لمن يتوجّه فادي في طرحه المثير هذا؟ ألنفسه التائهة في رفض سابق لمكان دمغه بالألم والخفوت؟ أم إلى القارئ السوري الذي قد يجد هذا الطرح عادياً أحياناً؟ أو أكثر من عادي بقليل كثيراً؟ لكن المؤكد أنه سيبدو لقارئ خارج السياق المناطقي لأبناء الطائفة ومن يحيط بهم، أكثر بكثير من عادي، بل سيبدو نوعاً من الملحمة، فأي معجزة ستجعل شخصاً يتذكر أدق تفاصيل شخص كان هو في حياة سابقة، شخص لا يعرفه ربما، ولا يوازيه قطعاً في الزمن؟

ينتقل رافي إلى جسد هيلا، يعبره ويسرد دون إطالة بلسانه قصةً تحمل الكثير من التمرد في طياتها، الكثير من الحرية والجموح، إلى جانب القلق وعدم التأكد، والكثير من الصدق والطهر اللذين كثيراً ما يكون عقابهما جليلاً، كما حصل عند مقتلها. قتلُ هيلا، فكرة توازي التقمص في استيعاب منطقها المزدوج لدى من عَبَرَ السياق الدرزي بحذر أو فضول. القتل، لم يكن مجرد حدث درامي في سياق رواية، بل فلسفة قائمة بحد ذاتها في عواقب امتلاك جذور طيبة، ونوايا حسنة، وقلب طاهر وإن كان متمرداً. عندما تغريك الحرية، عندما تعتقد خاطئاً بالأحرى أنك تليق بالحرية، فتنظر إلى الخلف، ترى أيّ ثمن عظيم عليك أن تدفع، وترى التضحيات الحتمية التي لم تكن في حسبانك، ولن تستطيع الهروب منها أبداً، فتقف عاجزاً عن السيطرة على أفكار رأسك ونداءات قلبك، مخلّفاً وراءك الكثير من التشكك والحزن، الكثير من اللامفهوم واللامحتمل.

تبدأ القصة من عتبات سرمدة، التي تتحول بِسِماتها الكثيرة، إلى قرية من قرى جبل العرب كل حين، دون أن تكون بشكل حاسم إحداها، وقد تتقمّص أحياناً روح ماكوندو، قرية ماركيز في 'مئة عام من العزلة'. يقدّم فادي صورة بانورامية للواقع الدرزي، الذي تأقلم بتفرده مع السياق السوري في السنوات

الأخيرة، أو ربما قَبِلَهُ هذا السياقُ بعيوبِه، ومنطقِه غير المفهوم، ولكثيرٍ من أبنائه أيضاً. يُقدّم الكاتب أرشفةً مختصرة، كمحاولة لإزالة الالتباس والغموض الذين يحيطان هذه الطائفة بهالةٍ تُثيرُ نَهَمَ الكثيرين إلى التشكك بنواياها وإيمانها. لكن محاولات فادي تبقى بائسة، بمنطقيتها التي لا تُطبق في أغلب الأحيان على سياق الحياة، ويقف عالقاً عند أبواب 'كتب الحكمة' (كتب العقيدة الدرزية)، التي تغلق أبوابها في وجه محاولات الأرشفة، خادمةً بذلك سياق الرواية، بتوفير المزيد من الغموض لبعض شخصياتها دون أسباب واضحة، سوى نية عدم صهر هذه الفئة في بوتقة أوسع، تفوّت عليهم فرصة التميُّز عن باقي أبناء عرقهم ونوعهم.

فريدة: وجه المعايير الآخر

"لم تكن تريد أن تكون امرأة رخيصة يجتاحها مراهق متخم بالهرمونات، ولكنها وجدت أن شيئاً غامضاً يدفعها باتجاهه، فهؤلاء المعفّرون ببقايا الطفولة والمستعدون للانتقال لطور آخر يقعون في الهوة السحيقة من الفوضى والاشتياق. لا أحد يريد فهمها، والجميع يكيل لها الشتائم والوصايا". فريدة هي الوجه الآخر، الحقيقي تماماً كوجه هيلا، لسرمدة. حمّل فادي شخصيته الفريدة كثيراً من الصفات المتناقضة، وتدرّج معها في سياق تطورها حرفاً حرفاً، حجراً حجراً، وحدثاً حدثاً. من أرملة عادية مظلومة تتحوّل إلى معجزة، أو ساحرة. الفأل النحس، ودعوة البكاء المفرحة إلى سرمدة التي لاتزال تئن تحت وطأة شعور الذنب الذي يراودها تجاه وصمة الذاكرة؛ هيلا.

كأن فادي أراد من فريدة أن تكون وسيلة الذهاب إلى الحدّ الأقصى في كل شيء. هنا تمتزج السعادة العاجلة والنشوة الموقتة بالحزن والبكاء الهستيري، أدوات للخروج من الظلام إلى النور، وهل نتحرر من أوجاعنا إلا بالبكاء، والتخفف من ذنوبها؟ فريدة الأرملة، تحوّل حوشها إلى مرتعٍ لمراهقي القرية، لتصبح وجهاً نعرفه، صادفناه من قبل، بجسدها الفاتن، وروحها الخفيفة، بقوانينها الفريدة. هل هي تقمصٌ جديدٌ للأرملة الغاوية في 'زوربا'؟ لن يقف فادي كثيراً على أعتاب هذه التشابيه غير المؤكدة، فعلى عكس نيكوس كازانتزاكيس الذي آثر إبقاء باب أرملته مواربا، يخلع فادي كل الأبواب والشبابيك على أرملته بلا اهتمام، يفضل الوضوح، وعدم المواربة، في كل تفاصيل حياتها، يحمّل أسرّتها وغرف حوشها الصغير الكثير من مشاهد الجنس العنيفة، مخترقاً أقصى حدود الجرأة في العرض، دون الوقوع –غالباً- في فخ الإسفاف! وكأنه يقطع عهداً على نفسه باختراق كل التابوات المحرمة، فرائحة الدين التي لاتزال تعبق في أجواء الرواية، وستبقى حتى النهاية، تتداخل مع خيوط الجنس الذي يسجّل الكثير من الفظاظة في تفاصيله، محاولاً إلباس الذنب ثوب الفضيلة، أو العكس!

ولا تنقطع الرموز عن الظهور في جوانب 'سرمدة' مسجلةً أكبر تجلّياتها في أثداء أم سلمان المنتفخة الممتلئة بالكثير من الحزن والغضب والحقد المكبوت، ولاتنجو منها إلا بألم أكبر من حملهما الثقيل، ليصبح اعترافها المكلّل بأقصى حالات الألم دواءً لكل عقد سرمدة، إلى حين! كأنها دعوة صريحة إلى التطهّر من كل غضبنا، أحزاننا، أحقدانا، وصقل أرواحنا بالألم، كأداة وحيدة للتخفف من كل العقد التي تغشي العيون عن نور الحياة.

لن تستطيع الذهاب بعيداً، فالنص الذي يتحوّل إلى أسد جائع ينقض على رأسك، لن يرحمك من

انقضاضه بكامل شراسته، بأحداثه المكثّفة في كل ناحية، والشخصيات المتناثرة على حوافها بالمزيد من الإثارة. يصل جنون الكاتب إلى مداه الجميل، فيقف لاهثاً مسيطراً بلذة على شخصياته، يخاطبنا، أو يخاطب نفسه معلّقاً على حدث طبيعي يمر غريباً كجنون في مدينة الجنون هذه: "معي العدة اللازمة لتغيير ما أريده، للإضافة والحذف، للخلق والإبادة"، كأنه يهدد بما لديه هنا من مُلكه على كل هذا الجمع الذي خلقه للتو على صفحات الرواية.

بثينة: شعرة الجنون التي لن تنقطع

يبدأ فصلٌ جديدٌ من الحكاية، يختار له فادي عنوان 'بثينة'. لكن الحقيقة أن هذا الجزء ليس فيه بطل محدد، أبطاله بثينة، فريدة بوجه جديد، حسين الغائب، سلوم العقيم وعائلته الخرافية، رحمة، صالحة، والأكثر تحريكاً للعواصف؛ بلخير ابن القرية، وصديقه فياض المنبوذ، والأستاذ زيدون الديكتاتور البعثي. هنا تعود النساء إلى القيادة، إلى استلام زمام الأمور عن الرجال الغائبين، والحاضرين الغائبين.

وتعود السياسة إلى محاولات اقتحام حياة هذا المسرح. يطلّ رأس جمال عبد الناصر أيام المجاعة، بحلّةٍ لم نعهدها، لقطةٌ واحدةٌ لوجه عبد الناصر الديكتاتور، يقول فادي: "حين سُئِل سلطان الأطرش يوماً عن موقفه من الحكومة الوطنية بعد الاستقلال، أجاب بغصّة، وجملة واحدة: سقى الله أيام فرنسا!)"، ويضيف في مشهد زيارة عبد الناصر للجبل في 1960: "جمال حيّى الجموع، وأخذ الرجال فعلاً، ولكن إلى السجون، واستطاع حكمه الفاسد أن يجعل من أبناء الثوار وعزلتهم وفقرهم أن يرسلوا البنات خادمات إلى بيروت، وجلب القحط والعسس، ولم يأتِ الطحين أبداً إلا تهريباً".

أقف هنا عند تفاصيل خفية وأسأل؛ هل تقصّد فادي أن يجرد قائد الثورة السورية الكبرى من لقب 'الباشا' الذي مافتئ يلتصق باسمه في كل وقت؟ وجمال عبد الناصر حتى من أحقية الإشارة إليه باسمه الأخير؟ ربما كان يريد سرد الأحداث بأكبر كمٍّ من الحيادية، أن يصوّر المشهد بعينٍ لاتميّز الألوان، تتمرّد على كل الخطوط الحمراء، لا تريد، ولا تستطيع أن تراها، أو أن يؤرشف الأحداث من منظار قنّاص يصوّب قلمه نحو الماضي، مهدداً الحقائق بكشف عريّها الكبير!

برهة تمضي، ليحل بعدها حزب البعث بطلاً في الساحة التي تبدأ بفقدان ملامحها الدافئة بالتدريج. "زرعت السلطة -التي بقيت خارجاً- العيون والعسس، وأصبح أصحاب الخط الجميل يتبارون بتحبير التقارير بأي شاردة مارقة أو واردة عابرة، يحصونها ويبعثونها لفروع المخابرات المختلفة"، يقول فادي مع تخطي عتبة السبعينيات من القرن الماضي، حيث تبدأ الملامح بالتغيُّر، فسرمدة المستقلة تضمحل تحت جناح السلطة، مستسلمةً لاجتياحها الهادئ، ويبدأ اليأس بسحب ألوان الجو الدافئ في جوانبها. مدٌّ متسارعٌ نزقٌ لحزب البعث الاشتراكي، وتواجدٌ هامشي للحزب الشيوعي. تبدأ ملامح السلطة والشعب بالنضوج، والاقتراب من ملامحهما الحالية، وتجتاح سرمدة موجةٌ هادئةٌ من السياسة، تبتلعها بعد حين، بهدوء. يبدو فادي غاضباً بصوتٍ مكتوم، تبدأ لغته بالصمت التدريجي، يخفّ عبء الأحداث الكثيفة عن كاهل الألفاظ، منذرةً بالنهاية، دون أن تصمت تماماً، تاركةً مساحاتٍ شاسعةً مشبعة بإشارات الاستفهام الكثيفة.

تنتهي الرواية دون أن تنقطع كل خيوط حبكتها في شكل كامل. ففياض المنبوذ يصبح بطلاً قومياً عندما يعود من الجنوب محمّلاً بتابوت في عملية تبادل أسرى 'حزب الله' مع الاحتلال الإسرائيلي، وبلخير

يعود بهيئة قرصان من دمشق يوم تأبين والدته فريدة، حاملاً معه تذكاراً سيظل وصمةً في ذاكرة كل رجال القرية الذين مرّوا في حوشها يوماً. كل تلك الخيوط المعلّقة في الخلفية، تظل إشارات استفهام عالقة طويلاً، كأنها تصلح لرواية أخرى، أو كجزء آخر لـ 'سرمدة'، وتظل نيّة الكاتب مبيّتةً لجذب كل حواس قارئه، وإبقاء الشخصيات وراء حجاب شفيف من الغموض حتى النهاية.

سرمدة: السردة التي لا تنتهي!

أغلقتُ الكتاب على صمت الورق المطبق، وداخلي ضجيج يهتزّ له نبضي. في هذا المكان أعدتُ اكتشاف تلك الحميمية التي تحيطني من كل صوب. أمسكتُ بيد رافي/فادي، ورحتُ أجوس كل تلك الملامح الدفينة في وجه كل من صادفته، لأجد فيه ملمحاً أو ملامح من شخصيات الرواية الكثيرة، وأزمنتها الممتدّة على طريقة الأدب اللاتيني.

وتساءلتُ، ما أهمية 'سرمدة' الآن؟ الرواية التي تسير في خطين زمنيّين مختلفين، يجمعهما مكانٌ واحد، ويربط بينهما أشخاص، وتجلّيات آخرين. لمَ على تلك الرواية أن تشرّح هذا الواقع السوري بامتياز طائفته الآن بالتحديد، أن تعلن انتصار الرغبة، وتملُّك الخوف المستقر داخل النفس الإنسانية، رغم كل تلك القدرة على التمرّد؟! هل هي الحاجة إلى التمسّك بالأصالة والجذور، إلى فهم هذا الماضي الحاضر بعمق، لنخرج من تلك القواقع التي كنّا نسكنها قبل بركان الحرب الأخير؟ هل هو التوْق إلى إعادة تكوين الحالة الذهنية المتشكّلة لدينا عن كل هذا الزمكان، الذي لربّما مرّ علينا يوماً، في أحد أطوار الروح؟! أو الرغبة في الولوج إلى كل التجارب الإنسانية التي حملتها الرواية، مطوّعةً اللغة المرنة، والأحداث المشتعّبة، والشخصيات المتفرّدة، والمدى الشاسع للمكان؟

هي ثورةٌ على الإيقاع الرتيب الذي انتهجته الرواية السورية في العقود الأخيرة، إذ بقيت في الظل مستترةً بنوع من الديبلوماسية في طرحها، فيما عدا بعض الاستثناءات الأخيرة، التي تجلّت بمحاولات يُقرّ لها بالنجاح والانتشار. إلا أنّ 'سرمدة' وغيرها من المحاولات الدوؤبة لإعادة الرواية السورية إلى النور والصدارة لا تزال ضعيفة إلى حدٍّ ما. ويبدو أنّ ذلك يعود في أساسه إلى الحالة السياسية العامة التي تجعل أي كتاب يتناول الشأن العام عموماً، والسياسة خصوصاً، على خط النار في المواجهة مع السلطة أو التنظيمات الأخرى في البلاد، حيث سيُمْنَعُ نشر هذه الكتب في الجزء الذي تسيطر عليه من السوق السورية، ما يؤدي إلى أنّ هذه الأعمال ستظلّ بمنأىً عن القارئ السوري، ويظل كاتبها بعيداً عن السياق الذي يكتب عنه، خصوصاً في وضعٍ أجبر معظمهم على تجربة الغربة. وفي حال تجاوزنا هذه النقطة مع 'سرمدة' كونها تجربة تنقيب في صناديق ذاكرة المكان والتاريخ، دون التناوش في شكلٍ فجٍّ مع السياسة، إلا أنّ اتجاهات فادي الواضحة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ومقالاته العديدة، تُعيده وتُعيد قارئه إلى خط المواجهة مع السلطات والتنظيمات، مثل العديد من الكُتاب السوريين الذين بدؤوا بالانسياق إلى نهر السياسة ونبش أعشاش الجهل والتخلّف، نقداً وتوصيفاً في كتاباتهم وكُتبهم.

عمّار ديّوب*

قلق في العقيدة
وإشكالية العدمية

مراجعة لكتاب 'قلق في العقيدة'
تأليف سعيد ناشيد، 127 صفحة، قطع متوسط، نشر 'دار الطليعة'، 2011.

الخلاصة:

تهتم القراءة بتلمس الفرضيات الرئيسية في كتاب سعيد ناشيد 'قلق في العقيدة' ونقدها. منهج الكاتب مثاليٌ في تحليله لهذه الفرضيات، ما يدفعه لتبني رؤية تتطابق حتى مع الإسلاميين، وإن كان ينتقدها؛ أي هو يقول أن الإصلاح الديني هو الحل لأزمات مجتمعاتنا، ويقوم بتأويل النص الديني، ويتنكر للتشريع وللفقه، ويثمّن العقيدة فيه، بينما هم يقولون أن الدين (لكن دون إصلاح) هو الحل لتلك المشكلات. فتأويل ناشيد الأقرب للعلماني، وبدلاً من أن يعتبر الإصلاح الديني مسألة معرفية وموضوعاً للبحث، فإنه يتعاطى معه كبوابة للإصلاح بكل معانيه؛ أي هو الحل لأزمات المجتمعات، وبهذا يتصالح مع الإسلام السياسي الذي يفسر الدين كدين ودولة. نجد أن مشكلة تخلّف مجتمعاتنا لا تُقرأ من زاوية أن التشريع متخلف والعقيدة الإسلامية متقدمة والإله ميتافيزيقي لا ارتباط بينه وبين حياة الناس (ولا يستوجب وجود هذا الإله أي شعور بالذنب ولا خوف من أي حساب)، بل تُقرأ من زاوية أن مجتمعاتنا محكومةٌ لنظام رأسمالي عالمي، وهو بطور الأزمة، ومن أشكالها السياسية الطائفية والحروب والفقر والإرهاب باسم الديني، والعودة نحو التدين وطرح الدين كحل خلاصي للأزمات. المنهج المثالي للكاتب، يدفعه ليقول: الأفكار تحكم العالم، وبتغيير الأفكار يتغير العالم. هذه فكرة أصبحت خاطئة كلياً؛ فالعالم محكومٌ بالجملة بنظام رأسمالي كوني، وله نتائج وسيرورات يفرضها على مختلف مستويات البنية الاجتماعية العالمية؛ ومن خلالها تُقرأ أزمات العالم، ومنها أزمة عدم التطور، والمتعلقة بأزمة النظام الرأسمالي التابع. إذاً الحل ليس بالإصلاح الديني ولا بالإصلاح السياسي، بل بتغيير الطبقة الرأسمالية التابعة.

* كاتب وباحث سوري. كتب في عدة جرائد، 'الحياة' و'السفير' و'الأخبار'، وفي 'موقع الأوان'، و'العرب اللندنية'، وفي 'مجلة دمشق'، وغيرها. يهتم بصفة خاصة بالفكر النقدي، يناصر الثورات العربية دون شروط كلحظة أولى، ولاحقاً يصبح النقد بمثابة حياة للثورات؛ وبدونها تتعثر وقد تفشل.

قراءتنا هذه معنية بفهم هذا الكتاب جيداً، فكل قراءة يُفترض أن تصغي للنص أولاً، لا لنفس القارئ، ونهدف إلى إظهار الفكر النقدي في الصراعات الفكرية الجارية في عالمنا العربي، حيث تتركز بالمعنى السياسي بين التيارات الإسلامية والداعية إلى تحكيم النص الديني في الدستور والمجتمع والتعليم، وبين تيارات حداثية لا ترفض الدين وتعتبره قضية شخصية للأفراد، ولا يجوز المساس فيه، ولكنها ترفض أن يكون هو مصدر الدستور أو التشريع، وأن حياة البشرية المتغيرة تتطلب دستوراً وتشريعات متغيرة.

كتاب سعيد ناشيد[1] 'قلق في العقيدة' ينزّه الدين بفصله عن السياسة واعتباره نصّاً تعبدياً للمؤمنين به، ويقدم لهم علاقة إيمانية مع الله، ويرفض سعيد قيام أي حكم أو التحكم بالبشر وفقه. وتأتي أهمية الكتاب في ظل الصراع الذي يعمّ عالمنا العربي والعالم، حيث يناقش قضية الإصلاح الديني، كطريق رئيسي لإعادة النظر بالأديان، بل للخلاص من جانبها الفقهي أو التشريعي. ويخص بذلك الإسلام، الذي يعد إلهه الميتافيزيقي مدخلاً لتخليص أوربا من الغرق بمشكلة العدمية. أوربا المسيحية ولأنها كذلك، فمآلها ما بعد التدين هو العدمية. الدين المسيحي واليهودي، دينٌ تاريخي، أي بمعنى يتضمن تصوراً للوجود، فيه بداية وفيه نهاية وفيه مخلص سيأتي لاحقاً، وبالتالي مع تراجع الدين وتقدم العلمانية، تبقى قضية العودة للدين ممكنة كما يرى الباحث المميز سعيد ناشيد.

الكاتب هنا لا يعيد المسألة إلى تعقيدات أزمة الرأسمالية العالمية وإغلاقها كل أفق أرضي نحو حياة أفضل وحينها تظهر السماء كملجأ وكخلاص، أي الدين، بل يعيد المسألة بشكل أساسي إلى أن الإصلاح الديني في أوروبا لم يكمل طريقه، ولا بد من إكمال الطريق. وليس بمقدورها ذلك أصلاً فالمسيحية واليهودية لا تسمح، ولا العلمانية قطعت طريقها نحو تنحية الدين. يسرد لنا الباحث مواثيق حقوق الإنسان،

1 سعيد ناشيد باحث مغربي، لديه كتاب سابق بعنوان 'الاختيار العلماني وأسطورة النموذج'. نشر الباحث دراساته الرئيسية في موقع الأوان .http://alawan org/. كتب في جريدة 'السفير' و'الأخبار' و'الحياة'، ثم في 'موقع 24'، وأخيراً يكتب في جريدة 'العرب اللندنية'، وفي جرائد ومواقع إلكترونية أخرى. الباحث إشكالي في رؤيته للإصلاح الديني ولمسألة العلمانية، ويعتبر مثيراً للجدال فيما يطرح، ولكنه متمكن من أصول النقد للرافضين للإصلاح (أي للمتمسكين بأن القرآن صالح لكل زمان ومكان وأن الإسلام هو الحل)، ويتبنى العلمانية على قاعدة الإصلاح الديني، ويعتقد بأن الإصلاح الديني هو أصل كل إصلاح في البلاد العربية.

ويوضح أنها لم تتجاوز المقاربة الدينية حيث سمحت للمؤمن بحريته الدينية كحق مصان دستورياً، وهو ما أتاح المجال واسعاً لعودة الدين والطائفية والتمييز الإيجابي لصالح المسيحية وضد سواها.

يرى سعيد أن خلاص أوروبا من العدمية يتم بالإسلام، ولكن ليس أي إسلام، فهو يميز في الإسلام بين العقيدة التي يعتبرها متقدمة جداً، وبين الشريعة التي يعتبرها متخلفة جداً؛ ويعتبر أن القرآن فيه إلهين: إله ديني وإله ميتافيزيقي. ويرى أن الإصلاح يعتمد الله الثاني، ووفقه يجب إيجاد تصورات أنطولوجية إسلامية، وباعتبار الإسلام حصيلة الديانات التي سبقته، فإن الطبيعي في الأمور أن تستفيد البشرية ولا سيما في أوروبا منه كي تتخلص من العدمية. فالخروج من الدين في أوروبا غير ممكن إلا بإله الإسلام، فهو إلهٌ متعالٍ منزّهٌ عن الوجود، بل هو كل الوجود، ولكنه لا يُلاحظ الطبيعة ولا في سواها بل في القلب. يقول ناشيد "بتأويلنا أن الله الميتافيزيقي إلهٌ خاصٌ بالأفراد، ومقطوعة الصلة بالأرض وبتعاليم توجيهية للبشر. وهنا يؤكد أن القرآن تأسيسي لا توجيهي، أي أسس الإسلام وكان ذلك في زمن النبي وهو 'معجزته'. وليس توجيهي أي ليس به أوامر مستمرة للناس في كل زمان ومكان، ومن يحوله نحو ذلك هم المتطرفون، وهؤلاء لا يمثلون إلا الشذوذ عن الفهم الدقيق والعميق للدين الإسلامي ولله.

القرآن وظيفته تعبدية فقط؛ أي يمنع القلق عند الناس ويعطيهم إلهاً يغمرهم بالطمأنينة. سعيد يصر هنا أن علينا تغيير وظائف الله، وهو ما لم تنجح فيه أوروبا فبقي إصلاحها الديني غير مكتمل.

الأديان برأي سعيد تظل "دليلاً على الإخفاق الأخلاقي والعقم العقلي والفشل الوجداني"، من يقرأ هذا سيسرع إلى تكفير الكاتب. مقصد الباحث تخليص الإله من سيطرة الفقه والتشريع، الذين يناسبان عصراً معيناً، وبعدها ومع الأمويين صار الحكم حكماً ملكياً. أي أن الإسلام وكل دين حالما يتحول إلى موجّهٍ وآمرٍ وسلطة يصبح سلطةً وضعية.

الإنسان لا يحتاج إلى سلطةٍ دينية، بل يحتاج إلى الله الذي يقارب "تصوراً أنطولوجيا يمنح معقوليةً معينةً لفوضى الوجود، واعتباطية الحياة وجنون الكون" هكذا إله، هو إله الإصلاح الديني واللاهوتي الجديد؛ إذ لا إمكانية لتعايش الأديان مع غير عصرها. هناك إمكانيةٌ فقط لإلهٍ ميتافيزيقي، يخلّص الناس من العدمية الأوروبية ومن التطرف الإسلامي. إذاً كما يقول ناشيد لا بد من تغيير وظائف الله.

السبب أنه إله غير مرتبط بالأرض، ولا يمتلك سيرورةً متصلةً لتاريخ البشرية، وهو خارج التاريخ والجغرافيا والخيال والجمال. بتخارجه عن كل ذلك، فهو مفارقٌ كليةً. وفي قضية الجنة والنار والخلود يسرد الكاتب عدة حججٍ لتفنيد الاعتماد على ظاهر النص أو على نصوصٍ بعينها، ليؤكد أن أهمية الإسلام في عدم وجود سلطةٍ دينيةٍ وتراتبيةٍ ووجود نصوصٍ خاصةٍ بالنبي أو بأحداثٍ بعينها، وبعدها تصبح هذه النصوص مجرد نصوصٍ تعبّدية. هذه القضية سمحت لناشيد بالقول إن الإسلام يسمح بالخروج من الدين، أي عن الفقه والتشريع. بل هو يرى أن الإسلام ليس ديناً تشريعياً، وكل التشريعات اللاحقة على القرآن، والتي مصدرها السنة، هي ليست من الإسلام في شيء؛ فهي نتاج الدين حين يَتَمَأْسَس ويخدم الأنظمة. ناشيد يرى أن القرآن يُقرأ بألسن الرجال. أي هو متعدد، ويمكن تأويله، وهو ما كان، وهو حجة التأويل الجديد. إذاً لا بد من إصلاحٍ دينيٍّ وإله 'جديد'. ليس مقصد الكلام تبني العلمانية، بل إشادتها "على إصلاح لاهوتي جذري بمقتضاه نخرج الله من إسار الاحتجاز الديني".

ناشيد يوغل في فهم صيرورة العالم تقدماً أو تراجعاً وفقاً للوعي، ويتجاهل الطبيعة الاقتصادية

والاجتماعية لحياتهم، ولذلك نجده يهمش هذا الواقع ولا يقرؤُه أبداً؛ فإن حصل الإرهاب برأيه فهو "رجوع في صورة الإله إلى زمن ثقافة القرابين"، والعنف الغربي في الحرب العالمية الأولى والثانية "هو عنفٌ متجذّرٌ من تقاليدَ عريقة في حرب المسيحية الغربية على الشر والمواجهة الخلاصيّة مع الشيطان". يحدد باحثنا قضيته الرئيسية بتغيير الوعي، وحينها تتغير حياة البشر. الإصلاح الديني هو هو طريق الإصلاح السياسي. القارئ لمقالات سعيد في الصحف يجده أسير هذه الفكرة؛ فإن تكلم عن أوروبا والعدمية فيها فالسبب هو عدم إكمال الإصلاح الديني، وإن تكلم عن المتطرفين فهم برأيه الشذوذ من المسلمين ويستندون إلى آيات وسنّة يجب التبرؤ منها أو إصلاحها. وهنا يشنّ معركةً فكريةً ضد الفقه والتشريع ويرفض أي توظيفٍ سياسيٍّ للدين، إيجاباً أم سلباً. خوض هذه المعركة على أرضية إله 'جديد' هو ما سيخلصنا من العدمية ومن التطرف.

مشكلة الكتاب بأكمله ليست في عرض وجهات نظرٍ عن الدين؛ فهو اجتهادٌ وتأويلٌ للأديان، ومحاولةٌ ضمن مشروع الإصلاح الديني الذي يتبناه كثيرون. مشكلته في تجاهله دور النظام الرأسمالي وإغلاقه أي أفقٍ نحو عالمٍ يسوده العدل والحرية والمساواة. كذلك يتجاهل ناشيد دور الأنظمة العربية، وهي جزء من هذا النظام، والتي حولت الدين إلى أداةٍ أيديولوجيةٍ كاملة، تنمّي كل أشكال الطائفية والمذهبية، كي تُؤَبِّدَ ذاتها.

قصدت هنا أن الرأسمالية أصبحت بطور الأزمة، وهي كتشكيلةٍ اقتصاديةٍ اجتماعيةٍ لها طوران: طور صعودٍ وطور هبوط؛ ما قبل فشل ثورات 1848 الأوروبية كانت في طور الصعود، وما بعدها أصبحت في طور الهبوط؛ أي أصبحت كنظامٍ سياسيٍّ وأيديولوجي عائقاً أمام تطور القوى المنتجة، التي تراكمت بحيث أصبحت تسمح بحل كل مشكلات البشرية. ولإدارة أزمتها العامة، وتفادي انهيارها، راحت تشن الحروب الإمبريالية، وتقتسم العالم، وأخيراً 'العولمة' وهكذا؛ وهنا بدأت ملامح الإزاحة العالمية لها، مع بروز الثورات الاشتراكية؛ والتي فشلت في مهمتها كحفارة قبورٍ للرأسمالية؛ ولكن هذا لم يُنْهِ الأزمة العامة للرأسمالية، بل أبقاها، فأخذت أشكالاً عدة؛ وأبرز تحولٍ جديدٍ فيها جاء مع أواخر السبعينيات، حيث أنهى كل أشكال إدارة الأزمة القديمة، وظهر ما سميت بالسياسات الليبرالية الجديدة، والتي ارتبطت مع الرئيس الأمريكي ريغان والمرأة الحديدية في بريطانيا تاتشر. هذه السياسات التي بدأت تلغي دور الدولة الذي أوصى به كينز بعد الأزمة الرأسمالية 1929 كحلٍّ لها: عبر تعميق دور الدولة كحامية لحقوق العمال، وفرض ضرائبَ أكبر على الرأسمالية، وإيجاد ما سمي حينذاك الشراكة بين أرباب العمل والعمال، وبخاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ولسببٍ إضافيٍّ هو منافسة الدولة الاشتراكية حينها. المهم هنا أن سياسات دعم العمال والفلاحين والطلاب والفقراء، مع بداية الثمانينيات بدأت بالانحسار، وتم تدمير النقابات القوية ولا سيما في بريطانيا وسواها، وبقي الأمر كذلك، إلى أن وصلنا إلى أزمةٍ جديدةٍ تضرب كُلاً من أمريكا وأوروبا، وبالتالي العالم، عام 2008 ولا تزال تتفاعل. بل إن كل ثورات العالم الآن هي نتاج تلك الأزمة؛ وهي أزمة كبيرة، وأهم تفسيرٍ لها يكمن في هيمنة رأس المال المالي على القطاع الإنتاجي ما ولّد فائضاً مالياً، ليس له معادلٌ ماديٌّ، وهذا ما خلق اقتصاداً وهمياً، أدّى لاحقاً إلى أزمة لا زالت تتفاعل وتتفاعل. الهام في الأمر هنا أن الرأسمالية لم تعد تقدم حلولاً للبشرية منذ عام 1848، وأصبحت كنظام سياسي وإيديولوجي معيقة للقوى المنتجة الرأسمالية ذاتها، وبالتالي صار لا بد من تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة.

ومن هنا راجت نظريات فلسفية تتحدث عن موت الفاعل التاريخي، كالبنيوية؛ وقال نيتشه بموت الله، وهايدجر بالعدم؛ هنا لم تعد الفلسفة، ولا سيما بعد هيغل وماركس، تقدم أي بعد تجاوزي، وأصبحت تذهب نحو قضايا بعيدة عن التطابق مع روح العصر وتجازوه، وصارت تعبر جدياً عن أزمة الرأسمالية العامة. أي هي فلسفة الأزمة، وليست فلسفة تقدمية كما كانت الفلسفة زمن هيغل مثلاً.

مجتمعاتنا دخلت التاريخ حين دخلت الرأسمالية طور الهبوط، وهذه نظرية يشرحها مهدي عامل في كتابه نمط الإنتاجالكولونيالي؛ فكانت برجوازياتنا، حتى في مصر، وهي الأهم، برجوازيات غير تقدمية، ولم يُسمح لها بطور الصعود، أي خُلقت هي بشروط الامبريالية والاستعمار، فكانت بداية نشأتها كولونيالية بالضرورة، وكان من السهولة بمكان إسقاطالبرجوازية الأم في مصر. ولم تتجاوز المغرب وتونس، مصر الناصرية. قصدت أن اختلاف أشكال الرأسمالية في هذه البلدان لم يُسمح لها بتجاوز البنية التابعة، بل إن هذه الرأسمالية المتنوعة تعبر عنها.

الإسلام السياسي جاء تعبيراً عن هذه الأزمة، والإصلاح الديني السابق عليه والمتزامن معه واللاحق عليه سهّل له ذلك الانتشار والتوسع، وقدم نفسه كنهاية لعصر النهضة والتنوير العربي وكممثل للهويةوالخصوصية؛ أي قدم نفسه بسبب فشل الاصلاح في أن يكون واعياً لشروط التقدم التاريخي، والذي يتنافى كليةً مع أي تداخل بين الدولة والدين؛ الإصلاح السياسي الذي يقول بضرورة أن تصلح الطبقة المسيطرة ذاتها، فتتحول عن الشمولية إلى الديمقراطية، فيتشكل البديل.وقد فشل مرتين؛ الأولى حين كانت البرجوازية 'التقليدية'، أي الكولونيالية، مسيطرة قبل ثورات الاستقلال في الخمسينيات، وفشلت ثانية مع فشل دولة تلك الثورات؛ وبالتالي لم يستطع الإصلاح السياسي أن يكون البديل، لأنه إصلاح مرتبط بالطبقة البرجوازية التابعة بكل أشكالها. الواقع الجديد في البلدان العربية وبعد 2011 لن يسهم في تجاوز الأزمات، لأن الطبقة التي "تسلطت" على الثورات هي فئات جديدة من البرجوازية، وبالتالي لا تمتلك حلولاً للمشكلات العامة، وهو ما سيجدد الثورات لا محالة.

إذاً لا حل بالإصلاح السياسي المسنود للطبقة البرجوازية، وطبعاً لا يمكن للإصلاح الديني أن يكون هو الحل، أي الحل لا يبدأ بتغيير أفكار معنية في العقل، فيتغير الواقع بعدها! وبالحقيقة واقعياً أصبح مشروع الإسلام السياسي هو المستفيد من كل مشروع الإصلاح الديني، وبوجهيه العلماني والإسلامي. نموذجُه في السودان ولاحقاً مصر زمن مرسي، وفي عشرات الدول سقط نهائياً. النموذج القادر على حل المشكلات، هو نموذج جديد ومختلف، ولكننا لا نمتلك رؤية دقيقة حوله، وسيكون بالضرورة تجاوزياً للرأسمالية ذاتها؛ ولكن هل هذا يلغي ضرورة الإصلاح الديني؟ نستبق القول بـ 'لا' واضحة. ولكن من الخطأ المعرفي أن يقدم الإصلاح الديني كحل لمشكلات المجتمع، وبرأينا هو مسألة معرفية تخص الإطار الديني فقط. وهو يأتي بحقل الصراعات المعرفية، أما الواقع ومشكلاتُه وأزماته، فأجوبتُها مرتبطة بالعلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الحديث، فعبره يمكن إيجاد الحلول، والانحياز للطبقات الأفقر والتخلص من الأكاديمية 'البرجوازية' المتهافتة، والتي تفصل قطاعات الواقع والعلم بعضها عن بعض وكأن الأمر ممكناً. نقصد وبوضوح شديد، أن الإصلاح الديني يجب أن يخدم أي مشروعاً تاريخياً للتغير ويكون بالضرورة مشروعاً لتجاوز كل البنية التابعة التي أوضحناها أعلاه.

التجربة الاشتراكية سقطت كتجربة أولى؛ ولكنّ أزمة الرأسمالية تتطلب تجارب جديدة، فكانت تجربة

مناهضة العولمة، ولاحقاً الاشتراكية في أمريكا اللاتينية، والآن تتقدم الثورات العربية، وهناك احتجاجات ضخمة في أوربا الضعيفة، كالبرتغال وإسبانيا واليونان وهكذا، وهذه كلها 'بروفات' للتجاوز، وهي تعلِّم البشرية أن التجاوز ممكن. تعلِّم وتعبر عن ضرورة واقعية تفترضها التشكيلة الرأسمالية ذاتها القائمة على الاستقطاب الطبقي كما كل تشكيلية طبقية.

نريد القول أنه ليس بالإصلاح الديني وحده يحيا الإنسان، ويتخلص من العدمية والإرهاب، وليس هو بوابة الإصلاح العام، وكذلك ليس السياسي، بل يتم ذلك بالتغيير الكامل للنظام الرأسمالي في المراكز والأطراف وفق مقولات سمير أمين، وحينها سيكون المجال واسعاً لعلاقة جديدة مع 'فكرة' الإله؛ فكما أن الرأسمالية أقصت الفهم القديم للدين، واقتربت من علاقة الإله كمتعالٍ، وهي مقاربة العلمانية، فإن نظاماً جديداً يتجاوز الرأسمالية سيخلق أرضية جديدة لتدين جديد، وربما تتاح إمكانية كبيرة لتجاوز الإله الميتافيزيقي كذلك.

’السيدة رقية‘

رسم: أيهم حمادة*

* أيهم حمادة: فنان فلسطيني اختصاص إعلان. خريج معهد الفنون التطبيقية، وعضو اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين فرع سوريا، ومنسق ’تجمع فناني فلسطين الشباب‘. لديه ثلاثة أفلام أنيميشن قصيرة. وشارك بجميع معارض ’اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين‘، ومعارض ’تجمع فناني فلسطين الشباب‘. حائز على الجائزة التقديرية في ’بينالي طهران‘ للملصق السياسي 2007.

ريبورتاجات

- المساكنة
- لبنان: لاجئون في الخيام ولاجئون في القصور
- ملف المخطوفين في سوريا
- قوارب الموت إلى أوروبا
- الرياضة في سوريا: ضحية من ضحايا الأزمة؟
- المسلحون في سوريا: البحث عن الدعم والقيادة
- رحى الحرب في سوريا تطحن حقوق الطفولة

كفاح زيني*

المساكنة

الخلاصة:

المساكنة هي إقامة شخصين مختلفي الجنس في مكان واحد دون رابط عائلي بينهما، وهذا المفهوم لا يستدعي الحالة الجنسية بالضرورة. لكن الفهم العام للمساكنة يتجاوز فكرة الإقامة، ليتناول الجانب الجنسي في الحالة في شكل كبير، وتصبح المساكنة في المقام الأول عبارة عن 'علاقة غير شرعية'. "خوفاً من الفضيحة"، أجابت سارة عند سؤالي لها "لمَ لا تريدين وضع اسمك الكامل في التحقيق؟". وأغلب العينات التي قابلتها لم تختلف عن سارة كثيراً. "حقيقة واقعة سواء قبلناها أم لا"، يقول البعض عن المساكنة، وآخرون يرونها حالة طبيعية في المدينة المعاصرة، ويصل البعض إلى حد رؤية مناقشتها أمراً متخلفاً. ورغم هذا الإيمان بالفعل لدى محتضني المساكنة، إلا أن معظمهم تتشكل له حالة قلق عندما يتعلق الأمر بجعل فعلهم علنياً. قانونياً لا نرى أي مادة قي قانون العقوبات تناقش المساكنة، أما المؤسسات الاجتماعية فربما تناهض المساكنة، إلا أنه لم يتشكل قط أي حالة عنفية أو تشريعية في هذا المجال. المساكنة هي حالة تمرد ضد أخلاق المجتمع السوري، إلا أن المؤسسات التي تتعرض للتمرد صامتة على مستوى الفعل، وكذلك فالمتمردون صامتون على مستوى التغيير لجعل المساكنة مقوننة، المجتمع يقول للمساكن: "اعبر لكن بصمت".

* طالب في كلية الإعلام بجامعة دمشق، وطالب في المعهد العالي للفنون المسرحية (قسم الدراسات المسرحية). عمل كصحفي مستقل في مجلة 'الحياة الجديدة' الصادرة في لبنان و سوريا وفي صحيفة 'البلد' اللبنانية، وكمقدم للبرامج في التلفزيون السوري عام 2010، إضافة إلى إخراج عرضين مسرحيين في دمشق.

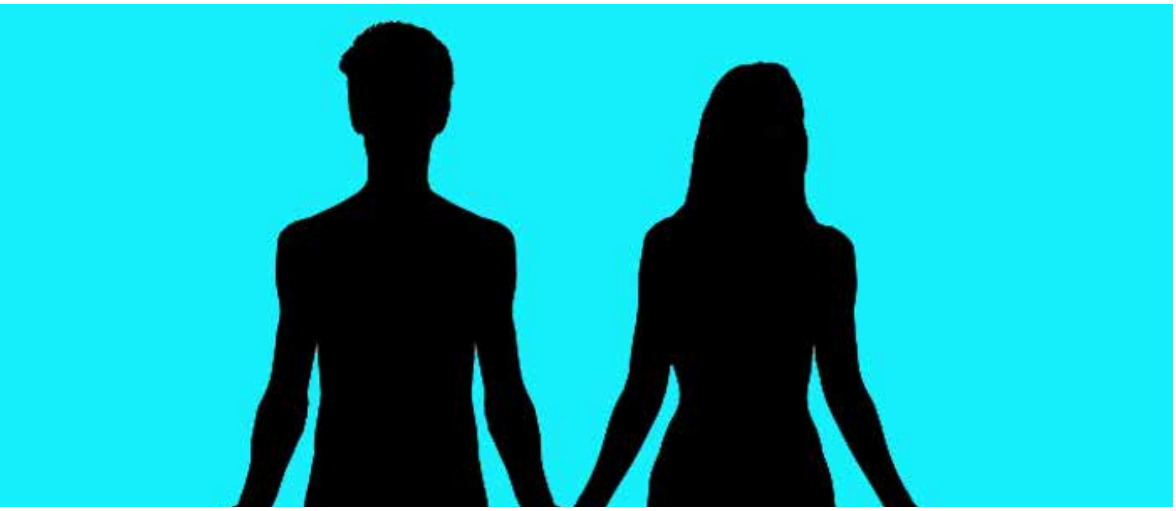

”علاقتي مع جسدي تغيرت، زالت قداسته، حالة الأنثى الشرقية ذات الأسرار دُمرت لدي، الترهلات عند معدتي تصعد وضوحها على حساب إبهار نهدي، الفتاة السورية لها علاقة مع جسدها حميمية بل وسرية، هذه السرية لا يمكن كشفها إلا من خلال الآخر الذكر، المساكنة لا تكشف هذه السرية بل تزيل السر وتغيبه، وتصبح علاقة الأنثى مع جسدها أقرب إلى علاقة الذكر مع جسده، المساكنة في بلادنا لا تحرر الأنثى بل تجعلها ذكراً، إلا أن المشكلة ليست بالمساكنة كفعل أخلاقي، بل في وجود هذا الفعل في مجتمعنا، التمرد لا يمكن أن يشوبه الخوف“. هكذا تحدثت نينا، وأضافت أنها لم تقرر أن تساكن بسبب الشريك، أو بمعنى حالة الاختبار لعلاقة زوجية، بل ساكنت لأجل المعرفة الجديدة، ”ربما سأعيش التجربة مرة أخرى، لكن ليس في هذا البلد الحزين“، اختتمت نينا حديثها.

مجد يرى أن المساكنة لا تحتاج لسؤال، العلة ليست فيها بل بالعقلية التي تنتج سبب مساءلتها. المساكنة هي نمط من العلاقات قد يكون منتج أو لا، والمساكنة كعلاقة هي حقيقة لا تحتاج إلى نقاش، وبالتالي فالأشخاص الذين تربطهم علاقة مساكنة هم الحقيقة وليس ماهية هذه العلاقة كتجرد، ويضيف مجد أن المساكنة لا يمكن أن تنتج عن حاجة شعور بالاستقلالية أو حالة بديلة للعلاقة الزوجية، إلا أنه إذا أردنا للمساكنة أن تنجح بين المساكنين علينا التأكيد على أهمية الطرفين بالإصرار على حرية الآخر وهويته، ربما هناك قانون واحد يلتزم به الطرفان هو إنهاء حالة تعدد شركاء الجنس، وربما هذا يأتي طبيعياً نتيجة الحالة المعيشية بين الطرفين التي تقتضيها المساكنة. حيث أن المساكنة تعريك من حسابات الوحدة كطرف مسؤول، فالفردية سبيل لتقصي الهوية لكن نحتاج الحياة المشتركة كذلك لاستكمال هذه الهوية، فأنت تحتاج الآخر ليضيء على تفاصيل نفسك وحياتك، أما فيما يختص بشرعنة المساكنة يرى مجد أن مصدرها ليس السلطة الاجتماعية بالتأكيد ”بالعموم لا أعتقد أنني سأتزوج أي أنثى إن لم أساكنها، ولا أتوقع أنني سأسبب الأذى اجتماعياً لأي فتاة، حيث أنني لن أحب فتاة تقيم للتصنيف الاجتماعي وزناً“، يقول مجد.

المساكنة السورية، مصطلح مشتق عن المساكنة أم عن سوريا؟ هل تتغير المساكنة بتغير البيئة؟

يقول عمار (أحد المساكنين السوريين في بيروت) إنه لا يمكن ربط المسألة ببلد ما، حيث أن الظاهرة منتشرة عالمياً، لكن ارتباطها ببيئة ما يكسبها خصائص تميزها بذاتها، وربما تجليات تأثيرات البيئة يمكن حصر أغلبها في حالة العلنية. فالمساكنة في سوريا منتشرة، لكن الحديث عنها جهراً يجعلها موضوعاً مثيراً للاهتمام، كما أن الحالة في بيروت مثلاً أكثر تحجيماً من سوريا على صعيد الانتشار، إلا أن مساءلتها أقل مما هو عليه في سوريا، وربما هذا جعل السوريين في بيروت يعايشون التجربة كما اللبنانيين من غير محاكمة عقلية، وربما أخذت المساكنة عند السوريين في بيروت معنى أوضح بسبب طبيعة المحتوى الذي خرجوا منه، ووجود فرصة تعبير عن النفس جسدياً وفكرياً أكثر في الأرض الجديدة. "أنا لم أعرف لمَ ساكنت، لم يكن مهماً وجود فتاة في المنزل، لكن التجربة بحد ذاتها مثيرة حيث بإمكانك أن تقترب من تفاصيل الجنس الآخر التي كنت مغيباً عنها، وربما كنت مغيباً لأنني كنت في سوريا، الخوف كان حاضراً، وهذه التفاصيل هي بعيدة عن العلاقة الجنسية أو العاطفية"، يختتم عمار حديثه.

إذا عالجنا المساكنة قانونياً، نرى أنه لا يوجد أي مادة قانونية تحرمها، وإذا تناولنا مادة الزنى كحالة تقريبية، نرى أن النص القانوني يعاقب المرأة الزانية العزباء، لكن لا يعاقب الرجل الأعزب، رغم أن القانون ينص على الحرية الشخصية. كما أن فعل الزنى يجب ضبطه بحالة التلبس، لكن يمكن معاقبة المرأة فقط دون تلبس إذا ساكنت ذكراً بتهمة مخالفة الآداب العامة، لكن ذلك يحتاج لشكوى، وعقوبتها لا تتجاوز الشهر، وهذا الكلام على لسان الخبيرة القانونية رهادا عبدوش.

وبافتراض أن المساكنة هي حاجة راهنة سواء بسبب الحالة الإقتصادية أو حالة التطور الاجتماعي أو غير ذلك، يبدو الزواج العرفي صيغة بديلة مقبولة على صعيد تغييب حالة التمرد في المساكنة، أو هرباً من قلق المتاهات القانونية، لكن باسل يرى أن الزواج العرفي هو صيغة للتوافق بين شخصين بعيداً عن حالة الرقابة أو المنع التي يمارسها المجتمع أو القانون، إلا أن الزواج العرفي ليس بتمرد، فهو لا يثبت أي قيمة على هذا الصعيد، وهو يرى أن المساكنة كفعل هو تمرد ضد أنظمة المجتمع قبل كل شيء.

"أردت أن أغسل جوارب ذكري، أن أمتلك ذكراً يعني أن أمتلك تفاصيل حياته" تقول رزان أن هذا ما دفعها في البداية لكي تساكن. النتيجة كانت مختلفة حسب وصفها، حيث أنها لم تدرك خطورة معرفة كل شيء عن الآخر الشريك، فهي لم تتمكن من تقبل الرائحة السيئة من الأفواه عند الصباح، كذلك لم تستطع تسوّغ رائحة الجوارب. التفاصيل كانت قاتلة، ربما صامتة لم تفصح عنها بينها وبين نفسها، إلا أنها أفزعتها من التجربة، كذلك الملل كان شيئاً ينمو باضطراد "الملل من الآخر سببه معرفة كل شيء، لم يعد بإمكاني تخيل الصورة الرومانسية لذكري وهو يحلق ذقنه، بات كل شيء مبتذلاً"، تنهي رزان حديثها.

في الآونة الأخيرة، ازدادت حالات المساكنة في سوريا "الحرب تغير موقفنا من الموت" يقول فرويد، وهذا الموقف يستدعي فعل كل شيء للأقصى. ليس لنا سوى حظنا في حساب الموت، لذا علينا أن نعلن آخر أمنياتنا، الجنس وسيلة لمواجهة الموت، الجنس هو خلق، عبره بإمكاننا منح الحياة للآخر، وعبره نواجه الموت. إن الحرب تحررنا من أوهام السلم، ومن الإيمان بالإنسان الحضاري المتقدم. الحرب هي على رأس القوى التي يمكن أن تفسد التكيف الحضاري، حيث أنها أرض خصبة لانفجار الكبت الاجتماعي للغرائز البشرية العدوانية. وفي زمن الحرب تتهدم الأسس الحضارية والإنسانية، بحيث يصبح كل شيء من القتل وإلغاء الآخر إلى أشنع الأمور مباحاً، ودون أي اعتراض من الأفراد الخاضعين للحرب. وبالتالي يصبح

الحديث عن الرقيب الاجتماعي أو الديني مغيباً، فالقتل موجود فما الذي سيكون أفظع؟ ومن هنا يصبح التمرد ضد أخلاقيات المجتمع حالة طبيعية، في ظل فشل أخلاقيات وأسس هذا المجتمع، الذي تجلّى فشل بنيانه من خلال إنتاجه للحرب.

المساكنة هي إقامة شخصين مختلفي الجنس في مكان واحد دون رابط عائلي بينهما، وهذا المفهوم لا يستدعي الحالة الجنسية بالضرورة، لكن الفهم العام للمساكنة يتجاوز فكرة الإقامة، ليتناول الجانب الجنسي في الحالة في شكل كبير، وتصبح المساكنة في المقام الأول عبارة عن علاقة غير شرعية. وضمن الحديث عن انتشار المساكنة في ظل الحرب، يمكن الحديث عن دور الجانب الجنسي في ذلك، حيث يقول أدونيس "ليس ثمة لذة دونما فاجع، وفي الفعل الجنسي تنبعث رائحة الموت، لأن الفعل الجنسي ليس ماضي بل هو مستقبل، والمستقبل دائما محمّل بالموت"، حيث أننا لا نهرب من الموت إلا من خلال الفعل الجنسي، لأن الجنس هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا قادرين على الخلق. ومن هنا تنبعث قدرتنا و عجزنا من فعل واحد هو الجنس؛ فالجنس باعتباره ولادة و خلق هو مستقبل، والمستقبل يحمل الموت والخلق في آن. نحن لا نستطيع البقاء، لكن بإمكاننا أن نتحول لأشخاص آخرين بأن نهبهم الحياة، وهذا يكون بسبيل واحد هو الجنس. كذلك فإن الحب هو أساس السعادة، ونحن في الحرب نبحث عن السعادة، ولا نمتلكها إلا بالحب الذي لا يمكن تحليله بوصفه حالة روحانية محضة، بل هو التقاء الروحي و الجسدي.

انتشار المساكنة لا يمكن إبعاده عن الأوضاع الاقتصادية المتردية، فالأفراد المساكنين هم من فئة الشباب في الغالب. هذه الفئة ازدادت نسبة البطالة فيها خلال الحرب، وتفاقمت أزمتها الاقتصادية، وأصبح الزواج وتأسيس أسرة، وما ينتج من ذلك من مشاعر الاستقرار والأمان، أصبح أصعب بسبب العوائق الاقتصادية التي يقتضيها الزواج. من هنا يمكن اللجوء إلى المساكنة التي لا تفرض أعباء اقتصادية أو مسؤوليات مادية كما الزواج، وتوفر مناخ من الاستقرار شبه العائلي، الذي يعوض جزئياً عن الزواج.

كذلك فإنه في ظل بلد يرضخ للسطوة الطائفية في مجال الأحوال الشخصية، سواء على صعيد العرف أو القانون، تصبح المساكنة منفذاً مناسباً. حيث أن البعض، وبخاصة الإناث ممن لا يستطيعون مواجهة عواقب الغضب الأسري جراء الزواج بشخص من غير طائفة، يرون المساكنة حلاً لتحقيق رغباتهم ولو على صعيد موقت. وأحيانا لا يكون العرف الاجتماعي فقط هو العائق، فالقانون كذلك يشكل عائقاً للزواج كما في الحالة المسيحية/الإسلامية.

المساكنة ربما لا تحمل ماهية محددة بذاتها منفصلة عن المساكنين وعن البيئة، حيث أن المساكنة تحمل تعريفاً جديداً في كل مرة، تبعاً لطرفي المساكنة المنتجين لها. ولا يمكن كذلك حصر دوافع المساكنة، فهي متنوعة بقدر المساكنين، إلا أن انتشارها في ظل الحرب ربما يمنحها بُعداً لم تكن تحمله من قبل. ويمكن القول أن البيئة السورية وظروفها أعطت المساكنة هوية خاصة لها خصائصها المميزة، وربما ستختلف المساكنة في شكل كبير إن كانت سوريا بغير حرب.

عمار المأمون*

عبد الله قاسم**

لبنان:
لاجئون في الخِيَم، لاجئون في القصور

الخلاصة:

يتناول هذا الريبورتاج ظاهرة انتشرت في بيروت وهي اجتذاب رجال كبار في العمر لشبّان وشابات صغار للعيش معهم بصورة مشتركة، ومشاركتهم بعلاقات جنسية أو غيرها، في سبيل المال والمأوى. المادة تعرض أربع حالات، كما تناقش الظاهرة من أربع جوانب؛ نفسية واجتماعية قانونية ودينية. الموضوع محرم بموجب الدين شرعاً، ويتجاوز الأعراف في بعض المجتمعات، إلا أن خصوصيته تكمن في الجوانب النفسية والاجتماعية التي يحملها. ورغم تقبل بعض الفئات الاجتماعية لهذه الظاهرة إلا أن خصوصية الوضع السوري في لبنان ووضع اللاجئين و اللاجئات بشكل عام هي ما تثير الجدل، فالأمر مثير للريبة مهما كانت المكاسب التي ينالها من خرج من بلده وبالأخص في ظل الاختلافات العمرية الشاسعة.

* عمّار المأمون: صحفي سوري مستقل يعمل من دمشق في عدد من الصحف والمواقع العربية والدولية. مهتم بشؤون الثقافة والمجتمع. حاصل على شهادة الماجستير بالإعلام، وليسانس في النقد والدراسات المسرحية.

** عبد الله قاسم: ناشط سوري مقيم في بيروت مهتم بقضايا المجتمع المدني والإغاثة. يدرس الإعلام بجامعة دمشق، ثم في الجامعة اللبنانية، ويعمل بالتعاون مع عدد من المنظمات غير الحكومية المهتمة بالشأن السوري.

نعم، أصبحت بعض الفتيات يحلمنّ باللّجوء. الصيغة التقليدية لـ 'لاجئات مو سبايا' تحمل معانٍ جديدة مشابهة لتلك التي نراها في الأفلام. فالشكل الجميل بالإضافة إلى المناوبة الليلية في أحد البارات يتيح الفرصة لإحداهن بأن تجد لنفسها 'Sugar Daddy'، يتكفل بسكنها و إطعامها و مصروفها الشخصي، حيث تتحول إلى إكسسوار فاخر في مطاعم بيروت الباهظة، وأحياناً إلى دمية جنسية شابة متوافرة عند الطلب.

عيناها جميلتان، وصوتها خلّاب، مريم (21عاماً) خرجت من سوريا بسبب خلافات عائلية إثر سلوك أبيها الماجن الذي أدى إلى تفكك العائلة، وترك الأب -ذو المنصب الحساس- الأسرة وحيدة كي تتدبر أمورها بنفسها. حال وصولها إلى بيروت أقامت عند بعض أصدقائها، ثم تمكنت من إيجاد عمل، في أحد بارات الجميزة، مستفيدة من جمالها وقدرتها على الغناء، لم يمضي أسبوع على بداية عملها حتى التقت جوني (44 عاماً) الذي أعجب بها، وأصبح يتردد إلى البار ليستمع إلى قصة رحيلها التي أثارت تعاطفه. على إثرها طلب منها الانتقال إلى منزله 'شديد الفخامة' للعيش معه. تقول مريم: "لم يقترب مني طوال فترة إقامتي وقال لي إني لا أنتمي لهذا المكان –البار- وإني كأخته". في البداية وعدها جوني بأن يؤمن لها عملاً ومأوى لائقين، ثم أصبح الموضوع أكثر جدية حيث دعاها للإقامة الدائمة في منزله، "صارحني بحبه، وقال لي إنه يريد الزواج مني لأني أَسَرْتُهُ وإنه لن يمسني أبداً بدون زواج -either everything or nothing". معظم التعابير التي يستخدمها جوني باللغة الإنكليزية بسبب إقامته الطويلة خارجاً وتنقله في معظم أنحاء العالم. منزله مليء بالتحف الأجنبية والمقتنيات الثمينة المنتقاة بدقة. على طاولة القهوة كتاب the Playboy Book إلى جانب لوحات 'راقصات الكاوبوكي' المستوردة من اليابان. لاتدرك مريم قيمة معظم التحف والمقتنيات، بل تتصرف وكأنها معتادة على مشاهدة قنوات ShowTime في منزلها السابق في سوريا في أحد ضواحي دمشق النائية شديدة الحراسة.

مريم مسؤولة عن نفقات عائلتها في سوريا، ومع ذلك تعيش حياة مرفهة في بيروت بعد أن استأجر

لها جوني سيارة لتسهيل تنقلاتها -تنقلاتها المقتصرة على الاحتفال مع الأصدقاء على حساب جوني- تقول أيضاً: "لا أريد الزواج منه، عمره كبير و مازلت شابة، لكني مضطرة أن أجاريه لأني لن أعود إلى الشارع". بعد أسبوعين سوريالليين عاشتهما مريم بين المطاعم الفاخرة والسهرات الراقية قررت الرحيل نهاية، لأن جوني "طلب يدي عبر رسالة قصيرة على Whats App، شو هاد... ما عم صدق، وصلنا لهون، متل المراهقين". غادرت مريم 'قصر' جوني وعادت للعمل في البار لمناوبتين، والغناء مرة واحدة في الأسبوع في أحد مطاعم الـkaraoke لتتمكن من دفع أجار غرفتها التي تسكنها مع ثلاثة آخرين، وتحويل مبلغ صغير إلى أهلها في سوريا يقارب الـ 200$، على حد قولها "حافظت على نفسي، ولم أسمح له بلمسي، ولن أسمح لأحد بالاقتراب مني".

لا يقتصر الأمر على السوريات فقط بل امتد ليشمل فتيات بلدان المجاورة فـ عُلا (20 عاماً) خرجت مع أهلها من العراق أيام الغزو الأمريكي عام 2003 إلى سوريا، ثم هربت إلى بيروت وحيدة منذ سنتين -كان عمرها 18 عاماً عندما هربت- بعد أن حصلت على نقود ورثتها عن أهلها على حد زعمها. أغرم بها أحمد (63 عاماً تقريباً)، عراقي الجنسية أيضاً. الأخير دائم السفر، لكنه يزور لبنان متقطعاً، ليقيم في منزل عُلا في إحدى ضواحي بيروت. تقول عُلا "استأجرنا المنزل سوية لكنه دائم الغياب، أنا مشتاقة إليه دائماً، لكن عندما يأتي إلى هنا يقيم عندي، سنتزوج قريباً وسيأخذني إلى فرنسا ثم أمريكا، حيث يؤسس لنا منزلاً هناك". الغريب أن عُلا تتحول بين الليل والنهار، نهاراً هي ربة منزل من الطراز الرفيع، تستيقظ باكراً لتنظف المنزل وتطبخ، ومساء تتحول إلى فتاة عشرينية تحب السهر وارتياد الحفلات واستقبال الغرباء في منزلها الواسع متعدد الغرف والأسرّة بصورة غريبة! شكل أحمد وعُلا في الأماكن العامة أقرب إلى نسخة جديدة من رواية 'لوليتا'، أعين المارّة ورواد المقاهي تحدّق بالعجوز ومعشوقته وهو يقبل يديها ويلاطفها، في أشهر غيابه تقضي معظم وقتها تحادثه عبر Skype أو Viber، يأتيها الرد فوراً وأحياناً يستغرق عدة أيام. ما يثير الدهشة هو علنية هذا السلوك، والميل إلى إظهاره والتفاخر به، وترديد عبارة "الحب لا يعرف عمراً" لتتلوها ضحكات، والقبل السريعة التي يفصل بين صاحبيها جيلان أو ثلاثة على الأقل.

لا يقتصر الأمر على الفتيات، فـ أيهم (23 عاماً) خرج من سوريا هرباً من الخدمة العسكرية الإلزامية، وتوجه إلى بيروت متبعاً ذات السيناريو المتعلق بالبارات والشكل الجميل. المختلف أن هوية أيهم الجنسية لم تكن واضحة في سوريا -إثر طبيعة عائلته الملتزمة دينياً- لكن حين وصوله إلى بيروت تصارح مع جسده و'خرج من الخزانة' حيث أصبحت ميوله أوضح، فعمل في بار يرتاده المثليون وشارك في بعض الحفلات كراقص مساعد. حينها جذب أنظار جاد (48 عاماً) ليتحولا إلى ثنائي يجول شواطئ بيروت ومطاعمها، متأنقين أقرب لعارضي أزياء. الدخل العالي الذي أصبح أيهم يكسبه -عمله في عرض الأزياء والبار الفخم- مكّنه من إخراج عائلته من سوريا لزيارته في بيروت ثم استقرارهم في بلد عربي شقيق.

نوع من الرومانسية يحكم العلاقات السابقة، التي لا تهدف إلى الجنس فقط لكنها، تحوي شيئاً من المتعة السرية والاعتماد على سحر المصادفة. فالجنس ليس مقابل النقود بل أقرب إلى الانتشال من الفقر والتشرد، وأحياناً قصة حب حقيقية. فهي غير منظمة أو خاضعة لعلاقة "جنس مقابل نقود فقط" بل هي أقرب إلى escorting serves في شكل أكثر حميمية.

أسطورة الثوري السوري

هناك صيغة أخرى تحكم هذا النوع من العلاقات؛ ترتبط باللاجئيين السوريين و"أسطورتهم" هناك.. بعض الأجنبيات من جنسيات مختلفة تجذبهم حالة المشرد أشعث الشعر. كما حدث مع أبو وطن (25 عاماً) الذي يرفض التصريح عن اسمه الحقيقي، يقضي وقته "سائحاً" في شوارع بيروت ومقاهيها، بين أصدقائه الكثر.. متحدثاً عن السياسة والأدب والفن ويقضي لياليه ضيفاً بين منازلهم إلى أن التقى بشاعرة إسبانية تدعى إليانا (41عاماً)، شدها شعره الأشعث و صوته الرخيم و معاناته للوصول إلى بيروت، فقد عبر الحدود بصورة غير قانونية وقضى ليلته الأولى في أحد المساجد في شارع الحمراء إلى أن تمكن من التواصل مع أصدقائه.. الغريب أن إليانا تسمح لـ"أبو وطن" بالمبيت عندها في الفندق الفخم حيث تسكن لكنها لم تحاول تغيير شكله أو تحويله إلى زينة للمفاخرة فقد حافظت على أيقونة "أبو وطن" الذي يحيا "بوهيمياً"، يقول أنها أحبته لأنه الحقيقة، لأنها تريد أن تكتب قصيدة لا تنتهي.. الهالة السحرية المحيطة به أتاحت له أن يدفع ثمن الكحول التي يشتريها، ويرد بعضا من ديونه المتراكمة. وفجأة أصبح يمتلك "I-pad" التي يتناقض وجودها في يده مع ملابسه الرثة، و غياب الحزام الجلدي في سرواله, يقول أبو وطن: "هذه ليست تجربتي الأولى من هذا النوع، فقريباً أنتظر سيدة متزوجة من الخليج ستأتي هنا لنقيم سوية في شقة فاخرة لمدة شهر، ثم سأحتفظ بالشقة لخمسة أشهر إضافية على حسابها".

الجانب الاجتماعي- جنس عابر:

ما يثير الجدل في هذا الموضوع، هو مخالفته لبعض الأعراف برأي الكثيرين، لكن أي أعراف منها؟ يقول مصدر مختص بعلم الاجتماع: "هذه الظاهرة ليست بالقديمة، وهي ملحوظة في عديد من البلدان المتشددة دينياً لكن بصيغة أخرى، تحمل صفة الزواج، بالرغم من أن الدين يشرّع الزواج بغض النظر عن الاختلاف بالأعمار بين الزوجين، ولا يرى فيه مشكلة، فهذه الظاهرة قد تكون مقبولة في المجتمعات التقليدية، فهي مألوفة في دول الخليج، إلا أنّ ما لا يمكن تقبّله في هذا الموضوع هو حقيقة استغلال اللاجئات و أعمارهن الصغيرة، حتى لو كُنّ موافقات، فهناك صيغ أكثر ملائمة – إن كان أحدهم يريد المساعدة فعلاً- لا تحول هؤلاء الفتيات إلى إكسسوارات أو أساليب للتزين أمام الناس، لا أرى أن الظاهرة غريبة عن مجتمعاتنا، لكن يجب ألّا تلقى القبول الاجتماعي المتعلق بحالة اللاجئات، فالموضوع إنساني، و هو استغلال بشكل أو آخر، بالأخص للفتيات في عمر المراهقة المتأخرة. قد يرى البعض أن الموضوع يحوي جانب من (الخُبث) لدى الفتيات، إلا أن ذلك لا يبرر أن يتورط (الراشدون) - نظرياً- في هكذا تصرفات، هناك ضرر متبادل، واللوم يقع دائماً على الكبير، حتى في حال وجود حب حقيقي لا أظن أن الأمر سيستمر، هو مجرد جنس عابر أو وسيلة للتباهي أمام الناس. الحالة الأولى هربت من المنزل وبالرغم من نمط الحياة الجديد والمختلف الذي توفر لها، إلّا أن الخطوة التي قامت بها يمكن اعتبارها صحيّة- ترك الرجل حين طلب يدها-، في حين أن الحالة الثانية هي حالة مرضيّة يجب أن تعالج وأن يوضع لها حد. المشكلة لا تكمن في تأمين المأوى أو مستوى لائق من العيش، القضية تتعلق بفئة اجتماعية معينة ستتعرض لمواقف قد تحرف سلوكها في المستقبل و تؤثر على وجودها".

أما الأكاديمي المختص في الجانب النفسي فيقول: "بعيداً عن فكرة اللجوء أو عدم توافر مأوى، حالة

الارتباط/ الحب بين المختلفين بالعمر ذات تاريخ طويل في علم النفس و الأدب فعقدة (لوليتا) التي ألّف عنها الروائي الروسي "فلاديمير نوبوكف" رواية بنفس العنوان، تتحدث عن هذه العلاقة، عن تخيل صورة الأب و الوقوع في حبها وحتى ممارسة الجنس معها، فالأمر مرتبط بالتربية و التنشئة و توتر العلاقة مع الأب أو غيابه و هذا ماحدث مع الحالة الأولى والثانية، الأمر مرتبط بعلاقة الفتاة مع الذكر، لكن ما يجعل الأمر أكثر تأثيراً هو حالة اللجوء، فالذكر هنا يمثل صورة الأب وما تحمله من أمان، كما أنه مباح جنسياً، مما قد يعمق الارتباط كما في الحالة الثانية، بحيث يتحول إلى حالة غير صحيّة، في حين أن الحالة الأولى، تتمثل بمحاولة خداع تريد أن تمارسها الفتاة للوصول إلى مأربها، فالعلاقة الجسدية – سواء كانت موجودة أم لا – و التواجد الفيزيائي في ذات المكان كان هدفه الاستغلال، الفتاة تظن أنها تستغلّ الرجل الأكبر بالعمر في سبيل المال والمأوى، وهذا السلوك سيستمر لفترة طويلة مع عدة محاولات مع رجال آخرين، هذا ما أظنه. الحالة الثالثة، وتتمثل بالشاب "المثلي" فهي أقرب لحلم يتحقق. فالشاب خرج من سوريا وهو يعاني من القمع الجنسي والمادي –و بالأخص خلال ما تمر به سوريا- و وجد متنفس له في بيروت. فالعلاقة بالنسبة له تتجاوز الجسد لتصل إلى التأسيس لحياة جديدة وسلوك جديد، هي اكتشاف لذاته، و لا أظن أنه قد يعود لسوريا تحت أي ظرف، فالتناقض الذي عاشه في ظل وجوده في سوريا، يجب ألّا يتكرر".

الجانب القانوني - "لا يوجد نص قانوني واضح":

الحالة معقدة، في حين أن الدين يشرع الزواج لكنه يحرم المساكنة، لكن قانونياً قد يتشابه الأمر بالدعارة، لكن كلا الشخصين راضيان عما يفعلان و كلهما لا يعتبر قاصراً وفق القانون، كذلك حالات المساكنة المقبولة اجتماعياً –نوعا ما- و بالأخص في ظل ازدحام بيروت باللاجئين وطبيعة المجتمع، القانون قد يتناول الموضوع كدعارة أوتسهيل للدعارة لكن لن يكون الأمر واضحا لأن لا دلائل على الفعل "الداعر" وهو يتم بالتراضي، أما تحريض القواصر على الدعارة فهذا النص لا يمكن الاعتماد عليه لأن الفتيات لسن قاصرات، الموضوع شائك قانونياً، إذ من الصعب إدانة شخصين يحققان الشروط القانونية بجرم يخالف العرف الاجتماعي بصورة ما ولا يجرمه القانون، و بالرغم من الحركات النسوية المطالبة بإنصاف المرأة وحمياتها إلا أن الموضوع لم يتناول بعد، بصورة منطقية. المرأة هنا هي التي تكسب، على الصعيد المادي فقط. الآثار الأخرى لا يجرمها القانون.

في تصريحه لموقع "نسوية كافية" يتحدّث المحامي اللبناني أنطوان سبع: "لا يوجد في القانون اللبناني المدني أو الجزائي أو في قوانين الأحوال الشخصية اللبنانية، أي نظام أو تشريع يتعلق بموضوع المساكنة". لماذا؟ يجيب: "ربما تعود أسباب إغفال هذا النمط من الحياة المشتركة بين شخصين، إلى سيطرة المرجعية الطائفية على نظام الأحوال الشخصية في لبنان، وعلى الجوّ الاجتماعي العام في البلاد، الذي لا يزال ينظر إلى مثل هذا النمط، بالرغم من الانفتاح الملحوظ، الذي نشهده، في طبيعة العلاقات الثنائية بين الرجل والمرأة، كمسألة شاذة عن المألوف، وغير مقبولة دينياً واجتماعياً. وبالتالي فإن القوانين اللبنانية لم تتطرق إلى موضوع المساكنة بصورة مباشرة أو غير مباشرة". ويضيف: "لا يوجد في قانون العقوبات اللبناني أي نص يجرّم المساكنة بين غير متزوجين، وإنما هناك نصوص تعاقب العلاقة الزنائية،

فإذا كانت حال المساكنة زنائية أو تشتمل على أفعال يعاقب عليها القانون، فإن الملاحقة تنحصر بهذه الأفعال وليس بفعل المساكنة في ذاته". نلاحظ في كلتا الحالتين أن القانون لم يتناول الفروقات العمرية أو الحالة المطروحة حالياً.

الجانب الديني: حرام شرعاً دون عقد زواج:

الدين يرفض الموضوع و يحرمه، لكن البعض يرى الأمر قريباً من المساكنة، فأي خلوة بين شخصين غير محكومة بعقد شرعي تعتبر حراماً، فالدين يتناول التواجد المادي للشخصين ضمن المكان، لا فرق العمر بينهما، فلطالما كلا الطرفين قادران على الباءة "الزواج" مهما كانت اعمارهما، فعليهما الزواج، أما غياب العقد الشرعي فيجعل الأمر محرماً، بالتالي الدين لا يرى في الموضوع مشكلة إن كان هناك عقد شرعي، ففرق السن مهما بلغ لا يشكل عائقاً و هناك أمثلة كثيرة من التاريخ الإسلامي الحديث و المعاصر التي لا ترى في الموضوع مشكلة، النص الديني يقنن التواجد/ الحضور، ولا يتناول الآثار الاجتماعية أو النفسية التي من الممكن أن تجتلبها هكذا حالة.

الدين يتناول موضوع عقد الزواج لا الاختلاف بين الأعمار أو من يقوم بالنفقة، و بالطبع يتناول الحيثيات التي تتعلق بولي الأمر و الإشهار لكن يمكن تجاوزها في حال تراضي الطرفين. إلا أن هناك رأي آخر يقدمه الأكاديمي السوري محمد شحرور وهو: الإفتاء بإباحة تواجد الشخصين في نفس المنزل دون عقد زواج "مساكنة" ما دام الموضوع يتم بالتراضي واعتبر الجنس بينهما تحت خانة "ملك اليمين"، مثير للجدل. الرأي الذي قدمه الباحث شحرور حسب تصريحاته لـ"العربيةنت". إلا أنه لم يتناول موضوع العمر، وهو الأكثر خصوصية في هذه الحالات. فالدين الإسلامي لا يحدد الفروق العمرية بل يحدد الأعمار الملائمة لزواج كل من الذكر و الأنثى.و ينسحب الأمر على الديانة المسيحية.

الموضوع محرم بموجب الدين شرعاً، ويتجاوز الأعراف في بعض المجتمعات، إلا أن خصوصيته تكمن في الجوانب النفسية والاجتماعية التي يحملها. ورغم تقبل بعض الفئات الاجتماعية لهذه الظاهرة إلا أن خصوصية الوضع السوري في لبنان ووضع اللاجئين و اللاجئات بشكل عام هي ما تثير الجدل، فالأمر مثير للريبة مهما كانت المكاسب التي ينالها من خرج من بلده وبالأخص في ظل الاختلافات العمرية الشاسعة.

"كل الشخوص رفضت ذكر أسمائها الحقيقية لكن الأعمار حقيقة"

قصي عمامة*

الاختطاف، ظلّ الاعتقال أم أثره؟

الخلاصة:

لا أرقام دقيقة لعدد المغيبين قسرياً في سوريا، وهنا لا نتحدث فقط عن معتقلين لدى السلطات الحاكمة في دمشق، بل جلّ الحديث عن مختطفين قامت عصابات تتبع لطرفي النزاع الرئيسين في البلاد بتغييبهم؛ إما لأسباب سياسية أو ثأرية أو حتى مادية. ومع أن الكثيرين يربطون بين الاعتقال والاختطاف إلى أن الأحداث على الأرض سرعان ما فكت هذا الارتباط، سواء بسبب الفجوة الأمنية التي أدّت إلى نمو هذه الجريمة كفعل جنائي بحت مستقل عن الحدث السياسي والأمني، أو بسبب الصراع المسلّح الذي تخوضه كتائب وجماعات مسلحة فيما بينها.

* صحفي سوري تخرج من كلية الفنون الجميلة، وشارك في 4 ملتقيات نحت بسوريا وعدة معارض. ثم انتقل إلى العمل الإعلامي حيث أثبت تميزاً على مستوى البرامج الحوارية. يعمل في المجال الإذاعي منذ عام 2007، إضافة إلى عمله في الفريق الصحفي لمجلة دلتا نون.

حمص، المدينة السورية الواقعة في منتصف البلاد، دخلت خط ما تحول اليوم إلى حرب، في شكل مبكر جداً، وتكاد تكون المدنية هي من ابتكرت الاختطاف في سوريا. فمع تصاعد حدة التظاهرات مع بداية الحراك الشعبي في المدينة، و توارد الأنباء عن حالات اعتقال عشوائي نفذتها السلطات آنذك، كانت الأنباء تشير أيضاً إلى وقوع حالات اختطاف نُفِّذَتْ من قِبَلِ مدنين. فبعد أن قسّم الحدث السياسي والأمني المدينة إلى قسمين، موالٍ ومعارض، سجّل القسم المعارض عدة حالات اختطاف بحق مدنيين من الأحياء الموالية للسلطات كي يقايض بها معتقلين لدى السلطة في أكثر التقديرات تفاؤلاً، سرعان ما رد الشطر الموالي بخطف مدنيين لذات الغرض؛ المقايضة. العملية باتت منظمة أكثر مع الوقت، ورغم الحذر الذي خُلق بين أبناء المدينة، وقيام المتاريس وتغيير خطوط النقل والأسواق، إلا أن الاختطاف ظل يسجل حتى وقت متأخر من الصراع في المدينة.

شهادة حيّة

حيدر رزوق صحفي يغطي الحرب السورية من حمص، تصل لمكتبه في حي عكرمة آلاف من الملفات والشهادات حول مختطفين بعضهم اختفى منذ أكثر من عاميين. يقول رزوق: "بدأت عمليات الاختطاف في مدينة حمص بعد بداية الأحداث في البلاد بحوالي الثلاثة أشهر، ولكنها لم تكن لتظهر بشكل واضح كونها كانت غريبة على المجتمع في مدينة حمص، وثانياً كونها كانت متفرقة وقليلة إلى أن ارتفعت وتيرة الخطف مع بداية العام 2012، وكانت أكثر نسبة للخطف في الأشهر 2 و 3 من العام 2012 وتحديداً في منطقة القرابيص التي شهدت أعلاها. أما بالنسبة لأعداد المخطوفين في مدينة حمص فلا يوجد عدد دقيق، ولكن بحسب التقديرات وبعض الإحصائيات فقد تجاوز العدد 2700 مخطوف من مختلف مناطق حمص".

قضت الصفقة الأخيرة في حمص القديمة على آمال الآلاف بالعثور على مختطفيهم، فلم تجد القوات الحكومية أية معتقلات خاصة، كما لم يظهر أي أثر لأحد منهم. سابقاً نجح الخاطفون في تحقيق

صفقات، لكن التحفّظ الرسمي منع أي معلومات عن أرقام أو معلومات. يتابع رزوق: "لا يوجد عدد دقيق لمن حرروا بموجب صفقات، نظراً لأن بعض الذين تم تحريرهم كان عبر وسائط رسمية والبعض الآخر تم تحريره بالتبادل وظل قيد الكتمان".

خط التماس الذي يفصل حي دير بعلبة وحي البياضة حيث حدثت مئات حالات الاختطاف

السبب الأول للاختطاف بحسب الترتيب الزمني للممارسة في حمص كان رداً على عمليات الاعتقال، لكن سرعان ما تغير هذا، يقول رزوق: "نعم هناك ارتباط بين عمليات الاعتقال وعملية الخطف، ولكن ليس بنسبة كبيرة، ففي بعض الحالات التي سجلت قام مجهولون باختطاف بعض المواطنين للمطالبة بالإفراج عن معتقلين، وذلك عبر التواصل مع ذوي المخطوف والضغط عليهم لإجبارهم على التواصل مع الجهات الأمنية للإفراج عن معتقلين ولكن لم تسجل أي حالة نجحت فيها عملية التفاوض".

الخطف المضاد في حمص:

بدأت عملية الخطف المضاد عند ارتفاع جرائم الخطف من المعارضة المسلحة في شكل ملحوظ ما دفع بعض الأشخاص سواء لتشكيل عصابات صغيرة، أو حتى من خلال أفراد، يقول رزوق، للرد على عمليات الخطف بالخطف المضاد بهدف تحرير مخطوف، أو إحداث حالة من توازن الرعب، لإجبار المعارضة المسلحة على التراجع عن تلك الأعمال، وبالتالي ازدادت عمليات الخطف المتبادل وازداد معه التحريض في المجتمع الحمصي. لاحقاً، وفي الأشهر الأخيرة شهدت حمص حالات اختطافات لنساء وجدت جثثهن بعد أيام وقد اغتصبن، وذلك في أحياء موالية، ووجهت اتهامات لجيش الدفاع الوطني بارتكاب هذه الجرائم.

الصحفي حيدر رزوق

وكصحفي متابع لملف المخطوفين يرى رزوق أن الخطف في حمص ترك أثراً سلبياً كبيراً في المجتمع الأهلي الحمصي، وأحدث شرخاً في النسيج الاجتماعي مع زيادة التحريض الطائفي. فتلك العمليات بنيت على أساس طائفي ما أثر على العلاقات الاجتماعية بين أهالي حمص، وقد وصل الأمر في بعض الحالات بأن ساهم بعض المدنيين بتسهيل عمليات اختطاف لجيرانهم بسبب انتماءات طائفية.

التعاطي الرسمي المباشر وغير المباشر:

نفق يصل بين حي الساعة وسط حمص والمنطقة القديمة وكان يستخدم لنقل المخطوفين

"أهملت الحكومة الملف في بدايته، ولم تلتفت أي جهة رسمية لحالات الاختطاف، ولم تتجه لضبط هذه الحالة ببدايتها ما تسبب بارتفاع حدة تلك الجرائم. وبعد ما يقارب العامين على بدء الأحداث وارتفاع نسبة عمليات الخطف تحركت الحكومة من خلال توثيق الحالات والتعامل معها بجدية أكثر، وقد نجحت في بعض الأحيان من تحرير بعض المخطوفين. ومع ذلك بقي هذا الملف من الملفات التي لا تحظى باهتمام كبير من الجهات الرسمية بحمص" يختم حيدر رزوق.

على الضفة الأخرى، في المناطق التي فقدت السلطة السيطرة عليها لصالح المعارضة المسلحة، أو الجماعات الإسلامية المتطرفة، ظهر الاختطاف أيضاً ولذات الأسباب تقريباً، فاختُطِفَ ناشطون وصحفيون مدنيون، وغُيِّبَ المئات لأسباب دينية أو عقائدية وطائفية أو حتى مادية.

وكما هو حال عدم وجود أرقام رسمية لمختطفين في مناطق سيطرة السلطة، لا أرقام لعدد المختطفين في أماكن سيطرة المعارضة أو التنظيمات الإسلامية. يؤكد عبد الكريم ريحاوي رئيس 'الرابطة السورية للدفاع عن حقوق الإنسان' لدلتا نون بالقول "لا يوجد رقم موثق ومؤكد لحالات الاختطاف لكن العدد المتوقع يتجاوز 1500 مختطف بحسب التقديرات التي نمتلكها، الكثير من الكتائب المسلحة مارست الاختطاف، معظمها كتائب إسلامية وبعض الكتائب التابعة للجيش الحر، ويبقى العدد الأكبر من الحالات من نصيب ميليشيات دولة العراق والشام الاسلامية (داعش) التي قامت باختطاف مئات الناشطين والإعلاميين والقادة الميدانيين لكتائب مسلحة تابعة للجيش الحر بالإضافة إلى صحفيين أجانب".

لماذا الخطف؟

تتنوع أسباب الاختطاف وفقاً لنوع الجهة التي تمارسه. يقول ريحاوي: "أسباب عمليات الاختطاف كثيرة ومتنوعة بحسب الجهة الخاطفة. فميليشات 'داعش' مارست هذا النوع من الجرائم لإرهاب الناشطين والإعلاميين والصحفيين، وغالباً ما يتم إعدامهم، وفي حالات قليلة جداً تم الإفراج عن بعض المخطوفين الأجانب مقابل مبالغ مالية كبيرة من خلال صفقات تمت في شكل سري بعيداً عن وسائل الاعلام. أما بالنسبة لبقية الجهات الخاطفة في المناطق المحررة فقامت به الكتائب الإسلامية لأسباب تتعلق بشكل أساسي بتهم تتعلق بالتعاون مع النظام، أو في حالات قليلة لإجبار النظام على عقد صفقة تبادل لمعتقلين في سجون المخابرات السورية. أما الجزء الأسوء في هذا الملف فهو ما قامت به كتائب تدّعي انتماءها

للجيش الحر حيث مارست الاختطاف بحق مواطنين ميسورين ورجال أعمال سوريين في المناطق الخاضعة لسيطرتها مقابل الحصول على فدية مالية. وهذا النوع من الجرائم لا يختلف عن الجرائم التي قامت بها أيضا ميليشيات الدفاع الوطني التابعة للنظام مقابل الحصول على منفعة مادية لتمويل عمليات عسكرية أو لدفع رواتب المرتزقة".

تكثر الأنباء عن صفقات تجري بين السلطات وبين المعارضة المسلحة التي نعود ونذّكر أن لها مسميات عدة، وقد سجلت حالات من التحرير والتحرير المضاد وفقاً لهذه الصفقات. يقول ريحاوي "معظم المختطفين من قبل 'داعش' لا يزالون ضحية للاختفاء القسري ونعتقد اعتقاداً قوياً بأنهم قد أُعدموا ميدانياً. أما المعتقلين لدى بقية الكتائب فغالباً ما يتم التوصّل إلى حل يفضي في نهاية الأمر إلى الإفراج عنهم. أما بالنسبة لصفقات التبادل بين الكتائب المسلحة والنظام، فهذا الأمر يعتمد على أهمية المختطف لدى النظام، وغالباً ما يمتنع النظام عن الوفاء بالتزاماته حول الصفقة في حال نجاحها، وهذا ما لمسناه في حالات عديدة أهمها الصفقة التي تمت بخصوص الإفراج عن الراهبات والتي كان من المفترض أن يفرج النظام فيها عن 135 معتقلة، لكنه في الحقيقة لم يفرج إلا عن 30 معتقلة".

حلب في صدارة ملف المخطوفين

تحتل حلب مركزا متقدماً في ترتيب المدن الخاضعة لسيطرة المعارضة من حيث حالات الاختطاف، وفقاً لريحاوي، ريف حلب أولاً ثم ريف إدلب، الشمال السوري، فالشمال الغربي، الرقة وريفها وريف دمشق.

ويرى ريحاوي أن ظاهرة الاختطاف عادة ما ترافق الحروب الأهلية والنزاعات المسلحة غير الدولية، لكن الأمر المستهجن هنا أن تصبح حالة منهجية في المناطق المحررة، وهو أمرٌ لا يعطي الشعور بالأمان للمدنيين الخاضعين لسلطة هذه الفئات، ومن المفترض وجود آلية قانونية بديلة تعطي الشعور بالأمان والاستقرار للمجموعات السكانية في المناطق المحررة.

تتصدى وزارة الدولة لشؤون المصالحة الوطنية لملف المختطفين وتستقبلهم تحت اسم 'الغائبين'، حيث تفتش عنهم أولاً في الفروع الأمنية وفقاً لكتب رسمية توجهها وتنتظر الرد، فيما تشرف أحياناً على صفقات للتبادل لا تتجاوز العشرات، بينما تغُصُّ الوزارة بآلاف الملفات لمختطفين يمكن أن يتحولوا، في يوم من الأيام، إلى مجهولي مصير بعد انتهاء الحرب السورية.

عبد الحاج*

قوارب الموت إلى أوروبا

عصابات التهريب المنظمة تتقاسم المهاجرين بحراً وبراً ولكلٍّ مهاجرٍ قصة

الخلاصة:

تعد الهجرة عموماً واحدةً من أكثر ظواهر الاجتماع الإنساني تعقيداً، وذلك بالنظر إلى تعدد مجالات تأثيرها خاصة مع التزايد المطرد في أعداد المهاجرين من دول الشرق الأوسط -سوريا خصوصاً- إلى أوربا بطرق غير قانونية، وفي شكل سري غالباً؛ من خلال التسلل عبر مختلف منافذ الحدود المتاحة، أو بالاستعانة بشبكات تهريب البشر. تعقُّد ظروف المهاجرين السريّين، فرض إشكالاتٍ وتحدّياتٍ لا على صعيد الدول المُصدِّرة أو المستقبلة للهجرة، أو على صعيد المهاجرين أنفسهم إنسانياً واجتماعياً واقتصادياً وقانونياً، بل كذلك على الدول التي تقع بحكم موقعها الجغرافي في الطرق الرئيسة للهجرة.

* كاتب وصحفي سوري. من مواليد سوريا، ومقيم في السويد. يكتب في عدة صحف عربية منها 'العرب اللندنية' و'الحياة اللندنية' و'القدس العربي'.

’قوارب الموت‘؛ تسمياتٌ متداولةٌ لمراكب صغيرة بدائية الصنع في الغالب، تحمل المهاجرين غير الشرعيين عبر البحار قوارب عمرها عشرات السنين، مهترئة يستخدمها مهرّبين جشعين مرتبطين بشبكات إجرامية منظمة. وأضحت رمزاً للهجرة بين برٍّ وبَحْر، إلى بلاد يَعتقِدُ المهاجرُ أنها أكثر أمناً، ستمنحه الحماية وتكفل له حياة كريمة. مئات السوريين يصعدون من شواطئ تركيا ومصر وليبيا، هاربين من وطنٍ يسوده الظلم والجوع وفوضى الأمن. يستذكر سوريون نزحتْ بهم قوارب الموت عبر البحار إلى حيثُ يقيمون اليوم في اوروبا تفاصيل رحلات الهروب الكبير.

أبو أحمد (56 سنة) ركب السفينة الليبية مهاجراً، ومعه زوجته وابنته وابنه وحفيده وزوجة ابنه، في رحلة لجوء، هروباً من الحرب في سوريا، فأصبح المشهد كالتالي: أبو أحمد نجا، وهو في جزيرة كتانيا. وابنه نجا، وهو في جزيرة مالطا. أما زوجته فتحمل الرقم 13 في مقبرة ماتزلينو. وحفيده يحمل الرقم 5 في نفس المقبرة. أما ابنته وزوجة ابنه فما يزال مصيرهم مجهولاً.

عن تفاصيل الغرق يروي أبو أحمد: ”السفينة انطلقت من زوارة (ليبيا) التي تبعد 60 كلم فقط عن الحدود التونسية. كنا حوالي 400 شخص معظمنا سوريين، وحوالي 30 فلسطيني. ركبنا في السفينة بعد دفع مبلغ حوالي 1000$ للمهربين، والاتفاق كان ايصالنا إلى السواحل الإيطالية. وبعيد انطلاق السفينة تعرضنا لإطلاق نار كثيف من قبل ميليشيا تهريب ليبية كانت قريبة منا. العيارات النارية أتت على الأرجح بقصد القتل؛ ثلاثة شبان أصيبوا، اثنان منهم في الأيدي والثالث في ساقيه“.

يتابع: ”على سطح السفينة ساد الهلع وحاول الناس الاحتماء، لكن قبطان السفينة، وهو تونسي الأصل تلقّى أوامر بالعودة إلى اليابسة، لكنه لم يتوقف“. وبحسب أبو أحمد: هناك 143 ناجٍ في مالطا و57 في جزيرة صقيلية، والجثث موزعة: خمسٌ في مالطا، و22 في صقيلية، بينما مايزال 160 في عداد المفقودين.

في تصريح صحفي مكتوب قال ’المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان‘ -ومقره الرئيس جنيف- إن الاتصالات التي أجراها حول غرق السفينة تشير إلى أنه لا يزال هناك أكثر من مائة جثة في قاع البحر بحطام السفينة الغارقة، دون أن تقوم السلطات الإيطالية بدورها في انتشال الضحايا، رغم مرور ما يزيد

على عشرة أيام من وقت وقوع الحادث، بزعم الحاجة إلى موازنة مالية ضخمة تقدر بثلاثين مليون يورو.

يروي فؤاد حسن (35 سنة)، الذي كان ضمن مجموعة من المهاجرين من تركيا: "ارتأيت الهجرة عبر البحر مع مهاجرين استقلوا المركب من مدينة إزمير غرب تركيا، وعددهم نحو سبعين شخصاً لقوا مصرعهم إثر غرق القارب وكان بينهم نحو عشرة عراقيين، كنت ضمن المجموعة، لكني قلّبت الأمر مع نفسي، فتريثت، وفضلت الهجرة إلى أوروبا عبر روسيا وأوكرانيا". وصل حسن إلى هولندا بعد رحلة أيام سيراً على الأقدام عبر أوكرانيا وبلغاريا برفقة مهربين. ورغم المصاعب والمبالغ الطائلة التي دفعها حسن، لكنه يجد نفسه سعيداً لأنه لم يقرر في تلك اللحظات ركوب البحر.

كانت مصادر تركية أفادت أن حصيلة غرق القارب كانت 12 رجلاً، و18 سيدة، و28 طفلاً، وثلاثة رضَّع. وبحسب سعيد الذي ظلّ في تركيا لعدة أشهر قبل انتقاله إلى أوروبا: "إن أغلب المهاجرين غير الشرعيين اليوم هم من سوريا ولبنان، وأعداد أخرى من الأردن والعراق وأثيوبيا وأرتيريا".

يعترف الشاب أحمد الوردي، الذي وصل إلى السويد عبر عملية تهريب معقدة من تركيا، اشتملت في مرحلة منها على ركوب البحر في قارب، بأن: "عصابات تهريب البشر، تسهّل الأمر لمن يرغب بالتوجه إلى أوروبا، من الشباب الحالمين بمستقبل أفضل". والوردي، الذي حصل على حق الاعتراف به كلاجئ في السويد التي قدم إليها العام 2012، يحكم فكرته بالقول: "مازالت البحار تُغرقُ الكثير من الشباب من الصومال واليمن وسوريا الذين يضطرون إلى ترك بلدانهم". ويتابع أحمد، مستقياً معلوماته من تفاعله مع المهربين: "أفضل طريقة للوصول هي عن طريق جواز سفر بلجيكي أو نمساوي، يخوّل صاحبه أو حامله الدخول إلى السويد عبر المطار، أو عن طريق اليونان من أدرنه أو أزمير إلى جزيرة خيوس اليونانية وهي تبعد 7 كم فقط عن البر التركي، ومن بعدها الذهاب إلى جنوب اليونان وإكمال الطريق بحراً إلى إيطاليا، ومن إيطاليا الطريق مفتوح إلى السويد بشرط عدم ارتكاب أي فعلٍ يلفت نظر الشرطة إليك". ويفصِّلُ أحمد التكلفة: "إلى جزيرة خيوس 2000 دولار، ومن جنوب اليونان إلى إيطاليا من 2000 إلى 3000 آلاف دولار، ومن إيطاليا إلى الحدود الدنماركيه السويدية عند جسر أوريسند 1000 يورو، زائد المصروف الشخصي في تركيا واليونان وإيطاليا، الذي يتضمن المبيت والطعام والاتصالات إذا اضطر الأمر. ويجب أن تكون في مظهر لائق إلى حدٍّ يشبه الأوروبيين وخصوصاً في اليونان وإيطاليا، وأنصح عدم التحرك كثيراً في اليونان، لأن الشرطة اليونانية مشهورةٌ بأمرين؛ الأول تمييز المهاجر جيداً، والثانية تشم المهاجر من بعد 1 كم".

تعتبر مدينة الإسكندرية المصرية نقطة انطلاق لكثير من مراكب الهجرة أيضاً. فالرحلات التي أصبحت تتكرر عدة مرات إسبوعياً إما أن تنجح أو تفشل، وأمام الفشل أصبح السوريون، ومعهم الفلسطينيون، أمام الترحيل، أو البقاء تحت رحمة الشرطة المصرية التي تحتجزهم في شروط صحية سيئة. أحمد، أحد الناجين، كان محتجزاً لدى السلطات المصرية، ورحل من مصر إلى سوريا. يتحدث أحمد عن عملية الاحتجاز في مصر قبل ترحيله إلى سوريا: "تم تسفيرنا إلى لبنان بعد فترة حجز بسجن الدخيلة بالإسكندرية، وهناك سجن ثاني يسمى كرموش، كان عددنا 45 سوري، والحجز كان ضمن عنبرٍ مساحته 16 متر مربع، مع سجناء مصريين". ويضيف: "تكلفة المكالمة إلى سوريا كانت 200$، عدا المعاملة السيئة جداً وكأننا إرهابيون. أتذكر أن أحدهم دفع 150 يورو للحصول على هاتفه والاتصال بوالدته. وكنّا يومياً نجمع 300$ للسجان

ليسمح لنا بفتح الباب والنوم بالممرات لمدة 4 ساعات فقط. بيع الممنوعات من قبل ضباط السجن كان علناً، وعند قرار الترحيل حجزوا لنا إلى لبنان، وسعر التذكرة على حسابنا 230$. وقبل موعد الرحلة بنصف ساعة رافقتنا حراسةٌ مشددةٌ إلى المطار، ومن أصل 17 موبايل سلمونا 3 فقط". ويتابع: "والله تمنيتُ الموت في البحر على أن أعامل هكذا معاملة من مواطن عربي".

لكن بحسب العميد محسن عبد القادر -مدير إدارة الأموال العامة بغرب الدلتا- تحاول لسلطات المصرية الحد من هذه الظاهرة، وقد أحبطت قوات حرس الحدود محاولة هروب مركب صيد، وإنقاذ 116 سورياً وفلسطينياً، وأربعة مصريين من طاقم المركب. واستطاعت القطع البحرية إنقاذ المهاجرين غير الشرعيين، وانتشال الجثث التي غرقت، والتي وصلت إلى 20 جثة، تم العثور على 14 فقط، معظمهم أطفال ونساء.

يروي قاسم فوزي من دمشق: "إنه جاء إلى مصر منذ نحو العام، وأقام بمدينة 6 أكتوبر، وحين ضاق به الحال، وكثر الحديث عن سفر السوريين إلى أوروبا والترحيب بهم كلاجئين مع معونةٍ شهريةٍ تقدر بنحو 1500 يورو، قرر السفر هو وأسرته. فامتنعت زوجته عن خوض الرحلة البحرية، وفضلت الإقامة في مصر هي وأولادها. ولم يسافر معه سوى ابنةٌ واحدة. ويضيف: "تم التواصل مع أحد السوريين بأوروبا، حيث أرشدنا إلى السوريَيْن اللذَيْن يؤمِّنان لنا السفر مع بعض الوسطاء المصريين؛ يُسمّيان أبو أحمد وأبو جنات، وهما القائمان على تسفيرنا، ولم نلتقي بهما. كان التعامل عن طريق هاتف أحد السوريين بمصر: "قمنا بدفع مبلغ يتراوح بين 3 آلاف دولار و6 آلاف دولار عن الفرد الواحد". ويتابع: "لم يسافر أحدٌ من السوريين قبلنا إلا وقام بتحذيرنا من خوض هذه الرحلة، والاستعاضة عنها بأي وسيلة أخرى. ولكن ضيق ذات اليد وحلم السفر أعمى بصرنا عن ذلك. والفرق بيننا وبين المصريين أنهم يعلمون أنها هجرة غير شرعية وأنهم قد يموتون جراء هذه الرحلة، ولذا فهم مستعدون ومأهَّلُون نفسياً لخوضها، بينما نحن تم إيهامنا أننا سنسافر بطريقة شرعية وعبر ميناء رسمي".

تتجسد المأساة الحقيقية في أبونبال (فلسطيني-سوري من مخيم اليرموك) الذي جاء إلى مصر قبل السفر بأيام قليلة. يقول أبو نبال: "نحن انتقلنا من جحيم إلى جحيم آخر. من سوريا حيث الموت والدمار، إلى البحر ومعاناة الموت أيضاً. كلاهما موت علي أي حال. وقد جئتُ هرباً من سوريا خصوصاً حين علمنا أنه سفرٌ شرعي، وبتأشيرات. وأدخلونا من إحدى الشركات على أنها الميناء ولكن المفاجأة أنّنا وجدنا أنفسنا على شاطئٍ رمليٍّ ومركبٍ صغيرٍ جداً. وحين هَمَمْنا بالتراجع أشهر الصيادون الثلاثة في وجوهنا السكاكين مهدّدين بالموت إن ارتفع صوتنا. أدركتُ منذ تلك اللحظة أن سفرنا غير شرعي، وأن الموت في انتظارنا هنا أيضاً". ويضيف: "بعد أن ركبنا المركب، قاموا بتغطيتنا حتى لايرى أحد من في المركب، وحين سألتهم نحن مسافرون بطريقة شرعية، لم نتلق سوى السباب بألفاظ بذيئة. طلبوا منا كل التليفونات المحمولة، وكان معنا طفلةٌ معاقةٌ خائفةٌ تصرخ من ظلمة الليل والبحر عمرها عشر سنوات ماتت غرقاً في أحضان أمها ومعها أختها".

قصص غريبة:

'م.ح' شخصٌ سوريٌّ قدم طلب لجوءٍ في مدينة ميونيخ الألمانية. وبعد حصوله على الإقامة، هدّد

بإلقاء نفسه من فوق رافعةٍ إذا لم يُسمح له باستقدام أسرته من مصر، وذلك حسبما ذكر ناطقٌ باسم الشرطة الألمانية. وظل السوري (31 عاماً) قابعاً فوق الرافعة على ارتفاع 20 متراً لمدة أكثر من 12 ساعة بلا طعامٍ أو شرابٍ في درجة حرارة 31 درجة مئوية، وهو ما جعل رجال الشرطة يخافون من انهياره وسقوطه. وقالت الشرطة إنه رفض جميع العروض التي قدمتها له، وإنها لم تستطع استخدام وسادة القفز لتلقفه بسبب وجود الرافعة فوق منطقة سكنية. وأكدت الخارجية الألمانية أن أسرة السوري تقدمت بالفعل لدى السفارة الألمانية في القاهرة بطلب السفر لرب الأسرة في ألمانيا. لم تمضي سوى أسابيع قليلة على وجود الرجل في ميونيخ، حيث تقدم بطلب اللجوء، وحسب مصادر خاصة فإن للرجل ثمانية أبناء.

السوريون وما يعانونه في بلدهم حوَّلهم إلى سلعةٍ سهلةٍ بيد تجار البشر، إذ وجدت الشبكات في هؤلاء اللاجئين، وفي شريحةٍ واسعةٍ من اللبنانيين الفقراء، أهدافاً سهلةً لإقناعهم بالهجرة غير القانونية وجني أموالٍ طائلةٍ منهم. وكان الجيش اللبناني اعترض مركباً صغيراً كان يُقِلُّ 13 شخصاً في طريقهم من جنوب لبنان إلى إيطاليا بطريقةٍ غير قانونية، وأوقف خمسة أشخاص ينتمون إلى شبكةٍ نظّمت العملية في أول حادثٍ من نوعه في لبنان، بحسب ما أفاد مصدرٌ أمني. حيث كشف التحقيق أن كلاً من الركاب السوريين والفلسطينيين دفع مبلغ 5000 دولار لمنظمي الرحلة، وأن اللبنانيين الثلاثة يشكّلون جزءاً من شبكةٍ لتهريب الأشخاص كانت تقوم بأول رحلة غير قانونية لها إلى إيطاليا، وقد تم توقيفهم. وتم في وقتٍ لاحقٍ توقيف شخصين آخرين في الشبكة بحسب المصدر الذي أشار إلى أن التحقيقات مستمرة، موضحاً أن الموقوفين أفادوا أن المركب كان يفترض أن يتوقف في محطات أخرى في حوض المتوسط، حيث سينضم إليه مسافرون آخرون، من دون أن تعرف ما هي هذه المحطات. وذكر أن المركب يملكه لبناني من مدينة طرابلس (شمال لبنان).

يأتي ذلك بعد غرق عشرات اللبنانيين كانوا في طريقهم بطريقةٍ غير قانونية إلى أستراليا من أندونيسيا. وألقى حادث أندونيسيا المروع الذي قتل فيه 39 شخصاً من دولٍ شرق أوسطيةٍ (بينهم 28 لبنانياً، بينما لا يزال العشرات في عداد المفقودين) ألقى الضوء على شبكات لتهريب الأشخاص في لبنان نشطتْ خصوصاً في الشمال بعد تدفق اللاجئين من سوريا نتيجة النزاع الدامي المستمر في بلادهم منذ أكثر من سنتين. وقال ناجون من حادث أندونيسيا أنهم دفعوا آلاف الدولارات لقاء مغادرتهم لبنان إلى جاكرتا، ومنها إلى أستراليا على متن 'مركب الموت' الذي فقدوا عليه العديد من أحبائهم. لكن ارتفاع عدد المتقدمين بطلبات اللجوء إلى أوروبا، وغالبيتهم من أفغانستان ومن سوريا، التي يلجأ مواطنوها إلى كافة بلدان الاتحاد الأوروبي (بحسب روبرت فيسر Robert Visser مدير المكتب الأوروبي لمواكبة طلبات اللجوء) دفع دول الاتحاد إلى إعادة النظر في شؤون وعمليات طلبات اللجوء. ومنذ فترة غير بعيدة وافق البرلمان الأوروبي على سلسلة تشريعات خاصة باللجوء، وانعكس هذا الأمر على دول الاتحاد التي بادرت إلى إعادة النظر في بعض تشريعاتها. حزمة التشريعات الخاصة بطالبي اللجوء، التي أقرها البرلمان الأوروبي في شهر حزيران يونيو الماضي، جعلت كافة طالبي اللجوء يخضعون لذات المعاملة في كافة بلدان الاتحاد. وفي كرواتيا التي انضمت رسمياً إلى الاتحاد الأوروبي في مستهل العام الحالي ستطرح التشريعات الأوروبية للمصادقة عليها في البرلمان الكرواتي. لكن طرق التهريب عبر بلدان أوربا

الشرقية، وعبرها يتم تهريب السوريين بواسطة السيارات والباصات والشاحنات المارة إلى دول الشمال الأوربي، ليست متاحة للجميع. حيث يقول مدير البيئة في مصلحة الهجرة السويدية كريستر زيترغرين: "إن القادرين على الدفع هم فقط من يتمكن الوصول إلى السويد، خاصة أن أسعار بطاقات السفر في ارتفاعٍ مستمر، بالإضافة إلى تكاليف الأشخاص الذين يتولون مهمة تهريبهم، حيث يصعب على الشخص القيامً بذلك دون مساعدة من المهربين في شراء بطاقات السفر أو توفير الوثائق المطلوبة".

ويوضح زيترغرين: "إن غالبية السوريين المهاجرين يسلكون طريقاً مباشراً من مطار إسطنبول التركي إلى مطار Arlanda في العاصمة استوكهولم، وإنهم يفعلون ذلك بأوراق سفر مزوّرة، أو تكون تذكرة سفرهم مرتبةً في شكل يخوّلهم الوقوف في دول عدة بضنمها الدول الإسكندنافية، التي يطلبون الإقامة أثناء توقفهم بأحداها". ويبين زيترغرين: "أن أعداد من السوريين المهاجرين وصلوا إلى Arlanda قادمين من الصين".

تعاني أوربا اليوم من البطالة ومهدّدة بالإفلاس، ودولها تستقبل بترحابٍ فقط الأجانب المدعويين للمناسبات السياسية، أو تقتصر إقامتهم على حضور المهرجانات أو الحفلات أو المشاركة في المناسبات الثقافية. لهذه الأسباب تخشى من تدفق المهاجرين، لأنها تعتبرهم منافسين في سوق العمل للمواطن الأوروبي، ويهددون وحدة الثقافة والهوية، بخاصة بعد فشل بعض محاولات اندماجهم في الثقافة الأوروبية. لذلك معظم دول الاتحاد الأوربي ترى الحل اليوم قبل الغد في إعادة المهاجرين غير الشرعيين إلى أوطانهم، لهذا علينا أن لا نستغرب أن تتصدر أخبار موت المهاجرين الصحف والقنوات الفضائية العربية والأوروبية. لكن أرقام مصلحة الهجرة السويدية كشفت عن ارتفاع عدد طالبي اللجوء المختفين والهاربين بعد تقديمهم للطلب أو تلقيهم لقرار الرفض، وقالت إن نسبةً كبيرةً منهم شملتهم اتفاقية دبلن. إذ كان العدد في عام 2013 ما يقارب 7800 طالب لجوء مختفي في السويد، أي بزيادة قدرها 1000 شخص عن العام 2012، وأن ما يعادل ثلثهم حصل على قرار الرفض والترحيل، وأكثر من نصفهم شملتهم اتفاقية دبلن.

وبحسب مدير عمليات الترحيل في مصلحة الهجرة Ulrik Åshuvud فإن عدد القادمين من المشمولين بقانون دبلن ازداد في الآونة الأخيرة، وأن الأنظمة الحاسوبية الجديدة تمكّن مصلحة الهجرة من تتبع الكثير من الأشياء، وليس فقط بصمات الأصابع، بل معرفة ما إذا كانوا قد حصلوا على قرار الطرد من دولٍ أخرى في الاتحاد الأوروبي، أي ما يتضمن قانون دبلن أيضاً.

وقال Åshuvud في تصريحات صحفية: "يمكننا رؤية تأشيرة الدخول بسهولة عبر نظام التأشيرة الأوروبية المشترك، وهو التغيير الكبير الذي حصل عام 2012، ولولاه لدخل اللاجئون في نظام قضايا اللجوء الطبيعية في السويد"، خصوصاً بعد الضجة الإعلامية حول حادثة لامبادوسا، ومحاولة استغلالها سياسياً للهجوم على دول جنوب المتوسط.

هجرة القاصرين:

قبل الخوض في تفاصيل هذه الظاهرة، يجدر بنا تحديد تعريفٍ لها. فحسب منظمة الاتحاد العالمي لمساعدة الأطفال والوكالة العليا لغوث اللاجئين، يتم تعريف الظاهرة بأربعة مقاييس أساسية وهي: أولاً، المعطى المتعلق بالسن، وهو ما دون الثامنة عشر كما صرّح به الإعلان العالمي لحقوق الطفل، ثانياً،

المعطى الجغرافي الذي ينسحب على القادمين من دول العالم الثالث نحو دول الاتحاد الأوربي (في شكل مجموعات مهاجرة من الأطفال من بينهم الأطفال السوريين، حيث لا يتمتعون بحق اللجوء السياسي)، ثالثاً، المعطى المرتبط بالحماية والمصاحبة من طرف الراشدين (فهؤلاء يوجدون خارج أية حماية أو مرافقة، وبالتالي فهم في وضعية تمنحهم حق الحماية والحصانة القانونية كما ينص عليها الإعلان العالمي لحقوق الطفل)، ورابعاً، المعطى المرتبط بشبكات الهجرة، وبخاصة مافيا تهريب البشر باعتبار هؤلاء الأطفال ضحايا جميع أنواع الاستغلال.

يمكن تفسير هجرة القاصرين نحو أوربا بتداخل عدة عوامل منها ما هو اقتصادي، اجتماعي، سياسي، وثقافي. وفي إطار مقاربة سوسيولوجية لهذه الظاهرة التي تعتبر هجرة القاصرين جزءاً من الظاهرة العامة للهجرة السرية التي تضم فئات اجتماعية كثيرة، وتستند هذه المقاربة على الرجوع إلى الأسباب الحقيقية للهجرة بكل أصنافها والمتمثلة في الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وتفسير انعكاساته على دوافع الهجرة. حيث يعتبر القاصرون من ضحايا هذا الواقع المتسم بالهامشية والإقصاء اليومي والنزوح الذي تعيش فيه أسرهم. كما أن الأوضاع المادية المزرية التي تعيشها الأسر السورية اليوم تدفع بالكثير من أبنائها إلى ولوج عالم الشغل في سنٍّ مبكرة، وهو ما ينتج عنه استغلال اقتصادي، أو يدفع إلى حمل السلاح، ما يجعل الطفل يفكر جدياً في الهروب من هذا الوضع، لم لا؟ فالهجرة السرية نحو أوربا خصوصاً يسهلها القرب الجغرافي، ما يساعد على دخول هذه المغامرة.

كما أن هناك عوامل محفزة ومساعدة لظاهرة هجرة القاصرين منها الإخفاق في إعادة إدماج الأطفال المنقطعين عن الدراسة، والمهجرين من مدنهم ومحافظاتهم. كذلك غياب المناخ الصحي في مناطق اللجوء، والعنف الذي يرافق سلوك المجتمع مع أطفاله. ويلجأ القاصرون الراغبون في الهجرة إلى أساليب متعددة للوصول إلى القارة الأوربية؛ منها شبكات الهجرة السرية و التزوير، فضلاً عن الهجرة عبر القوارب المطاطية أو الخشبية (قوارب الموت)، والهجرة عبر الشاحنات والناقلات التي تعبر الحدود التركية-اليونانية. تعتبر الوسيلة الأخيرة، من الوسائل السهلة والمفضلة لدى القاصرين، مع ما قد يجمله ذلك من مخاطر جمة على الأطفال. فالذين يركبون تحت إطارات الشاحنات قد يتعرضون للموت سحقاً بالعجلات، أما الأطفال الذين يختبئون داخل حاويات الشاحنات فيتعرضون للموت خنقاً.

يعاني الأطفال المهاجرين سرياً، أثناء تواجدهم في أوروبا، أوضاعاً اجتماعية وإنسانية قاسية تتنافى مع ما يلزم أن يحظى به الطفل من أمنٍ واستقرار. وفي هذا الإطار ركّزت دول الاتحاد الأوروبي في تعاملها مع هذه الظاهرة على اعتبارين؛ يهدف الأول إلى اتفاق دول الاتحاد على صيغ موحدة ومشتركة للتعامل مع المهاجرين السريين بصفة عامة والقاصرين بصفة خاصة، في شكل لا يخالف الاتفاقيات والمواثيق الدولية التي تركز على حقوق وحماية الطفولة، أما الثاني فيهدف إلى محاولة اتفاق هذه الدول مع الدول المصدرة لهذا النمط من الهجرة. ما دفع بالاتحاد الأوروبي لتطبيق نظام جديد لمراقبة تدفق المهاجرين من دول شمال إفريقيا والشرق الأوسط، يحمل عنوان 'يوروسور'. ويهدف هذا النظام إلى تقديم الدعم للوكالة الأوروبية للحدود الخارجية، والحد من تسلل المهاجرين واللاجئين غير الشرعيين إلى دول الاتحاد.

وكانت المفوضية الأوروبية اقترحت برنامج 'يوروسور' عام 2008، لكنها تلكّأت في إقراره. إلّا أن تزايد ضحايا حوادث غرق قوارب الموت التي تنقل اللاجئين والمهاجرين، أثار مناقشاتٍ حادةً وردود فعلٍ

كبيرة في الأوساط السياسية والرأي العام الأوروبي والدولي على سياسات الهجرة المتبعة، ما اضطر القمة الأوروبية التي عقدت في أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2013 بطرح هذا الملف للمناقشة ولبحث مسألة مكافحة الهجرة غير الشرعية.

وكانت منظمة العفو الدولية قد انتقدت، على لسان مدير مكتب المؤسسات الأوروبية فيها نيكولاس بيغر، الاتحاد الأوروبي لفشل قمته في اتخاذ ما يلزم من الاجراءات لحماية أرواح اللاجئين والمهاجرين على طول الحدود الأوروبية. يقول بيغر: "اتضح أن أولويات أوروبا لا تتعلق بإنقاذ الأرواح أو حماية الناس على طول الحدود، بل منعهم من الوصول إلى أوروبا بأي ثمن حتى ولو كان هؤلاء الناس في حاجةٍ إلى الأمن والحماية". وقال رئيس المجلس الأوروبي هيرمان فان رومبوي: "إن الإجراءات الأوروبية الجديدة تقوم على ثلاثة أسس ومبادئ هي الوقاية، والحماية، والتضامن"، مؤكداً "العزم على معالجة جذرية لأسباب تدفق موجات اللاجئين والمهاجرين غير الشرعيين من خلال التنسيق مع بلدانهم الأم ودول العبور".

صعد ملف المهاجرين بقوة إلى واجهة الأحداث السياسية فى أوروبا إثر تفجيرات لندن الإرهابية فى السابع من حزيران/يونيو 2005، وانتفاضة المهاجرين المهمشين فى الضواحي الفرنسية في السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر وما تبعها من أعمال شغب وعنف محدودة النطاق في بلجيكا وألمانيا وهولندا واليونان. فقد كشفت هذه الأحداث مجتمعةً الغطاء عن تراكماتٍ لسلبياتٍ عديدةٍ سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، تفاعلت في أوساط المهاجرين عبر عقودٍ من الزمن بتأثير عوامل داخلية وخارجية مختلفة.

ورغم اختلاف طبيعة الأحداث والظروف بين ما حدث في مدريد ولندن من جهة (باعتبارها ترتبط بظروف أمنية وأوضاع سياسية خارجية)، وما حدث في فرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا من جهة أخرى (باعتبارها انعكاساً لظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية داخلية)، فإن هذه الأحداث مجتمعةً نَبَّهَتْ إلى خطورة ملف المهاجرين فيما يخص قضايا الأمن والحريات وحقوق الإنسان والعنصرية واللجوء السياسي، ومشكلات الفقر والبطالة والتهميش، وتحدّيات الاستيعاب والاندماج والمواطنة، والتطرف والإرهاب والإسلام السياسي، ونمو المشاعر العنصرية والتمييز والتطرف اليميني، وطبيعة العلاقة بين التيارات والقوى السياسية الداخلية فيما يتعلق بالتعامل مع هذا الملف وأثره على العلاقات الأوروبية الخارجية، بخاصة مع الدول مصدر الهجرة هذا.

لكن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرّون بها وبخاصة فيما يتّصل بعلاقتهم بالمجتمع الأصلي الذي نزحوا منه، ومدى ارتباطهم به، ونوع هذه العلاقات والروابط التي لا تزال كلها في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الدراسة المتعمّقة؛ عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الأنثروبولوجي.

ومع سقوط القضية السورية في الحضن الدولي، وفقدان الأمل بأن الحرب في سوريا ستتوقف في وقتٍ قريب، يركب اللاجئون السوريون البحر، حيث ستبقى قوارب الموت ما بقيت الأسباب، فحيث هناك جوع هناك مهاجر، وحيث هناك قتل فثمة نازح.

علاء إحسان* | أحمد الحاج حمدو**

الرّياضة في سوريا

كضحية من ضحايا الأزمة

الخلاصة:

تعاني الرياضة في سوريا ما تعانيه بقية مناحي الحياة فيها، فالسنوات الثلاث السابقة من عمر الأزمة أثّرت سلبياً على كافة مفاصلها، وأدخلتها في حالة من الموت السريري. الأرض التي أنجبت المصارع جوزيف عطية، صاحب الميدالية الفضية في أولمبياد لوس أنجلس 1984، وغادة شعاع الحائزة على ذهبية السباعي في أولمبياد أتلانتا 1996، باتت فقيرةً بالرياضة والرياضيين بعد أن تأثرت البنية التحتية من منشآت وملاعب بفعل الحرب القائمة. ولهذا، اختار كثيرٌ من اللاعبين الهجرة بحثاً عن فرصة احترافٍ خارجية. قُتِل البعض وأصيب آخرون إصاباتٍ قتلتْ مستقبلهم الرياضي، وجعلتهم عاجزين مقعدين بعد مسيراتٍ رياضيةٍ حافلة. ولم تسلم الرياضة من نار الاستقطاب السياسي، فقد تعرض لاعبون للاغتيال أو الاعتقال تبعاً لموقفهم السياسي، كما قرّر بعضهم حمل السلاح والانضمام لأحد أطراف الصراع، فيما اختار آخرون الانشقاق عن 'مؤسسة الاتحاد الرياضي العام' التابعة للحكومة السورية، والانضمام إلى 'رابطة الرياضيين السوريين الأحرار' التي سعت لتكون بديلاً عن المؤسسة الرسمية. وفي شأنٍ آخر، وبينما يضبط العالم إيقاعه على مونديال البرازيل 2014 الذي انطلق في 12 حزيران/يونيو. تستمر التحضيرات لاستقباله في جميع البلدان كما جرت العادة. لكن هذه التحضيرات لا تنطبق اليوم على سوريا التي غاب كأس العالم عن اهتمام شبابها بفعل توترٍ أمنيٍّ تعيشه بلادهم منذ ثلاث سنوات. وتحولت ساحات المدن السورية من مسرح يجتمع حوله الهواة والمشجعين إلى أماكن خاوية على عروشها خوفاً من تفجير قد يدوي، أو قذيفة هاون تسقط. فيكفيك أن تمشي دقائق معدودة في شوارع دمشق لتتأكد أن الهروب من شبح الموت وتحصيل لقمة الحياة تصدرت أولويات الشاب السوري الذي يترقب لعبة دولية تعبر عن واقعه

* صحفي سوري وخريج كلية الإعلام، يعمل في 'المركز السوري للتوثيق' إضافة إلى عمله الصحفي المستقل مع عدة جهات أخرى. عضو فريق مجلة 'دلتا نون' الصحفي.

** خريج كلية الإعلام بجامعة دمشق. يعمل كصحفي في المدينة 'إف إم'.

'رابطة الرياضيين السوريين الأحرار': نسعى لاعتراف دولي رغم الصعوبات

تقول مديرة المكتب الإعلامي في 'رابطة الرياضيين السوريين الأحرار' ريم علوان: "تأسست الرابطة في آذار/مارس 2012، لتكون حاضناً للرياضيين المنشقين عن الاتحاد الرياضي العام التابع للنظام. ضمّت حتى اليوم 1929 شخصاً من الرياضيين والإداريين، واستطاعت الحصول على اعترافٍ خطي من قبل 'الائتلاف الوطني المعارض'، كما شاركت في عدة مسابقات إقليمية أهمها في مصر وتركيا". وتضيف علوان: "كانت الرابطة عملاً ثورياً بأخلاق رياضية عالية، إلا أنّ الإدارة الأولى حوّلت مسار الرابطة إلى مصالحها الشخصية، وضمّت أشخاصاً غير مؤهلين إليها من أجل الحصول على مكاسب معينة، ما أدّى إلى نشوب خلافات أفضت إلى انقسام الرابطة إلى خمسة كيانات، يعمل كلٌّ منها في شكل مستقل وهي؛ رابطة الرياضيين الأحرار، رياضيون من أجل سوريا، هيئة الرياضيين الأحرار، الاتحاد السوري الحر لكرة القدم والاتحاد السوري الحر للكاراتيه". وذلك طبيعي بحسب علوان التي تعزوه إلى "وجود أشخاص تربّوا على يد النظام، ولن نستطيع التخلص من أخلاقهم الدونية، وإن لبسوا قناع الثورة".

حول الخسائر التي تعرضت لها الرياضة في شكل عام، تقول السيدة ريم إنّها تمكنت بالتعاون مع منظمات حقوق الإنسان من توثيق نحو 400 قتيلاً، وأكثر من 250 معتقلاً رياضياً في السجون السورية، إضافةً إلى العديد من الجرحى الذين أصيبوا وتأثرت حياتهم الرياضية سلباً، أبرزهم الملاكم ناصر الشامي صاحب برونزية أولمبياد أثينا 2004. كما تأثر كثيرٌ من المنشآت بفعل الحرب القائمة، بينها 'ملعب الحمدانية الدولي' بحلب، الذي دُمّر جزءٌ كبيرٌ منه، كما تحولت بعض الملاعب إلى ثكنات عسكرية مثل 'ملعب العباسيين' بدمشق.

تُنهي علوان الحديث بقولها: "إنّ الاتحاد الرياضي العام داخل سوريا هو جسم فاسد ومرتع للمكتسبات الشخصية. كما أنّه مكوَّن من أشخاص أفسدوا الرياضة دائماً، حتى خلال فترة الثورة. ونحن كرابطة للرياضيين الأحرار نسعى لسحب الاعتراف من اللجنة الأولمبية السورية، إلا أننا نصطدم بعقبات تتعلق بحصر الاعترافات السياسية بعدة دول، وليس الجميع ما يجعل مهمتنا صعبة".

الاتحاد الرياضي العام: 3 مليارات حجم الخسائر الرياضية.. ومؤسساتنا الرسمية هي الوحيدة المعترف بها عالمياً

ريم علوان مديرة المكتب الإعلامي
في 'رابطة الرياضيين السوريين الأحرار' في إسطنبول

يقول د. إبراهيم أبا زيد رئيس مكتب التنظيم المركزي في 'الاتحاد الرياضي العام'، وعضو 'اللجنة الأولمبية السورية': "إنّ استمرار الأنشطة الرياضية الداخلية كان له دور هام في تحدي القوة الظلامية التي تريد إيقاف عجلة الحياة، إذ تمكّن الاتحاد من تنظيم بطولات الجمهورية لمعظم الألعاب، كما تستعد المنتخبات السورية لعدة استحقاقات عالمية أبرزها دورة الألعاب الأولمبية للشباب في الصين، ودورة الألعاب الشاطئية في تايلند، وغيرها من البطولات".

وعن الخسائر التي لحقت بالرياضة السورية، يقول أبا زيد: "تعرّضت عدة أندية رياضية للتخريب، أبرزها في السَلَمية والرَّستن وصوران وطيبة الإمام ومورك. كما بلغت الخسائر المادية أكثر من 3 مليارات ليرة سورية، فضلاً عن توثيق مقتل أكثر من 100 رياضي برصاص الإرهاب التكفيري".

يضيف أبا زيد: "استطاع الاتحاد أن يأخذ دوراً اجتاز نطاقه الرياضي خلال فترة الأزمة، فالمدن الرياضية تستوعب أكثر من 10 آلاف لاجئ، ودوري كرة القدم يقدّم دعماً مالياً لـ 2000 أسرة، يعمل أحد أفرادها في الأندية أو يشاركون كلاعبين ومدربين وحُكّام. ويساهم رياضيونا في إعطاء حصص تدريبية للأطفال في مراكز الإيواء، وأخيراً وزّعنا بطاقات لأبناء الشهداء، وساهمنا بتقديم بعض التجهيزات الخاصة لهيئة مدارس أبناء الشهداء".

د. إبراهيم أبا زيد رئي مكتب التنظيم في الاتحاد الرياضي العام (يمين)
وعلاء إحسان من الفريق الصحفي في دلتا نون (يسار)

لا يخفي أبا زيد حصول حالات انشقاق في المؤسسة الرياضية الرسمية، إلا أنَّها فردية على حد قوله، لم تَطَل أياً من القيادات. مضيفاً أنّ 'اللجنة الأولمبية السورية' هي الوحيدة الممثلة للرياضة السورية من قبل 'اللجنة الأولمبية الدولية' واتحاداتها. ويختم أبا زيد حديثه متسائلاً حول مدى شرعية 'رابطة الرياضيين السورين الأحرار'، ومن هي الجهات الداعمة لها، وحجم الاعتراف الحاصلة عليه إلى حد الآن.

الكاراتيه تشكّل اتحاداً ومنتخباً حراً لتمثيلها

يتحدّث أحمد قرقشلي، الإداري في 'الاتحاد السوري الحر للكاراتيه'، وفي 'المنتخب السوري الحر' للعبة ذاتها عن ظروف تشكّل الاتحاد قائلاً: "استطعنا تشكيل اتحاد برئاسة المدرب عماد زين العابدين، وشاركنا بعدة بطولات في اليونان، بعد أن حصلنا على موافقة واعتراف الاتحاد اليوناني، لمعرفتنا به وعلاقاتنا مع مسؤوليه، وتمكنّا من إحراز ميدالية ذهبية في بطولة أثينا المفتوحة للكاراتيه عن طريق اللاعب علي البارودي". ويضيف: "تواجهنا صعوبات مادية تتعلق بضعف تمويل الاتحاد، وهذا ما سنحاول تخطّيه خلال السنوات القادمة". ويشير قرقشلي إلى أنّه يجب على جميع الرياضيين من مدربين ولاعبين وإداريين التوحُّد جنباً إلى جنب لمساعدة أهلهم في الداخل.

سبّاح سوري: الظلم والفساد الرياضي لا يعنيان مغادرة البلاد

علاء إحسان من الفريق الصحفي في دلتا نون (يمين) مع السباح مصفى محمد في فندق تشرين الرياضي في منطقة البرامكة بدمشق (أيار/مايو 2014)

يُعبّر السبّاح السوري صالح محمد، الحائز على المركز الثاني في سباق بارانا في الأرجنتين شباط الماضي، عن واقع السباحة السورية قائلاً: "لم نتأثر كسباحين إثر الأزمة القائمة، فتدريباتنا وإقامتنا كانتا مؤمنتين في شكل كامل من قبل الاتحاد الرياضي العام داخل فندق تشرين ومسبحه. لكن كان للظروف القائمة تأثير خارجي من حيث منع مشاركتنا في المسابقات العربية، تبعاً لقرار صادر عن جامعة الدول العربية، والتي لانتشّرف بالمشاركة بها أصلاً. إضافةً إلى تعمُّد بعض الدول تأخير إرسال الفيزا لنا، ما أدّى إلى عدم مشاركتنا في عدة سباقات بسبب وصولنا في وقت متأخر".

ويشير محمد إلى وجود ظلم ومحسوبيات وتقصير في الرياضة السورية، إذ أنّ حجم العائد المادي الذي يحصل عليه لاعبو الرياضات الفردية قليل جداً، مقارنة مع نظيرتها الجماعية. ويضيف محمد قائلاً: "إنّ كل هذه الأمور لا تعني أن نشكي همّنا للغريب". متسائلاً عن جدوى خطوة الانشقاق التي أقدم عليها بعض الرياضيين، بخاصة أنّهم لن يستطيعوا اللعب تحت اسم سوريا، إلا بظل 'اللجنة الأولمبية السورية' حصراً، أو اللعب في شكل فردي أو تحت راية دولة أخرى، كاشفاً عن نيّة بعضهم العودة إلى سوريا بعد أن ضاقت بهم السبل في الخارج.

إذاً تبقى الرياضة السورية في الوقت الحاضر أسيرةً للنزاع السياسي والحرب القائمة في البلاد. حربٌ فرقت رياضيين اعتادوا رفع رايةٍ واحدةٍ تجمعهم، ليغدوا مقسّمين، مفرّقين بين وطنٍ ضاق بهم، وشتاتٍ قضى على مستقبل رياضاتهم.

انعدام مقومات مشاهدة مونديال كأس العالم في البرازيل 2014

هل ستشاهد كأس العالم هذا الموسم؟ "سأحاول إذا توفرت الكهرباء!" يجيب حسام وهو طالب في جامعة دمشق ثم يضيف: "اعتدت تحضير نفسي جيداً لمتابعته، لكن هذه المرة لم أستطع فعل ذلك نتيجة غياب محفّزات المشاهدة". تختصر إجابة حسام واقع التيار الكهربائي الذي أصبح نوعاً من الرفاهية في سوريا. لكن ثمة صعوبات أكبر تقف في وجه متابعي كأس العالم، لعل أبرزها الشروط القاسية التي وضعتها قناة 'بي إن سبورت' القطرية من فرض شراء جهاز استقبال مع كرت اشتراك مدمج ورفع أسعار الاشتراك في شكل كبير ليصل إلى أكثر من 256 دولاراً، في حين وصل السعر في السوق السوداء السورية إلى حوالي 70 ألف ليرة وهو ما يعادل راتب موظف لأربعة أشهر، بينما كان رسم الاشتراك في مونديال جنوب إفريقيا 2010 حوالي 100 دولار، وهو ما كان يعادل 5 آلاف ليرة سورية. ويضاف إلى ذلك وصول بث المباريات في وقت متأخر من الليل، وهذه المشكلة بددت أوهام يوسف 22 سنة الذي حاول اختصار المبلغ الباهظ للاشتراك بالتزاحم على المقاهي كما سيفعل كثيرون غيره

إصرار وتضحية لأجل مباراة

"كأس العالم يأتي كل أربع سنوات، وبين المونديال الماضي وشقيقه المرتقب تغيرت أشياء كثيرة"، يقول أيهم، وهو طالب دراسات عليا في جامعة دمشق، ويضيف: "كنا ننتظر المونديال بشغف لنعيش تفاصيله، لكن الآن بات على الأبواب وأنا لا أعلم عنه شيئاً". أيهم الذي كان من المغرمين بهذه اللعبة يتحمس اليوم لمتابعة موسم كأس العالم رغم انعدام مقوّماته في البلاد. إبراهيم 22 سنة أحد سكان ضواحي دمشق الجنوبية. أدهشني هذا الشاب بإصراره حيث قال: "الظروف المؤسفة التي تعصف بالبلاد لن تقف عائقاً أمام حبي لكرة القدم، وسأستخدم كل الطرق والوسائل في سبيل عدم تفويت أية مباراة"

لم أكن أتوقع ذات يوم أن ثمة إنسان يغامر بالتوجه إلى مكان ربما يودي بحياته لأجل مشاهدة مباراة. إنها منطقة ساروجا وسط العاصمة دمشق التي تحتضن محبي كرة القدم حول مقاهيها الشعبية، وتحتضن أيضاً قذائف الهاون التي باتت جزءاً لا يتجزأ من حياة سكانها اليومية. منذ عدة أيام تعرضت المنطقة لسقوط أكثر من قذيفة حصدت ضحايا ومصابين، وذلك قبل ساعات من نهائي الدوري الإسباني الذي جمع نادي برشلونة مع إتلتيكو مدريد. أدهشني مشهد اكتظاظ المقاهي هناك خلال تلك المباراة كأن شيئاً لم يحصل. فمن المتوقع أن يستمر سقوط القذائف وتودي بحياة المشجعين. لكن الجميع كان يتابع بشغف دون أن يكترث لمفردات المعارك التي اعتادها الدمشقيون؛ يقول قاسم 23سنة، وهو أحد الزبائن في تلك المقاهي: "عجلة الحياة لا بد أن تدور لأننا لو تخوفنا من القدر لما كان غادر منزله من ثلاث سنوات".

طارق العبد*

المُسلّحون في سوريا:
البحثُ عن الدَّعم والقيادة

الخلاصة:

على مدى سنتين ونصف من عمر الحراك المسلح في سوريا، يبدو المشهد في غاية التعقيد مع مئات الكتائب والألوية والفرق العسكرية التي تختلف في كل شيء، لتتقاطع في حقيقةٍ واحدة هي أنها بمثابة جسم بلا رأس، ومجموعات تسعى للتمويل والبحث عن الأسلحة، التي قد لا يكون هدفها الأساسي هو إسقاط النظام بقدر ما يمتد لإعلان إماراتها الخاصة. على مدى أكثر من عدد لمجلة 'دلتا نون'، سنتطرّق إلى ملف العمل المسلح في البلاد: كيف يحصل المسلحون على التمويل والدعم، وماهي إستراتيجيات عملهم؟ من هي أبرز الفصائل المقاتلة؟ وما هي اتجاهاتها الفكرية؟ وهل استطاعت التأثير في الشارع المعارض؟ في السطور التالية سنتعرف أكثر على أبرز ثلاث مجموعات مقاتلة، وهي: 'الجبهة الإسلامية'، و'جبهة النصرة'، و'الجيش الحر'.

* كاتب وصحفي في الشؤون السياسية والعسكرية، بدأ حياته المهنية كمدوّن وتنقل في عدة وسائل إعلامية. يعمل حالياً في صحيفة 'السفير' بالإضافة إلى 'مركز البناء الإخباري'، وضمن الفريق الصحفي لمجلة 'دلتا نون'. يدرس في كلية الطب البشري ويستعد للدراسات العليا.

الجبهة الإسلامية وحلم الخلافة

ظهرت 'الجبهة الإسلامية' للعلن في تشرين الثاني/نوفمبر 2013، وهي نتاج اندماج 8 فصائل مقاتلة، أبرزها الرباعي: 'حركة أحرار الشام'، 'ألوية صقور الشام'، 'جيش الإسلام'، و'لواء التوحيد'. فيما بدا لافتاً دور حركة 'شام الإسلام' في معارك الساحل الأخيرة. وإذا كانت الصورة الأولى توحي بانسجام بين أكبر المجموعات المسلحة في البلاد، إلا أنّ الواقع يشي بخلافات فكرية وعقائدية واسعة. فـ 'أحرار الشام' هي حركة تتبع النهج السلفي الجهادي، وتتشدد في قبول مقاتليها، وفق ما يرويه ناشطون في الشمال السوري. إذ لا تتردد في طلب صفحاته على مواقع التواصل الاجتماعي، وتخضعه لدورات مكثفة في أصول العقيدة الإسلامية والفكر السلفي، متمتعةً في الوقت نفسه بدعم مالي يمكّنها من تسديد رواتب تتراوح بين 200- 300 دولار لكل مقاتل. فيما يذهب أميرها أبو عبد الله الحموي (حسان عبود) خطوة أبعد، عندما يعلن في مقابلة له على 'قناة الجزيرة' أنّ هدف الحركة هو بناء الدولة الإسلامية بعد إسقاط النظام، ويؤكد تقاطعه في كثير من النقاط مع 'جبهة النصرة' التي باتت تمثل 'تنظيم القاعدة' في بلاد الشام.

وفي المقابل ينطلق كل من 'لواء التوحيد' و'صقور الشام' من خلفية إخوانية لا تتقاطع كثيراً مع 'أحرار الشام'. إذ لم يعلن أيٌّ من الفصيلين إبان تشكيلهما عن هدفٍ أبعد من إسقاط النظام. ويتمركز الأول في حلب، والثاني في ريف إدلب، حيث ينتمي مؤسس 'لواء التوحيد' عبد القادر صالح إلى عائلة كانت إحدى أبرز أعمدة 'جماعة الإخوان' في ريف حلب، وتحديداً في مارع، والحال نفسه ينطبق على أبو عيسى الشيخ مؤسس 'صقور الشام'. واعتمد كلٌّ منهما على عناصر محلية من أبناء المنطقة في معاركه، ولحشد عدد أكبر، لم يمانع 'لواء التوحيد' تحديداً في قبول كل ما هبّ ودبّ من العناصر التي تبيّن أن بعضها مجرد عصابات تقوم بالسرقة وبخاصة في حلب، ليقرر حينها 'حجّي مارع' فصل الكثير من المقاتلين. ولكن تحولاً طرأ على مسارهما، ولا سيما 'لواء التوحيد' حين أعلن في شتاء 2012 توقيعه على ميثاق يعلن بناء الدولة الإسلامية، قبل أن يتراجع عنه بضغط من الشارع آنذاك، لكنه عاد ووقّع على ميثاق

الجبهة الذي يؤكد على دولة الخلافة.

أما 'جيش الإسلام' فيعود أصله إلى 'لواء الإسلام'، الذي تشكل مطلع عام 2012، إبّان اشتداد المواجهات في دوما بريف دمشق. ولعلّه الأكثر قرباً من فكر 'أحرار الشام' السلفي، وإنْ بدرجةٍ أخف، حيث يشترك معه في نقاط عدة أبرزها تنظيم المقاتلين وإعدادهم في فصائل وكتائب مختصّة، بعضها للتنصّت، وبعضها للاقتحام، وأخرى للعمل المدني، إلخ. ولعلّه الفصيل الأكثر إثارةً للجدل، بعد الكلام عن دعم مباشر من 'الاستخبارات السعودية' له، وهو ما نفاه وبشدة قائد الجيش زهران علوش، خلال أكثر من حوار، كما في لقائه مع 'فضائية صوت الشعب'.

مسلحون يستعدون لإطلاق قذيفة في ريف حلب

جبهة النصرة: الشعبية الأكبر

لم يُثر أيّ فصيل مقاتل في سوريا الضجة التي أثارتها 'جبهة النصرة' منذ إعلان تشكّلها في كانون الثاني/يناير 2012، حين تبنّت تفجيراً في حي الميدان وسط دمشق، ليتركز عملها بالدرجة الأولى على العمليات الانتحارية، كتفجير حي القزاز في أيار/مايو، أو مبنى هيئة الأركان السورية في أيلول/سبتمبر من العام نفسه. بل وأصبحت معظم الكتائب والفرق المقاتلة تعتمد عليها في عمليات الاقتحام من خلال التفجيرات التي تسمح بفتح ثغرة تمهيداً للتقدم أكثر. ولكن شعبيتها جاءت من عاملٍ آخر، وهو الاستفادة من الأخطاء التي وقعت بها باقي المجموعات، بالإضافة للخطاب المتشدد الذي يلاقي صدىً واسعاً في حالات الحروب والأزمات، وهو وترٌ أتقنت 'جبهة النصرة' العمل عليه بدقة كبيرة، مثلما فعلت في أنشودة 'بالذبح جيناكم' التي انتشرت بكثافة في مظاهرات الشمال السوري، بخاصة ريف إدلب وحلب. وهو خطابٌ سمح لها باستقطاب آلاف المقاتلين، إضافةً لاتباعها سياسة النأي بالنفس عن الاقتتال الذي ينشب بين الفصائل، قبل أن تنجر هي نفسها إلى المعركة بعد الضربات القاسية التي تلقتها من قبل الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). وتبقى النقطة الأبرز في صالح 'جبهة النصرة' أنّها أصبحت تموّل نفسها بنفسها بفضل سيطرتها الواسعة على حقول النفط في دير الزور وريف الحسكة، ما يسمح لها ببيعه وبالتالي إيجاد تمويل يضمن لها الاستمرار أكثر في حربها.

مسلحون يستعدون للهجوم في مورك بريف حماه

الجيش الحر: نهاية الأسطورة

مسلحون مع آلية مزودة بمضاد طيران في ريف إدلب

يعتبر 'الجيش الحر' الحلقة الأضعف بين جميع الفصائل المقاتلة في سوريا رغم امتلاكه لشعبيةٍ في بدايات عمله، لم تحظَ بها أيٌّ من المجموعات المسلحة. ولكن تلقيه لضربات متتالية وخسائر كبيرة في معاركه، بخاصة في بابا عمرو بحمص وفي يبرود بالقلمون أخيراً، جعله يتراجع في شكل حاد. ويُضاف إلى ذلك فقدانه للتنظيم وتعدّد القادة المشرفين عليه. إذ أعلنت عدة شخصيات عسكرية في خريف 2012 قيادتها للحر، بدايةً من العقيد رياض الأسعد، والعميد سمير الشيخ رئيس 'المجلس العسكري'، واللواء محمد الحاج علي، وكذلك مسؤول القيادة المشتركة فهد المصري، وأخيراً سليم إدريس رئيس 'هيئة الأركان' سابقاً، قبل أن يُعفى من منصبه لصالح عبد الإله البشير القادم من القنيطرة، حيث كان مسؤولاً عن الجبهة الجنوبية. ولعل كثرة القيادات والكلام عن ارتباطاتهم المباشرة بالغرب ضاعف حجم التراجع، والذي استفادت منه المجموعات الأكثر تشدّداً.

ولكن رغم كل ما أصاب 'الجيش الحر' فقد بقي متماسكاً في جبهة واحدة هي الجبهة الجنوبية، حيث لازالت الكتائب تتبع لـ 'المجلس العسكري' و'هيئة الأركان'، وتمتاز بأنها مشكّلة من أبناء المنطقة نفسها، كما تشرف على عملها 'الاستخبارات الأردنية' وتتحكم في شكل واسع بالعمليات العسكرية ومن يشترك فيها، بالإضافة لحاجتهم من السلاح.

وظهر في الأشهر الأخيرة فصيلٌ جديد هو 'جبهة ثوار سوريا' الذي اعتُبر تشكيله بمثابة بداية إعادة الهيكلة لـ 'الجيش الحر'، مع الإشارة إلى عددٍ كبيرٍ من مقاتلي ألوية 'أحفاد الرسول'، أحد أكبر مجموعات 'الجيش الحر' التي انضمت إلى 'ثوار سوريا' بقيادة جمال معروف. وبدأت الجبهة تحظى بدعمٍ ماليٍّ وإعلاميٍّ كبير لتسويقها كفصيلٍ غير متشدّد يمكن الاعتماد عليه للتزود بالأسلحة النوعية، وعلىً رأسها مضادات الطيران. كما ظهرت "حركة حزم" التي لمع اسمها بعد انضمام رئيس 'هيئة الأركان' السابق سليم إدريس، بعد إعلان امتلاكها لصواريخ أمريكية الصنع، ما يزيد الاحتمالات عن تشكيل 'حركة حزم' و'جبهة ثوار سوريا' لنواة 'الجيش الحر' الجديد.

مئات الألوية والكتائب تقاتل اليوم في سوريا، بدون قيادة موحدة أو عمل تنظيمي يجمعها معاً، وبأهداف متفرقة تبدأ من السيطرة المحدودة، لتصل إلى إعلان دولة الخلافة، ولكن كيف جاء المقاتلون إلى صفوف هذه المجموعات؟ وكيف استقطبت الفصائل المقاتلين من كل أنحاء العالم إلى سوريا؟

يتبع في العدد القادم من مجلة دلتا نون

ديما نقولا*

رحى الحرب في سوريا
تطحن حقوق الطفولة

الخلاصة:

استطاعت ثلاث سنوات من الحرب في سوريا أن تعكّر نمو جيل كامل من الأطفال نفسياً وصحياً واجتماعياً وتعليمياً. إذ تشير إحصائيات 'يونيسيف' إلى تضرر 5.5 مليون طفل سوري من الصراع الدائر في البلاد، بحسب تقرير أصدرته في آذار/مارس 2014. فكلما زادت الحرب من ضراوتها، أصابت الأطفال بسلاحها لتتركهم مرضى أو معوقين أو يتامى، وكلّما تدمرت البنية التحتية انعكس ذلك حرماناً من أبسط الحقوق التعليمية والصحية، ماسيترك أثره الأكيد على الجوانب النفسية والمجتمعية لحياة الطفل. سنحاول في هذا التحقيق تسليط الضوء على بعض آثار الحرب النفسية والتعليمية والصحية على الطفل السوري.

* خريجة تربية وعلم نفس، ومدونة ومهتمة بالشأن العام. عملت في مشروع دمج للأطفال المعوقين، كما تمرست وعملت في المجال الصحفي.

التعلّم بين مطرقة النظام وسندان المعارضة: حرمانٌ وتسرّبٌ وخطرُ الموت

تشير إحصائيات 'يونيسيف' إلى أن خُمس مدارس سوريا تعرضت للتدمير أو استُخدمت لأغراض عسكرية، وأنّ ثلاثة ملايين طفل سوري لا يواظبون على الدراسة في شكل منتظم، إذ أنّ كثيراً من الأسباب جعلت الطلاب يتسربون من المدارس، فضلاً عن تعرضهم لخطر الموت جرّاء القصف أو القذائف أو الاشتباكات أثناء ذهابهم إلى المدرسة.

ويبقى الأهل يعانون من الحيرة بين المخاطرة بحياة أبنائهم وبين حرمانهم من التعليم. يقول سمير، وهو أبٌ لطفلة في المرحلة الابتدائية في 'مدرسة المنار' في باب توما بدمشق: "حين سمعنا خبر سقوط قذائف الهاون على المدرسة كان شعور الخوف لا يوصف، والوقت الفاصل بين سماعي للخبر ورؤيتي لطفلتي لا يوصف. لم تصب ابنتي بأي أذى جسدي، لكنها لا زالت تعاني الخوف بسبب ما حصل لأصدقائها الذين أصيبوا أو استشهدوا، أو فقدوا أعضاءهم. منذ الحادثة لم يعد لدي حيرة في القرار، وحسمت أمري بعدم إرسال طفلتي إلى المدرسة"

أما الطلاب في المناطق الخاضعة لسيطرة المعارضة السورية، فهم بالإضافة إلى الخطر، يعانون ظروفاً تعليمية سيئة، فضلاً عن حرمانهم من التعلّم في كثير من الأحيان. يقول سامر، وهو أستاذ في مدينة جرابلس الخاضعة لسيطرة المعارضة في الشمال السوري: "رغم أنّ المدارس الحكومية هنا بقيت تدرّس المناهج الرسمية -ماعدا مادة القومية- ورغم استمرار تقاضي الأساتذة رواتبهم من الحكومة السورية، إلا أنّ مستوى التعليم يشهد تراجعاً ملحوظاً، بسبب نقص في عدد الأساتذة والتجهيزات المدرسية والكتب والرقابة التربوية، وعدم تعاون بعض الأهالي بسبب خوفهم على أبنائهم". ويتابع سامر: "هذا وناهيك عن طلاب الشهادة الثانوية، الذين لا يستطيعون في هذه الظروف الخضوع للامتحانات العامة وهم في المناطق المحاصرة. ورغم قيام الائتلاف السوري المعارض بإجراء امتحانات للطلاب ومنحهم شهادات، إلا أنّ هذه الشهادات غير معترف بها وغير مجدية إلا في بعض الجامعات الخاصة".

مدرسة في منطقة باب توما شرقي العاصمة دمشق سقطت عليها قذائف الهاون في آذار/مارس 2014

ويؤكّد موجّه تربوي (رفض ذكر اسمه) في مديرية تربية حمص أنّ الحكومة السورية تقدّم كافة التسهيلات للمدارس حتى في مناطق سيطرة المعارضة، ويقول: "أقامت الحكومة السورية مراكز امتحانية لطلاب الشهادات في منطقة الرستن، غير الخاضعة لسيطرتها، ولازالت الحكومة تقدّم رواتب للمدرّسين في هذه المناطق، رغم العمليات التخريبية التي طالتها من قبل المسلحين".

ترميم فجوات التعلُّم في مدارس بديلة

رغم صعوبة الظروف التعليمية التي يعاني منها الأطفال في سوريا، يسعى الناشطون المدنيون والمجتمع الأهلي المحلي للبحث عن حلول بديلة، ومبادرات لترميم الثغرات التعليمية الحاصلة. ولعل الدور الأكبر يعود لها، خاصّة في المناطق المحاصرة، أو التي تقع تحت سيطرة المعارضة. نسرين حسن من 'المركز السوري لحقوق الطفل' تقول: "نسعى لتطوير منهج جديد يقوم بتعويض الأطفال عمّا فاتهم من تعليم بعد تسرّبهم من المدرسة بسبب ظروف الأزمة السورية، وأن نحصل على ترخيص للعمل وفق قوانين التعليم السوري، كي نُجنّب الأطفال خسارة سنوات من عمرهم، إذ يجد الأطفال صعوبة للعودة إلى مراحل متأخرة بعد تسربهم من المدرسة لسنة أو أكثر".

ويقول أحد ناشطي مدينة عربين في الغوطة الشرقية: "نقوم بشكل دوري، وحسب المستطاع بإقامة أنشطة تعليمية للأطفال. كما نُقيم حسب الإمكانيات المتاحة دورات لطلاب الشهادات الإعدادية والثانوية". بينما يقول أبو زياد، وهو ناشط في ريف مدينة القنيطرة، إنّ الناشطين يقدمون تعليماً بديلاً لحوالي 600 طفل في المناطق المحاصرة التي تدمرت جميع مدارسها. ويضيف: "حاولنا ترميم إحدى المدارس، وقمنا بتوفير مستلزمات العملية التدريسية، ومن بينها الكادر التعليمي المكوَّن من 30 مدرساً، يتقاضون أجوراً رمزية من 'جمعية مدد' في المنطقة".

ديما نقولا من الفريق الصحفي في دلتا نون (يمين) مع السيدة نسرين حسن (يسار)

مُخلَّفات الحرب على أجساد الأطفال: إعاقات وفيروسات..

داخل مؤسسة مدد للتعليم – كانون الثاني/يناير 2014

في حين لا توجد نسب واضحة لتزايد الإعاقات، وخصوصاً بين الأطفال في الوقت الحالي، ذكرت 'منظمة الصحة العالمية' أنّ 60% من المراكز الصحية داخل سوريا تدمرت، وانهارت ثلث محطات معالجة الماء، بينما انخفضت معدلات التطعيم، كل هذا أدّى إلى ظهور الأمراض الفتّاكة من جديد بما في ذلك شلل الأطفال.

تقول مي أبو غزالة مديرة 'مشروع الرياض الدامجة' في سوريا: "الأزمة والحروب لها من الأثر الجسدي الكثير على أطفالنا، وأخطر آثارها الإعاقات والتشوّهات الجسدية التي تنتج من القتل والعنف الدائر في البلاد، وعليه سيكون للمرحلة القادمة نصيبها من زيادة الإعاقات، هذا بالإضافة إلى ما تنتجه الحرب والأزمة من أمراض وفيروسات تؤثر على صحتهم من خلال نقص المواد الغذائية والطبية، فضلاً عن بعض الفيروسات التي بدأت تنتشر في بلادنا، ومنها شلل الأطفال".

تتابع أبو غزالة: "يجب ألا نتحجّج بالأزمة التي تمر بها البلاد، بل أن نستمر في العمل لتفعيل قوانين برامج الاهتمام بذوي الإعاقة، وأن نقوم بنشر التوعية والثقافية الإيجابية نحو المعوقين".

في مواجهة الحرب: أطراف صناعية ودمج تعليمي مجتمعي

السيدة مي أبو غزالة (يمين) وديما نقولا من الفريق الصحفي في دلتا نون (يسار)

يقول الدكتور أنس عنجاري من 'المشروع الوطني السوري للأطراف الصناعية' في ريف إدلب: "إنّ مشروعنا خيري يقدّم خدماته مجاناً دون تمييز أو تفاوت لأي سوري، يكفي فقط أن يكون سورياً مهما كان انتماؤه الآخر. نحن نقدم الأطراف الصناعية للأطفال والبالغين، وهدفنا الأبعد أن نقدم خدمة متكاملة المراحل، ابتداءً من تهيئة المريض نفسياً وجسمانياً وتركيب الطرف البديل،

والتدريب على السير مجدداً، انتهاءً بإعادة تأهيل المريض اجتماعياً ومساعدته على العودة لعمله السابق، والانخراط كعضو فاعل في المجتمع".

وعن مفهوم دمج الأطفال ذوي الإعاقة تعليمياً ومجتمعياً تقول مي أبو غزالة: "مفهوم الدمج هو من المفاهيم التي تسعى إلى تربية مختلفة تستند على قبول الآخر أياً كان اختلافه. وبالإضافة لكونها إحدى آليات تطوير البيئة التعليمية، فهي أيضاً ما سيترك الأثر على جيلٍ قادم لابد أن يغير ثقافته بالتقبُّل أولاً، والتعبير بحرّية ثانياً، ومراعاة احتياجات الآخر ثالثاً". تتابع مديرة 'مشروع الرياض الدامجة': "علينا أن نسعى -رغم كل ما تمر به البلاد- للعمل على التنمية دون توقف، وبطرق وآليات تتسم بالمرونة والتكيُّف، اللتين تُعتبران أحد الدروس المستفادة من مشاريع التنمية حتى في الأزمات، حتى لانعود بالبلاد إلى الوراء، ونقف بانتظار حلٍّ سياسيّ، أو آخر يضيف التأخر لمجتمعاتنا النامية".

نفسيّة الطّفل السوري: عنفٌ وحزنٌ يدور في حلقاتِ الدّعم النفسي

بينما تقدّر 'يونيسيف' أنّ مليوني طفل في حاجة إلى دعم وعلاج نفسي، يؤكّد الواقع السوري أنّ جميع الأطفال السوريين في حاجة إلى رعاية نفسية في ظل ما يتعرضون له من عنف مباشر أو غير مباشر. فبين قصفٍ واشتباكاتٍ وقذائف، وبين فقدان ونزوح وتهجير، والتعرّض لزخمٍ إعلامي يغطي بشاعة الحرب ولا يراعي نقاوة الأطفال، لن تجد طفلاً لم تترك الحرب جراحها وندباتها على نفسيته وسلوكه.

تقول الناشطة في مجال الدعم النفسي للأطفال براءة: "الظروف الراهنة فرضت على الأطفال طريقة نمو وتفكير متماشية مع الحرب التي دخلت في لغتهم وأحاديثهم. البيئة الاجتماعية تترك أثرها على الطفل، فوجود الكبار ضمن ظروف حرب سينعكس على الطفل في شكل أو آخر، وحتى في أسلوب تعاطيهم مع الآخرين، وفي الألعاب التي يلعبون بها، حيث أصبح الأطفال يفضّلون ألعاب الحرب والبوارید والجنود والدبابات. ولا يمكننا أن نعزل الأطفال عن بلد يعيش حرباً وهم فيه، ولكن ربما يمكننا بقليل من التوعية جعل الأطفال يدركون كيفية التعامل مع نتائج الحرب بأقل أذية ممكنة".

تتابع براءة: "تركت الحرب آثارها على الأطفال، ومن الموجع أنّي أتعامل يومياً مع أولاد سبقوا أعمارهم، عانوا الفقدان والرفض، وبعضهم يعيل أسرته وهو لم يتم العاشرة من عمره بعد، فيما آخرون أورثتهم الحرب عنفها وغضبها، والبعض أخذوا منها الصمت والعزلة، والكثر أخذوا الحرمان. لكنّ أجمل ما يحدث هو أننا نستطيع مع الوقت تشكيل حلقة تمسك بأيدي بعضها البعض رغم كل ما تعاني منه".

وختاماً

بينما تتلخص الحقوق البدهية للطفل بحق الحياة، وحق البقاء، وحق النماء، وحق الرعاية الصحية، وحق التعلم، وحق احترام رأي الطفل، وحق حمايته من الاستغلال، نجد أنّ الحرب لا تحترم الاتفاقيات، وأنّها لم تترك حقاً من حقوق الطفل السوري إلا وقامت بانتهاكه، لتهدد مستقبل جيلٍ كاملٍ من الأطفال، تربى وكبر على حربٍ بعضهم لم يرى غيرها بعد. وهذا ما يؤكد على ضرورة فتح أبوابٍ جديدة لتفعيل أدوار المجتمع المدني والمحلي للبحث عن حلول بديلة تضمّ الطفل إلى كنفها قدر المستطاع.

دراسات

- الحروب الأهلية بين المظلومية والطمع
- من البنية التحتية لوسائط النقل إلى السياسة في بيروت
- تيار العبث بين الفلسفة والمسرح
- الدولة السورية بين مصيدة القوة والمدى
- فن الشارع في إيران واستعادة الحيز العام
- حق الجوار كوسيلة للخروج من المستنقع الطائفي

سنان حواط*

الحرب الأهلية بين المظلومية والطمع

دراسة نظرية حول العوامل الفاعلة في الحروب والإضرابات الأهلية

الخلاصة:

تهدف هذه الدراسة النظرية المختصرة إلى تسليط الضوء على مفهومي الطمع والمظلومية Greed and Grievance اللذين يستخدمان لدراسة أسباب نشوب الحروب الأهلية وآليّاتها. ففي حين يرى عددٌ من الباحثين أن العامل الحاسم في الحروب الأهلية هو الطمع والرغبة بتحقيق المكاسب المادية، يرى آخرون أن هذه النظرة تهمل الجوانب الأخرى للدور البشري الفاعل Human Agency وتفشل فى تفسير كثيرٍ من الاضطرابات المحلية. ستوضح هذه الدراسة الخطوط العريضة لهذين المفهومين مع الاستعانة بعددٍ من الأمثلة من الحروب والاضطرابات الأهلية في عددٍ من بلدان العالم. وستعمل هذه الدراسة على توضيح كيف يتقاطع هذان المفهومان إلى حدٍّ بعيدٍ على أرض الواقع.

* باحث أكاديمي مقيم في لندن يعمل مع عدد من المنظمات والمراكز البحثية، ومتخصص في التنمية العالمية في مناطق النزاعات. حائز على شهادة الماجستير في إدارة التنمية من جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وعلى دبلوم في الدراسات الإسلامية والإنسانية من معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن.

مع كل اندلاع لصراع أهلي في منطقة الشرق الأوسط أو العالم، يظهر سؤال محيّر حول العوامل المسببة لهذا الانحدار إلى العنف والأسباب التي تؤدي إلى نزوع المقاتلين إلى ارتكاب الفظائع ولاسيما بالسكان المدنيين. مما لاشك فيه، تحتاج الإجابة الدقيقة لمثل هذه الأسئلة إلى بحث مستفيض تاريخي وسياسي لا يتسع له بحثٌ واحدٌ بل يتطلب الكثير من العمل والوقت. ولكن يبقى السؤال العام، هل من الممكن مثلاً حصر ما يجري اليوم بالعراق بوجود خلل بنيوي في آليات الدولة العراقية سمح بتوفر الفرصة للمليشيات للاستيلاء على أكثر المناطق النفطية غنىً بدون فهم المظلومية العميقة التي تشعر بها فئة كبيرة من العراقيين بسبب الغبن والتهميش؟ من ناحيةٍ أخرى هل يكفي في سوريا أن نحلّل أسباب الصراع السياسية والاجتماعية العامة على المستوى الدولي بدون فهم العوامل الموضوعية والذاتية للمحاربين على الأرض؟ الأسئلة نفسها تنطبق على الكثير من الحروب الأهلية سواء في شرق أوربا أو إفريقيا.

من أجل الفهم النظري للحروب الأهلية والصراعات المحلية، ستتمحور هذه الدراسة النظرية المختصرة حول مفهومي الطمع والمظلومية Greed and Grievance اللذان يشكلان مفهومين متناقضين ومتكاملين في آن، ومنطلقين نظريين لتفسير انحدار المجتمعات إلى الحروب والإضرابات الأهلية. ففي حين يرى عدد من الباحثين أن العامل الحاسم في الحروب الأهلية هو الطمع والرغبة بتحقيق المكاسب المادية، يرى آخرون أن هذه النظرة تهمل الجوانب الأخرى للدور البشري الفاعل Human Agency وتفشل فى تفسير الكثير من الإضرابات المحلية.

في شكل عام يعمل الداعمون لمفهوم دور الطمع في الحروب على التأكيد أن الحرب ليست سيئة للجميع وليست مضرّة للأعمال التجارية جميعها. على العكس، تشكل الحرب مصدراً هاماً للدخل والربح لبعض الأفراد. بالطبع يتضرر كثيرون من الحرب، ولكن الأقليّة المستفيدة تربح الكثير وهي الأكثر تأثيراً وقدرة على الفعل في الحروب. أما الأكثرية المتضررة فهي غالباً ما تكون بلا قدرةٍ على التأثير. إن خلق خللٍ في هذه الخريطة الاقتصادية والاجتماعية أساسيٌّ لبناء السّلام الذي يتحقق عندما تتغير مصالح الأقلية

المستفيدة القادرة بطريقة ما لتصبح متلائمة مع السلام.

ولكن في المقابل يؤكد أولئك الداعمون لمفهوم دور المظلومية في الحروب على أنه لا يمكن تفسير نزوع المجتمعات البشرية للعنف بسبب العوامل الاقتصادية وحسب. فالإنسان ينزع بطبعه إلى العنف في حالات كثيرة كالشعور بالإهانة، ولتأكيد الذات الشخصية، ولاسيما عندما يترافق الفعل العنيف مع القيم الكبرى كالوطن والكرامة والشرف. كما ينزع الإنسان للعنف عند وجود الظلم وانعدام العدالة.

ستعتمد هذه الدراسة النظرية المختصرة على دراسة العوامل المؤثرة في الحروب. في البداية سوف تناقش الدراسة علاقة الحرب بالعوامل العقلانية الموضوعية Rational Factors وسوف تسرد النقاش الذي يقدمه بول كولير في محاولته لإثبات أن العوامل المتعلقة بالظلم وانعدام العدالة لا تكفي لإشعال الحروب الأهلية، بل إن العوامل الموضوعية الاقتصادية هي المؤثرة في الدخول في هذه الصراعات. بعد ذلك تسرد الدراسة الرأي المقابل الذي يقلل من أهمية العوامل الموضوعية في انحدار المجتمعات إلى العنف لصالح العوامل العاطفية الذاتية. تلجأ هذه الدراسة إلى الاستعانة بعددٍ من الكُتَّاب والدراسات النظرية، وستعمل على تقديم عددٍ من الأمثلة من الصراعات والحروب الأهلية في العديد من البلدان. وفي النهاية ستوضح الدراسة أن العوامل الموضوعية والذاتية تعمل معاً في صورة متوازية، مشكّلةً مناخاً مناسباً لاستمرار الحرب وإذكائها. ففي حين تشكّل العوامل الموضوعية الاقتصادية الأساس الذي يحرّك الطبقات العليا (القادة)، تكون العوامل الذاتية العاطفية الأكثر تأثيراً على الطبقات الدنيا المحاربة.

الحرب والعوامل العقلانية الموضوعية

انتشرت الدراسات المتعلقة بدور العوامل الاقتصادية في الحروب في شكل كبير في كتابات السلام والحرب في القرن الماضي. تتمحور هذه الدراسات حول مفهومي الطمع والمظلومية Greed and Grievance ودورهما المحتمل في إشعال الحروب الأهلية. يؤكد أصحاب فكرة المظلومية في طرحهم على أن العامل الأساسي المسبب للحروب الأهلية هو الصراعات الإثنية والطائفية التي تندلع بسبب الظلم وانتهاك حقوق الإنسان. ولكن من ناحية أخرى يعتقد أصحاب مفهوم الطمع أن العوامل الاقتصادية هي الفاعلة فقط في اندلاع الحروب الأهلية، وأن خطاب المظلومية يلعب دوراً فقط لتبرير الأعمال العسكرية وضمان استمرارها.

من أشهر الكتّاب تأثيراً في دراسة العوامل الإقتصادية في الحروب هو البروفسور الإنكليزي بول كولير Paul Collier الذي تعتمد مقاربته على دراسات إحصائية للبلدان التي مرّت بحروب أهلية خلال الأعوام 1960 حتى العام 1995. باستخدام هذه المقاربة وجد كولير عدداً من الاستنتاجات الهامة التي استخدمها لوصف وتوقُّع الحروب الأهلية بعيداً عن الجدل الذي يتعلق بالعدل والمظلومية في تفسير اندلاعها. فعلى سبيل المثال وجد كولير أن احتمال نشوب الحروب الأهلية يزداد مع زيادة نسبة الصادرات الأولية في الناتج المحلي. هذه الصادرات تشكل مصدراً للسرقات ومحفزاً للصراعات الأهلية. تشمل هذه الصادرات الكثير من المواد أبرزها الألماس (الذي لعب دوراً في الحرب الأهلية في سيراليون)، والنفط (لعب دوراً في الحرب في الكونغو وأنغولا)، وحتى الخشب (الذي لعب دوراً في الحرب في ليبيريا) (Ross, 2002).

كما وجد كولير أن ازدياد نسبة الشباب في المجتمعات يزيد من احتمال حصول الحروب الأهلية

لأن الأطراف المتحاربة ستجد الخزان البشري اللازم للقيام بالأعمال الحربية. اعتماداً على ذلك استطاع كولير الربط الإحصائي بين مستوى التعليم واحتمال اندلاع الحروب الأهلية، من خلال افتراض أن عدم وجود مصادر متعددة للدخل، كما في حالات انخفاض مستويات التعليم، يدفع الشباب للالتحاق بالأعمال المسلحة. كمثال على ذلك يذكر كولير مثال الحرب الأهلية الروسية في 1919 – 1920 بين الجيشين الأحمر والأبيض، حيث لوحظ فيها النقص الهائل في المقاتلين في فترة الصيف حيث ينشغل معظم المقاتلين في أعمال الحصاد.

يسترسل كولير طويلاً في دحض كل المزاعم التي تفترض أن الحروب تنشأ لأسباب تتعلق بالحاجة للعدالة أو كحالة للرفض لحكومة ظالمة، مبرّراً ذلك بوجود معضلة في العمل الجماعي Collective Action الذي تتطلّبه الحرب. يرى كولير أنه من الصعب البدء بالحرب بسبب ارتفاع تكاليف المشاركة بمعارضة النظام القائم بالنسبة للفرد. يُشار هنا لمعضلة Free Riding أو ما يمكن ترجمته بالركوب الحر. يقول كولير أنه في حالة وجود ظلم ضد جماعة أو فئة في المجتمع فسيبقى الخيار العقلاني Rational Choice للفرد المتعرّض للظلم هو الإحجام عن المشاركة في أعمال معارضة عسكرية قد تسبب له الموت أو الاعتقال، حيث بإمكان هذا الفرد الانتظار حتى نجاح الحركة المعارضة المسلحة لينعم بفوائد زوال الظلم الحالي، بدون تحمل تبعات النضال للتخلص منه. حتى في حالة الظلم الواضح وعدالة قضية المظلومين، يبقى الخيار الفردي عند مجموع الأفراد هو انتظار بعضهم للدخول بالحرب، وبذلك يفشل القرار الجماعي بسبب الخيار الفردي الأناني. يرى كولير أن الطريقة الوحيدة للخروج من هذا الاستعصاء هي وجود مصلحة آنية تقنع المقاتلين بالخروج على النظام القائم خصوصاً في المراحل الأولى، حيث تكون تكلفة القتال هي الأعلى لقوّة الحكومة وقدرتها على الانتقام. يستخدم كولير هذه المعضلة لتفسير عدم كفاية وجود الظلم لتفسير دخول البلاد بتوترات وحروب.

الحرب والعوامل الذاتية الإنسانية

من غير المستغرب أن تلْقى أفكار بول كولير انتقادات واسعة بسبب إرجاعها النزاعات المحلية بالكامل لأسباب عقلانية موضوعية دون قبول العوامل الذاتية الإنسانية. ينظر كولير للحروب بمنظار السوق. حيث يرى العدالة سلعةً عامةً تشبه الماء والهواء. وباستخدام هذا المنظور يناقش كولير خيارات الأفراد برفض الحكومات والانغماس في القتال كخيارات اقتصادية تشبه تلك المتعلّقة بشراء سلعة أو الدخول في علاقة تجارية معينة. يمثل كولير النظرية الاقتصادية الكلاسيكية القائمة على الخيار الرشيد المعتمد على ميزان الربح والخسارة، مهملاً دور الأحاسيس الإنسانيّة التي تلعب دوراً كبيراً في اتخاذ القرارات، وذلك بعيداً عن الخيارات المنطقية العقلانية التي يُفترض أن تتسم بها الخيارات الاقتصادية.

هناك العديد من العوامل النفسية التي تؤثر على جنوح الإنسان للعنف والانخراط في الأعمال الحربية. هذه العوامل لا تتعلق بالخيارات الموضوعية العقلانية الذي يتحدث عنها كولير. فعلى سبيل المثال جيمس غليغان James Gilligan يرى أن شعور الإنسان بانتهاك كرامته الإنسانية هو من العوامل الهامة التي تدفع الإنسان للعنف، وبالتالي البدء بالحروب. استنتج غليغان هذه الخلاصة من خلال دراسته لقصص العنف عند السجناء، ووضّح بأنه من الممكن تطبيقها على الحروب مثل العنف في العراق والشيشان.

قد ترتبط العوامل النفسية أيضاً بالقيم العاطفية عند الإنسان. فعلى سبيل المثال يتأثر الإنسان بالجوانب العاطفية التي ترتبط بالوطنية ومفاهيم البطولة والإقدام. تعزّز هذه الأفكار العمل الجماعي المشترك باتجاهات مختلفة قد يكون أحدها العمل الجمعي باتجاه العنف. بهذا المعنى يصبح العمل الجماعي، الذي تحدّث بول كولير عنه وأشار إلى عدم إمكانية حدوثه بدون توفّر الحافز الإقتصادي، ممكناً بسبب وجود حوافز عاطفية قد تكون بديلاً عنه. كمثالٍ عن ذلك، تشير البروفسور إليزابث وود Elizabeth Wood، في دراستها عن الحرب في السلفادور، أن العوامل المتعلقة بالشرف وتأكيد الذات والكرامة هي من أهم العوامل التي قامت بتحفيز المتمردين على الثورة في السلفادور. وكتبتْ وود أن المقاتلين أوضحوا لها أن المشاركة في الثورة تجلب للمقاتل سعادةً وفخراً لا يناله المتفرّجون أو الصامتون. لذا كان هناك فوائد عاطفية لا اقتصاديةً من المشاركة بالثورة.

من ناحية أخرى ترى فرانسيس ستوارت (Stewert, 2000) أن التباين الاقتصادي بين الطبقات الاجتماعية يمكن أن يُسْتَغَل من قِبل القادة لبناء وعيٍ جمعيٍّ Group Consciousness قد يُستخدم لخلق البيئة الملائمة لحدوث الحروب والإضرابات. يغذّي هذا الوعي، حسب ستوارت، التفاوت الأفقي Horizontal Inequality بين الطبقات. يأتي التأكيد على التفاوت الأفقي من حقيقة أنّ له خطورة كبيرة في إدخال المجتمعات في الصراعات الأهلية. فعلى سبيل المثال، التفاوت في المجتمع موجودٌ في كل مكان، كالبرازيل وكينيا وتايلاند، دون أن يتسبّب ذلك بالضرورة بالدخول في صراعات أهلية مسلحة. يعود السبب في ذلك إلى أن حساب التفاوت في هذه الحالات يركّز على التوزع المطلق للدخل دون حساب البعد الاجتماعي لهذا التفاوت. يناقش هذه الفكرة أيضاً البروفسور أمارتيا سن (Sen, 2011) ويوضح أنه عندما يرتبط التفاوت الاقتصادي بين الطبقات بتفاوتٍ آخر غير اقتصادي، فإن هذا التفاوت يصبح عاملاً أساسيّاً في إذكاء الصراعات الداخلية. فإذا كانت الطبقات الفقيرة اقتصادياً تتمايز عن الطبقات الأخرى بعوامل غير اقتصادية، مثل اللون أو الدين، فإن هذا التفاوت يصبح حاسماً في تشجيع الصراعات الأهلية. يرى سن أيضاً أن هذا النوع من التباين الاجتماعي خطير لأنه لا يظهر بالضرورة آنيّاً بل يشكل ذاكرةً من المظلومية التي قد تنفجر في أيّ لحظة في المستقبل. على هذا المبدأ يفسّر سن الصراع في شمال ايرلندا بأنه نتاجٌ لماضي إنكلترا الظّالم لأيرلندا. وباستخدام نفس الفكرة يتوقع سن أن السياسات المجحفة في الشرق الأوسط قد زرعت الكثير من بذور الصراع للمستقبل.

توازنات الصراع

إن التركيز على مجموعة واحدة من عوامل الصراع من شأنه أن يخرّب جهود التسوية وإحلال السلام بعد الحروب الأهلية لأنه يعكس اضطراباً في فهم آليات النزاعات المسلحة. ولكن يبقى التركيز النظري من الأهمية بمكان لمعرفة الديناميكية التي تتطور بها الحروب الأهلية.

تتقاطع مفاهيم المظلومية والطمع في الحروب الأهلية في كثير من المواضع. فمثلاً يشكّل التفاوت الاقتصادي بين الطبقات الاجتماعية المتمايزة في الحروب مساحةً للتلاقي بين نظريتي الطمع والمظلومية، حيث يشكّل الفقر الذي تعاني منه طبقة اجتماعية محددة حالةً من المظلومية التي قد تسبّب الانزلاق في العنف. المظلومية هنا مادية، ما يجعل انخراط الفئات الاجتماعية المظلومة يشابه السعي المادي الذي

يحفزه الطمع الذي يدفع بالبعض للدخول في الحروب.

إن فهم العناصر الاقتصادية في الحروب هو من أكثر الأمور حسماً في الصراعات، لأن الأرباح التي يجنيها أمراء الحروب من حالة الحرب تزودهم بالحوافز الكفيلة بتخريب الجهود اللازمة للسلام. ففي حالة الدول النامية التي تعاني من تبعات الحروب من عقوبات، ومن تبعات السياسات الاقتصادية العالمية، يصبح المناخ الراعي للعنف هو البيئة الأنسب لنمو الأعمال غير القانونية المربحة التي لا تكون متوفرة في حالات السلام مع وجود دولة مركزية قوية. يخلق هذا مصلحةً حقيقيةً عند أمراء الحروب لإبقاء حالة الفوضى. وفي حالات العنف والفوضى تزدهر أيضاً التجارة السوداء الخارجة عن القانون. على سبيل المثال في فترة سابقة في أفغانستان، ارتبط في شكل أو بآخر حوالى 80% من الاقتصاد و30 إلى 50% من السكان ببعض جوانب تجارة المخدرات حسب تقديرات مجموعة الأزمات الدولية ICG في عام 2001. إن البيئة المناسبة لتجارة المخدرات هي الفوضى، لذا من مصلحة الكثير من أمراء الحروب الحفاظ على الفوضى لإبقاء مداخيلهم. ولكن، في الوقت نفسه، هناك حاجة حقيقية لفهم الدور البشري في الصراعات لأن إهماله يجعل جهود التسوية بأكملها فاشلة. على سبيل المثال، لا يمكن اختصار صراع كالكفاح الفلسطيني بمنظور مادي فقط، بل يجب فهم تاريخ الصراع والعوامل النفسية والذاتية التي تحيط به.

في الحقيقة يعمل قادة النزاعات إلى تشكيل بيئة تضمن توليد العوامل الذاتية التي تغذي المظلومية؛ من خلال التعليم، واستغلال الآثار النفسية الناتجة عن العقاب الجماعي للخصم، ومن خلال البروباغاندا. تضمن هذه البيئة استمرارية التجنيد ودوام المعارك. في شكل عام يبدو الصراع مؤلفاً من عدّة طبقات. الطبقات العليا وهي القادة، وغالباً ما تكون خارج حدود الصراع المسلح ولا تتأثر به بشكل مباشر. يطغى على هذه الطبقات العقلانية والموضوعية في اتخاذ القرارات العسكرية في الحرب أو النزاع الأهلي. لذا تتميز هذه الطبقات بالنزعة المادية أو الطمع. أما الطبقات الدنيا هي الطبقات المحاربة، وهي التي تتحمل تبعات الحرب وويلاتها. في حين أن الجوانب المادية قد تكون موجودة عند هذه الطبقات، وقد تدفعها لتقبل الخطر والانخراط في المعارك، لكن هناك الكثير ممن تدفعهم العوامل النفسية والعاطفية. لذا في كثير من الأحيان تعمل الطبقة العليا على استمرارية تأمين الدوافع العاطفية والنفسية من خلال التعليم والبروباغاندا، واستخدام مآسي الحرب وويلاتها لتجديد العداء تجاه الخصم، ما يضفي على معاناة الطبقة المحاربة المعنى والقيمة، ويحافظ على قدرتها على القتال. وبالتالي يصبح الطمع والمظلومية عجلتي الحرب الأهلية اللتين تضمنان استمرار احتدامها.

الخاتمة

يهدف الفصل بين العوامل المختلفة للصراع إلى تسهيل الدراسة النظرية والفهم الشامل للحروب وديناميكياتها. في هذه الدراسة النظرية تم التركيز على جانبين مؤثرين في اندلاع الحروب الأهلية واستمراريتها: الطمع والمظلومية. حيث يعزي بعض المفكرين انخراط المجتمعات بالنزاعات الأهلية إلى جملة من العوامل المادية الموضوعية المتمحورة حول مفهوم الطمع، في حين يؤكد آخرون على دور وجود الظلم وانعدام العدالة بين مكونات المجتمع في إشعال فتيل هذه النزاعات.

أظهرت هذه الدراسة رأي كولير بأهمية العوامل الاقتصادية للدخول في الحرب، ووضّحت أن بدون

هذه العوامل سيعاني الحراك العسكري من مشاكل العمل الجماعي، وعلى رأسها الركوب الحر Free Riding. ولكن الدراسة أظهرت أيضاً أن حصر فهم الحروب وتفسير مسبباتها على الجانب الموضوعي الاقتصادي غير كافٍ. حيث ناقشت الدراسة الكثير من العوامل النفسية والعاطفية التي تدفع الناس للانخراط في الحرب. أخيراً عمدت الدراسة إلى توضيح أن جميع العوامل تتفاعل على أرض الواقع في حالات الحروب. ففي حين تطغى على الطبقات العليا (القادة) في الصراع الأهداف الموضوعية الاقتصادية، تطغى على الطبقات الدنيا التي تحارب على الأرض العوامل العاطفية الذاتية. وتعمل الطبقات العليا من الصراع على استمرار توليد العوامل الذاتية العاطفية التي تضمن استمرار التجنيد والتبرير للحرب. إن التمييز بين العوامل الموضوعية والذاتية هو تمييزٌ نظريٌّ فقط يساعد في دراسة الصراعات، أما على أرض الواقع فتتداخل هذه العوامل مع بعضها إلى نحو كبير.

References

- Collier, P., 2000. Doing Well out of War: Economic Perspective. In: Greed and Grievance: Economic Agendas in Civil Wars. s.l.:The International Peace Academy.
- Gilligan, J., 2003. Shame, Guilt and Violence. Social Research , pp. 1149 - 1180.
- ICG, 2001. Central Asia: Drugs and Conflict, Osh and Brussels: ICG Asia Report.
- Ross, M., 2003. Oil, Drugs and Diamond: The Varying Roles of Natural Resources in Civil War. In: The Political Economy of Armed Conflict: Beyong Greed and Grievance. Colorado: Lynne Rienner Publishers , pp. 47 - 70.
- Sen, A., 2011. Peace and Democratic Society. s.l.:OpenBook Publishers.
- Stewert, F., 2004. The Root Causes of Humanitarian Emergencies. In: War, Hunger and Displacement: The Origins of Humanitarian Emergencies. s.l.:Oxford University Press, pp. 1 - 41.
- Wood, E., 2000. The Emotional Benefits of Insurgency. In: J. Goodwin, J. Jasper & F. Polletta, eds. Passionate Politics: Emotions and Social Movements. Chicago: University of Chicago Press, pp. 267 - 302.

أحمد عثمان*

ماذا تقول
وسائط النقل في بيروت حول سياساتها**

الخلاصة:

يتناول هذا المقال كيف يمكن قراءة اللامساواة الاجتماعية السياسية، في سياق منطقة بيروت الكبرى، من خلال عيوب البنية التحتية للنقل فيها. يمكن لجولة صغيرة في شوارع بيروت أن تكشف لنا 'سلسلة غذائية' من نوع ما، حيث تعامل البنى التحتية السيارات الخاصة المستهلكة كملوك، تتبعها في التسلسل السيارات الخاصة غير المستهلكة، يليها وسائل النقل العام، وأخيرا المشاة. هذه 'السلسلة الغذائية' تتجلى في التجاوزات الملموسة التي تقترفها السيارات الخاصة المستهلكة بحق مثيلاتها غير المستهلكة، والتي تقترفها وسائل النقل في شكل عام بحق المساحات المخصصة للمشاة. بالتوازي مع هذه الخصخصة المادية تدار عمليات خصخصة رمزية شاملة، حيث تخضع حيادية الشارع لأيقنة الحزب الذي يحكم الشارع – أيّاً كان هذا الحزب. المنهجية المستخدمة هي المشاهدات الشخصية الموثقة فوتوغرافياً، في حين أن الإطار النظري المستخدم هو نقاش إنريكي بنيالوسا حول اللامساواة المدينية.

* أحمد عثمان Ahmad Osman مرشح حالياً لشهادة ماجستير في برنامج 'سيتيز' لتصميم المدن في مدرسة لندن للاقتصاد. درس بالأصل التصميم الجرافيكي في الجامعة الأميركية في بيروت (2007)، وعمل كمصمم في شركة خاصة لمدة ثلاث سنوات قبل الشروع في التحضير لماجستير في الدراسات السياسية، أيضاً في الجامعة الأميركية في بيروت (2013). شمل بحثه السابق موضوعات متنوعة كنظرية الهندسة المعمارية الوظيفية، مناظير القراءة السياسية، السياسات اللغوية في العالم الناطق باللغة العربية وانتهاك المادة 2(4) من ميثاق الأمم المتحدة.

** هذه الدراسة ترجمة للنص الأصلي المرسل إلى مجلة دلتا نون باللغة الإنكليزية بعنوان: What Beirut's Transport Infrastructure Says About its Politics

مقدمة

المساواة قضية شائكة؛ في الظاهر تُقرأ وكأنها فضيلة لكنها غالباً ما تستخدم في الممارسة كذريعة للقضاء على التنوع. في سياق المدن، أشار ريتشارد سينيت Richard Sennett إلى مدى تلوث ممارسات خطط المدينة بمفاهيم الصراع، ومعاملة اختلافات الناس كمصدر تهديد لتتم محاصرتهم بدلاً عن معاملتهم كمصدر للمعرفة (1990). من ناحية أخرى، فقد افترض إنريكي پنيالوسا Enrique Peñalosa أن المساواة الاجتماعية هي أمر مرغوب به، وأنها قيمة تمكن قراءتها في شكل مباشر في بنية المدينة (2007).

من المثير للاهتمام أن پنيالوسا أشار في سياق نقاشه إلى فرانسيس فوكوياما Frances Fukuyama، ففي كتابه 'نهاية التاريخ' أشار فوكوياما إلى لبنان باعتباره تمثيلاً للحالة الأولية -التي تحدث عنها توماس هوبز- إذا ما تجسدت في الحياة الواقعية (2009)؛ وبالطبع فقد عنى فوكوياما بكلامه لبنان الحرب الأهلية عام 1975. إذ رغم كل هشاشة الوضع السياسي الحالي في لبنان فإنه لا يزال في عداد الدول الضعيفة، وليس الدول المنهارة، إلا أن ضعف وجود الدولة في مجال التخطيط المدني، وحتى في العاصمة اللبنانية بيروت، هو أمر صادم. من هنا فإنه من المفيد النظر في التفاوت الموجود في هذا المشهد، لأنه يشير إلى الاحتمالات التي يمكن أن تنشأ، ليس تحت حكم سيء بالضرورة بل تحت حكم في مستوياته الأدنى.

حين شرعتُ بالبحث الخاص بهذه الدراسة، كنت تائهاً في البداية بين أن أحصر بحثي بالضاحية الجنوبية لبيروت أو أن أعممه على بيروت كاملةً. يعامل الباحثون عادةً الضاحية الجنوبية لبيروت -أو فقط 'الضاحية' كما تسمى بالعربية اللبنانية- كحالةٍ قائمةٍ بحد ذاتها. يعود ذلك لكون الضاحية معقل 'حزب الله' وبالتالي لاستقلاليتها الوظيفية عسكرياً. ففي الضاحية تحافظ القوات المسلحة اللبنانية وقوى الأمن الداخلي على وجودٍ رسميٍّ محدد، فيما يتولى في الواقع حزب الله المسؤولية عن أمن المنطقة. لكن إذا ما نظرنا من منظار الحياة المدنية فإن الضاحية تحوي ذات الظواهر المنتشرة في باقي أنحاء بيروت (وإن كان هناك اختلافٌ في حدة انتشارها)، وبالتالي ستتم دراسة الضاحية ضمن الإطار الواسع لبيروت، وإن

كانت هناك ظواهر في الضاحية أكثر أو أقل حدةً من نظيراتها في باقي بيروت فسوف يتم تنبيه القارئ إلى هذا الأمر.

المستويات المتعددة للامساواة

من المعروف أن اللامساواة على الصعيد المدني تأتي بمستويات متعددة، ولتلخيص ما سيأتي لاحقاً، يمكننا الحديث عن 'سلسلةٍ غذائية' مدنية تعمل على النحو التالي: مشاة < نقل العام < سيارات عامة < سيارات خاصة

الشكل 1: سيارة مركونة تجبر المشاة على النزول إلى الشارع برج البراجنة (عثمان، 2014)

سندرس هذه 'السلسلة الغذائية' من خلال تفكيكها إلى الهيمنات الثنائية الأساسية، وهي هيمنة النقل العام على المشاة، ووسائل النقل الخاص على وسائل النقل العام، والمواصلات الخاصة المستهلكة على المواصلات الخاصة غير المستهلكة. خلف هذا الهيكل يوجد هيكلٌ آخر أقل حسيةً منه، ألا وهو سيطرة الرمزية السياسية على المجال العام.

1- هيمنة وسائل النقل على المشاة

تظهر علاقة الهيمنة تلك في ثلاثة مستويات. في المستوى الأول والأساسي، يتم تزويد المشاة برصيف للمشي، ولكنه في الواقع مشغول من قبل السيارات المركونة.

الشكل 2: طريق مسدود للمشاة، برج البراجنة (عثمان، 2014)

شاعت هذه الظاهرة نتيجة لنقص مواقف السيارات في بيروت، وكثرة سيارات الدفع الرباعي القادرة على اعتلاء الأرصفة. وحقيقةً فإن قانون المرور لا يطبق إلا في جزءٍ صغيرٍ من بيروت. كل من هذه الظواهر تعود أسبابها لمشاكل اجتماعية سياسية؛ فمواقف السيارات في بيروت نادرة بسبب اعتماد اللبنانيين على وسائل النقل الخاصة -وكي نكون دقيقين أكثر من 68% منهم (عون، 2010)- وهذا بدوره يعود إلى رداءة وسائل النقل العامة. وتكثر سيارات الدفع الرباعي لأنه في البيئة الاجتماعية اللبنانية يتم التعامل مع السائقين (في سيناريوهات ركن السيارة، أو عاقبة التعرض لحادث مثلاً) على أساس واسطتهم مع السلطة بدلاً من التشريعات الصارمة، لذا فإن شراء سيارة دفع رباعي هو استثمارٌ سليمٌ لأنها تعطي انطباعاً بالقوة والواسطة. وأخيراً

فإن قوانين السير تفرض في جزءٍ صغيرٍ من بيروت لأن قوى الأمن الداخلي اللبنانية تعاني من نقصٍ في العديد، لذا فإن تطبيق قوانين مرور كهذه لا تعد أولوية.

على المستوى الثاني يمكن الحديث عن تحويل رصيف كان موجوداً بالسابق إلى مساحة لركن السيارات، كما يبدو في الشكل التالي:

الشكل 3: خصخصة كامل الرصيف عبر استخدام التصميم
سانت تيريز (عثمان، 2014)

هنا، تمكننا رؤية تراجع البناء في شكل يتسع بالضبط لإيقاف سيارة واحدة عند الزاوية؛ السيارة تجتاح الرصيف بشكل كامل وتطرد المشاة إلى الشارع. من الواضح أن هذا التخطيط متاحٌ فقط للأغنياء أو للمستثمرين ذوي العلاقات القوية، حيث أن الحصول على رخصة بناء تغض الطرف عن الاستيلاء على الرصيف هو أمر يتطلب الوصول إلى سلطة البلدية.

أخيراً، وعلى المستوى الثالث فإن المشاة ببساطة لا يملكون رصيفاً من أي نوع، أو تُقَدَّمُ لهم مساحةٌ صغيرةٌ مثيرةٌ للسخرية.

نلاحظ في الشكل 4، عرض الطريق في برج البراجنة (الضاحية) ينحو بوضوح نحو استخدام الطريق باتجاهٍ واحدٍ للسيارات مع مساحة جيدة تبقى للرصيف. إلا أن الاستعمال الفعلي للطريق جاء بشكل حركة مرورية بالاتجاهين بالإضافة للمشاة الذين لا بد من مرورهم، والنتيجة رصيفٌ بعرض 40 سم بالكاد يتسع للقدمين، بدون أن يتسع للوركين أو الأكتاف التي تعلو هاتين القدمين. من الواضح أن هذا الرصيف لا يستخدم من قبل المشاة ولهذا فإنه يمثل للسيارات مساحةً مهدورةً بعرض 40 سم. مثل هذا الرصيف ليس ظاهرةً شائعة (رغم أنه ليس بحالةٍ فريدةٍ أيضاً). ولكن الشوارع التي لا يوجد فيها أرصفةٌ بشكل عام هي شائعةٌ بالفعل، وتمثل إصرار سلطات البلدية وتفضيلها استخدام الشوارع من قبل السيارات على حساب المشاة.

الشكل 4: رصيف بالكاد موجود بالمقارنة مع طريق باتجاهين، وصورةٌ لأحد المشاة، برج البراجنة (عثمان، 2014)

2- هيمنة السيارات الخاصة على وسائل النقل العامة

بسبب انعدام تطبيق أي خطط رئيسية في بيروت الجديدة (بيري وآخرون، 2004)، ولأنه لم يتم الاهتمام بالنقل المشترك في أيٍّ من الخطط الخاصة، لذا ليس هناك سوى مكان

الشكل رقم 5: سيارة أجرة تنزل راكباً عند زاوية، حارة حريك (عثمان، 2014)

واحد يعمل في بيروت كمحطة نقل (هو محطة شارل حلو)، أي كمكان حشدٍ تم تصميمه لتقوم وسائل النقل العامة بتحميل الركاب منه. عدا ذلك تعمل وسائل النقل العامة الثلاثة (سيارات الأجرة والسرفيس والباصات) بالطريقة التي يدعوها عامر الدر "مبدأ حيٍّ واركب" (2005)، حيث تتوقف وسيلة النقل ببساطة في أي مكانٍ يشير إليه الراكب للصعود أو النزول. من المثير للاهتمام أنه غالباً ما تكون الزوايا هي المكان الذي يختاره الركاب، وذلك بسبب كونها أكثر الأماكن وضوحاً للرؤية على الطريق.

كما نرى في الشكل 5، فإن الزوايا تشكل المواقع الأسوأ لتوقف السيارات حيث تعيق مرور السيارات الأخرى.

كما ذكرنا سالفاً، يعتمد معظم اللبنانيين على السيارات الخاصة وهذا -وإن كان جزئياً- يعود لحقيقة أنه لا قيمة مضافة للتجربة الحالية لوسائل النقل العامة؛ بما أن الشوارع مجهزةٌ لخدمة السيارات الخاصة، فلا توجد ممراتٌ خاصةٌ لمرور الفانات والباصات، ولا مواقف محددة لسيارات الأجرة. بالإضافة لوصف سائقي وسائل النقل العامة بأنهم سبب المضايقات على الطرقات، فإن هذا الوضع يحرم وسائل النقل العامة من قوتها الكلاسيكية، وهي السرعة النسبية نتيجة الممرات الخاصة. من الطبيعي إذاً ألا تكون وسائل النقل العامة خياراً إلا لأولئك الذين لا يملكون خياراتٍ أخرى.

3- هيمنة المواصلات الخاصة المستهلكة على المواصلات الخاصة غير المستهلكة

الأرصفة إذاً ليست سوى خيار، وهي -عند وجودها- تعتبر لقمةً سائغةً من قبل السيارات التي تستغلها كمواقف. الأسوأ من ذلك أنها في الواقع لا تخدم جميع السيارات على حد سواء. بل تعتبر ملكيةً خاصة للسيارات التي يقودها أصحاب الأماكن التي تتوقف عندها، حيث تعتبر ملكية الرصيف سلعةً استهلاكيةً؛ فإذا كان المكان متجراً تتم خصخصة الرصيف للاستخدام الحصري لزبائن المتجر، بينما إذا كان بناءاً سكنياً فيصبح استخدام الرصيف حصراً بسكان هذا البناء.

شكل 6: شارات مبتكرة تحجز الرصيف من أجل سيارات الزبائن، سانت تيريز (عثمان، 2014)

تعتمد خصخصة الرصيف على ثراء المالك. ففي أسفل السلّم التراتبي توجد تلك المتاجر التي لا تستخدم إشارات

تخصيص للرصيف، لكن أصحابها وموظفيها يراقبون الرصيف (يكون المتجر في هذه الحالة صغيراً بما يكفي للقيام بمهمةٍ كهذه)، مبعدين أي سيارة تحاول التوقف إن لم تكن تخص المتجر أو زبائنه.

رغم ذلك، فإنه وفي شكل متزايد تميل المتاجر لاستخدام شارات كالكراسي البلاستيكية أو شارات مبتكرة توضع جانب الرصيف، تشير في شكل واضح إلى أن هذه المساحة هي للزبائن فقط (انظر الشكل 6). ولأن هذا النهج واضحٌ فإنه لا يترك أي مجال لاعتبار الرصيف مساحة عامة، وبالتالي يقضي على أي محاولة لتوقف السيارات التي لا تخص المتجر أو زبائنه، بالإضافة لذلك فهو يوفر على صاحب المتجر عبء إبعاد السيارات في شكل شخصي.

أما في أعلى السلم فتأتي المتاجر التي تستخدم واحداً من هذه العناصر الثلاثة على الأقل: شارات مصممة بعبارة ممنوع التوقف (شكل 7)، خدمة شركات أمنية خاصة (شكل رقم 7 و8)، وخدمة ركن سيارات (شكل 9).

المثير للاهتمام في هذه المجموعة من التداخلات هو مضمونها الخفي: الآن بعد خصخصة المساحات العامة، حان الوقت للمتاجرة بها! أي هناك الآن، حرفياً، قطاعٌ من الاقتصاد اللبناني يتغذّى بأكمله على خصخصة وتحويل الأرصفة إلى سلع، الأمر الذي سيجعل الانتقال إلى الأرصفة العامة تجربةً صعبةً في حال تمت هكذا محاولة.

شكل 7: لافتات تناسب هوية المتجر سانت تيريز (عثمان، 2014)

شكل 8: خدمة ركن سيارات خاصة شعارها "أنتم في أيد أمينة" (عثمان، 2014)

شكل 9: خدمة ركن السيارات على الرصيف المجاور لمقهى سانت تيريز (عثمان، 2014)

4- سيادة الرمزية السياسية على المجال العام

بعيداً عن النطاق الحسي، تتجلى السيطرة في شكلٍ رمزيٍّ في شوارع بيروت، الموضوع الذي سنعالجه في هذا الجزء الآن. عام 2002، كتب سينيت "إن كل شخص يمتلك حقاً عاماً كدرع خفي، وهو الحق في أن يُترك وشأنه". هذه الفكرة لا تجد احتراماً في شوارع بيروت، وتحديداً في الضاحية، إذ ليس الحياد السياسي 'حقاً' لأي حيٍّ من الأحياء.

تظهر الصورتان أعلاه أعلاماً سوداء مرفوعة على جزيرة مرورية وعمود الكهرباء في ذكرى الإمام الحسين (أهم شخصية سياسية/دينية في المعتقد الشيعي). إذ مثلما تتحول الأرصفة إلى سلعٍ خاصة بالمتاجر المتاخمة لها، تأتي الأعلام إلى البنية التحتية المحايدة أصلاً وتحتلها، كما تحتل المساحات

المحيطة بها، واسمةً إياها على أنها 'شيعي-ضاحية-حزب الله'.

شكل 10: أعلام سوداء في ذكرى الإمام الحسين، وهو شخصية رئيسية في المعتقد الشيعي سانت تيريز (عثمان، 2014)

لا داعي للقول بأن الأعلام ليست الشكل الوحيد للأيقنة التي يُمْطَرُ بها سكان الضاحية يومياً، والشكل 11 هو توضيحٌ بسيطٌ لتنوع التقنيات التي تتم بها خصخصة المساحات العامة؛ ففي هذا التقاطع، الشكل المركزي (على اليسار) هو الركيزة التي يستخدمها حزب الله كمؤشر موسمي للاحتفالات الشيعية -حالياً ذكرى وفاة النبي محمد- بينما في أعلى اليمين يمكننا رؤية قطعة من الورق المقوى مقتطعة على صورة للإمام المهدي، ربما نُسيت من احتفالية ما خلال العام الماضي وربما تركت لتكون دليلاً للمؤمنين في الملبس. عند الجزء الأيمن السفلي يمكننا رؤية صورة من الورق المقوى لعماد مغنية، قائد كبير في حزب الله تم اغتياله من قبل الموساد الإسرائيلي عام 2007. الموجة الأخيرة من الأيقنة، ولسنا بحاجة لذكرها، ذكرى مقاتلي حزب الله الذين سقطوا ويسقطون حالياً في الحرب الأهلية السورية الحالية، لن أتوسع في الحديث عن هذا لأنه لا يختلف عن باقي الأساليب التي يتبعها حزب الله في الخصخصة الرمزية للمساحات العامة في الضاحية.

كما ذُكر سابقاً، فإن ظاهرة الخصخصة الرمزية تظهر في شكل أوضح في الضاحية وذلك كون مشروع 'حزب الله' الاجتماعي-العسكري هو الأكثر طموحاً بين باقي الأحزاب اللبنانية؛ طَمُوحٌ من حيث الفجوة بين المجتمع الحالي والمجتمع المرغوب بتكوينه. مع ذلك، فالشكل 12 هو تذكيرٌ سريعٌ أن الخصخصة الرمزية للأحياء هي ظاهرةٌ منتشرةٌ على نطاق بيروت ككل.

تعتبر الخصخصة الرمزية تجلّياً للامساواة لأنها تقوم على فرضية أن بعض الأفكار أعز من أخرى. ظهرت أعلام 'الحزب السوري القومي' أكثر من مرة في شوارع الضاحية لكن ظهورها في كل مرة لم يستمر أكثر من ثلاثة أيام متتالية. كما يمكن الكلام في شكل مماثل عن أعلام 'التيار الوطني الحر' في مناطق تسيطر عليها القوات اللبنانية مثلاً.

شكل 11: أيقنة دينية سياسية لأحد التقاطعات، حارة حريك (عثمان، 2014)

أقنعت أعوام الحرب الأهلية السبعة عشر اللبنانيين باستحالة التوصل لاتفاق اجتماعي-سياسي، حتى النقاش حول ما إذا كان لبنان عربياً أو فينيقياً قد توقف في شكلٍ كامل، وتحول إلى اتفاقيةٍ صامتةٍ أن لكل حيٍّ قناعاته الخاصة. كما نجحت قاعدة النأي بالنفس حتى الآن بالحؤول دون الحرب الأهلية، ولكنها تقوم بذلك عن طريق خنق النقاش الفكري العلني، والذي هو ركيزةٌ لا غنى عنها للوصول إلى العمومية التي تحدث عنها هابرماس (سينيت،

2008). الأهم من ذلك فالوضع الحالي في لبنان يحصر إمكانية الخلاف الأيديولوجي ما بين الأحياء-الطوائف وليس ضمنها، ما يسهّل عملية خنق الأصوات المعارضة ضمن الحي-الطائفة الواحدة، الأمر الذي يذكرنا بما ورد في مذكرة سينيت "الانسجام يمكن اكتسابه فقط على حساب التنوع" (1990).

الأمر الأكثر أهميةً هو أن الخصخصة الرمزية للمساحات العامة هي علامةٌ من علامات اللامساواة لأنها تفترض أن الفكرة المطروحة بحد ذاتها هي أهم من حق المواطن في أن يترك وشأنه. لهذا الطرح اعتراضٌ وجيه، هو أن "حق المواطن أن يترك وشأنه" محال، وذلك ببساطة لأن أي مدينة مليئةٌ بالرموز والإشارات في شكل يجعلها تتدخل في شأن المواطن، رغماً عنها، وهذا يتطابق ربما مع ما جاء في ملاحظة پنيالوسا "إن اللامساواة تتخلّل كل شيء حولنا لدرجة عالية لا نعود معها قادرين على التمييز بين الأمور الحتمية والأمور التي يمكن تغييرها" (2007). ولكن الرد على هذه الأمور المنتشرة يكون برفض الخضوع للأمور الحتمية، والإصرار على اعتبارها أموراً قابلة للتغيير حتى يثبت العكس. ولا شك أن منطقاً كهذا ممكن أن تنتج منه مساحات عامة مفرطةٌ في المساواة أو مفرطةٌ في الحيادية. ولكن ما يقترحه پنيالوسا في سياق المساواة، وما أقترحه أنا في سياق الحيادية، هو ليس الانتقال من الصبغات اللونية المختلفة إلى البياض الساطع، بل معاملة المواطن كشريك في صنع المدينة. بعبارة أخرى، فإن رفضي لتحميل المساحات العامة شتّى الأيقونات السياسية لا ينبع من ازدرائي للسياسة باعتبار أنها 'تلوّث' المساحات العامة، بل ينبع من اعتبار أن ربط السياسة بالمشهد الحياتي اليومي يؤدي لتشويه الاثنين في آنٍ معاً.

شكل 12: تكتل من الأيقونات السياسية حول بيروت. الصور الثلاثة في الأعلى A وB وC: القوات اللبنانية (حزب مسيحي يميني)، الصورتان في الوسط D وE: تيار المستقبل (حزب سني مائل لليمين)، في الأسفل إلى اليمين F: الكتائب اللبنانية (حزب مسيحي مائل لليمين). في الأسفل إلى اليسار G: الحزب القومي السوري (حزب علماني يميني). الصور التي لم يصوّرها المؤلف تم أخذها من المدونات التالية: مشربية، كيوي إنفو، فوتو بيروت، تاياد، وبيروت-نتسك.

مراجع البحث:

- Al Dour, Amer. Public Transport In Lebanon: A Proposal for Reforming the Jitney System: A Case Study of Beirut (Beirut: American University of Beirut MA Thesis، 2005)
- Aoun, Alisar. Traffic and Transit in Beirut, Lebanon (Beirut: American University of Beirut MA Thesis، 2005)
- Berry, I. et al. « l'entre- deux » Des politiques institutionnelles Et des dynamiques sociales: Liban، Maroc، Algérie، Mauritanie (Tours: programme de recherche PRUD، 2004)
- Fukuyama, Francis. The End of History and the Last Man (New York: Maxwell Macmillan International، 1992)
- Peñalosa, Enrique. The Endless City (London: Phaidon Press، 2007)
- Sennett, Richard. The Conscience of the Eye (New York: Norton & Company، 1990)
- Sennett, Richard. The Fall of Public Man (London، Penguin Books، 2002)
- Sennett, Richard. "The Public Realm"، The Blackwell City Reader (Hoboken: Wiley-Blackwell، 2008)
- Wood, E., 2000. The Emotional Benefits of Insurgency. In: J. Goodwin, J. Jasper & F. Polletta, eds. Passionate Politics: Emotions and Social Movements. Chicago: University of Chicago Press, pp. 267 - 302.

علاء الدين العالم*

تيار العبث
بين الفلسفة والمسرح

الخلاصة:

لطالما ساهمت الحروب والثورات في قلب النظم الفكرية، والاجتماعية، والسياسية في المجتمع، وأزاحت الأفكار الرئيسية إلى الهامش، واستبدلتها بما كان هامشياً قبلها، ومما لا شك فيه أن هذا التغيير الذي يصيب بنية المجتمع يفرز بدوره تيارات فكرية وثقافية جديدة نابعة من روح المرحلة الجديدة، وناتجة عن أثر التغير في كل من المجتمع والفرد على حد سواء. كونها من أهم الحركات التي أثرت في تاريخ أوروبا المعاصر إن لم نقل أهمها، ساهمت الحرب العالمية الثانية في تجديد بنية المجتمع الأوروبي وتغيير مفاهيمه وقلب كثير من المعتقدات والمسلمات التي احتلّت المركز في حياة الإنسان الأوروبي قبل الحرب. وكان لها دورٌ رياديٌّ، ليس في تغيير المجتمع الأوروبي وحسب، بل في تغيير بنية العقل الأوروبي بحيث التفت الإنسان الأوروبي إلى عوامل هذه الحرب ومسبباتها، وإلى نتائجها الكارثية التي دمرت أوروبا وقتلت أكثر من أربعين مليون نسمة، ما شكّل صدمة للعقل الأوروبي بهذا الكم من الوحشية التي مارستها عليه آليات الحرب وحممها. كان لهذه الصدمة دورٌ فعالٌ في إفراز العقل الأوروبي لأفكار جديدة وفلسفات معاصرة توازي مرحلة ما بعد الحرب وتتجاوب مع متطلباتها الفكرية، فنشأت مدراس فلسفية كان أبرزها الفلسفة الوجودية ورائدها جان بول سارتر، كما نشطت تيارات فكرية كانت قد بذرت بذورها الأولية قبل الحرب وأزهرت بعدها، ومثالها البنيوية مع روادها كلود ليفي شتراوس في الأنثروبولوجيا، ورولان بارت في النقد الأدبي، أيضا نشطت الحركة النسوية في أوروبا بعد الحرب مطالبة بحقوق المرأة في المجتمع ومساواتها مع الذكر ومن روادها سيمون دي بوفوار. ولا نغالي في القول إن أحد أهم التيارات الفكرية التي كانت نابعة من آثار الحرب العالمية الثانية المتمثلة بصدمة الإنسان الأوروبي وفشله في درء الآلة الإجرامية التي نشطت في الحرب، هي تيار العبث الذي قام على أرضية عجز الإنسان الأوروبي وذهوله من آثار هذه الحرب الضروس، فخصائص العبث -التي سنتوقف عندها في شكل تفصيلي لاحقاً- والتي تميزت باللامعقولية والخروج عن كل الأنماط الفكرية السائدة آنذاك لم تكن إلا رد فعل على هذا الكم الهائل من الخراب والدمار المادي والمعنوي الذي منيت به أوروبا بعد الحرب، إذ وقف الإنسان الأوروبي أمام هذه الجدارية المليئة بصور الخراب والدمار عاجزاً مذهولاً كافراً بكل مسلّمة، ومؤمناً بـ 'عبثية' الحياة ولا معقوليتها.

* خريج كلية الآداب، قسم اللغة العربية بجامعة دمشق. طالب في المعهد العالي للفنون المسرحية، قسم الدراسات المسرحية بدمشق. عمل في صحف محلية داخل سوريا (سكرتير تحرير مجلة 'الكفاح' الفلسطينية سابقاً، وصحافي في جريدة 'تشرين' سابقاً)، إضافة إلى صحف عربية مثل 'السفير' اللبنانية، و'الحياة' اللندنية، و'العرب' اللندنية.

تمهيد:
بحث في دقة المصطلح

أتت كلمة عبث في معجم لسان العرب: "عَبَثَ عَبَثًا خلَطَ الشيء بعضه ببعض، وعَبِثَ عَبَثًا لَعِبَ وهَزل واستخف"[1] ولعل المعنى الثاني لكلمة العبث هو الأقرب لمصطلح 'العبث' الذي يُطلق على هذا التيار الفكري والفني. فالعبث يأخذ معناه من لا معقوليته ولا جدواه، وهذا ما يشبه الهزل واللعب من حيث انتفاء الجدوى عن هذين الفعلين. وللوقوف أكثر على دقة المصطلح، أي مصطلح العبث، وجب علينا البحث عن الترجمة الدقيقة لكلمة absurd التي تترجم غالباً إلى العربية بمعنى العبث أو اللامعقول؛ ولعل عقلانية اللامعقول، تتضح لنا أكثر لو حاولنا فهم مدلولات هذه الكلمات -على ضوء المعاني الشائعة للكلمتين العربيتين كغيرهما من الكلمات فقدت معناها الحقيقي الأصلي- وذلك أن كلمة absurd (التي على أساس معناها الأصلي وصف ذلك المسرح بها) هي في أصلها اللاتيني تعني الشيء المتنافر، غير المتناغم، غير المتوافق، أو غير المنسجم. وبذلك يصبح ذلك الشيء -أياً كان- غير معقول وعبثياً. أما على وجه التحديد، فإن الشيء غير المعقول هو وضع الإنسان في الكون الذي نحن فيه كجزء من جزء صغير جداً من مجموع الذرات[2]. اعتماداً على ما سبق، يكون الشيء العبثي هو: "العلاقات غير المتوافقة. وبالتالي، فإن الشيء غير المتناغم أو المتنافر وغير المنسجم هو: وضع الإنسان مع نفسه المليئة بالتناقضات التي يصعب التخلص منها بدون المعرفة"[3].

والجدير بالذكر هنا هو ترجمة البعض لكلمة absurd بـ 'المحال' بدلاً من العبث أو اللامعقول، ولا يخفى أن مثل هذه الترجمة تتصف بالضعف والبعد عن مقاربة المعنى الدقيق، فالمحال لا يمت للامعقول بصلة، ولا يمكن لكلمة محال أن تعبر عن هذا التيار الفكري وما يحمله من أفكار لامعقولية تؤكد لاجدوى الفعل الإنساني وعبثيه وجوده.

1 ابن منظور ـ لسان العرب ـ تحقيق: عبد السلام عبد العزيز ـ المكتبة التنويرية ـ لبنان ـ الطبعة الأولى.
2 بيكيت، صموئيل ـ خمس مسرحيات تجريبية ـ ترجمة وتقيم: نادية النبهاوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ 1992
3 المرجع السابق ص22

هذا فيما يخص دقة تعريب المصطلح، أما فيما يخص معنى مصطلح العبث ودلالاته، فنرى صفة العبثي واللامعقول "تستعمل للدلالة على كل ما هو غير منطقي. أما كلمة العبث فتستعمل للدلالة على نوع من أنواع الكتابة المسرحية ظهر في الخمسينيات من هذا القرن. يُعتبر الناقد الإنكليزي مارتن إيسلن M. Esslin أول من أطلق تسمية مسرح العبث، وذلك في كتابة 'مسرح العبث'، وقد جمع تحت هذه التسمية كتابات يونسكو وبيكيت وبينتر وجينيه"[4].

نستخلص مما سبق أن أدق تعريب لكلمة absurd هو 'العبث'، كونها الشائعة في التعبير عن هذا التيار الفكري والمسرحي من جهة، وكون مفردة 'عبث' تختزل بداخلها معاني اللاجدوى واللامعقول. وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الأخطاء في استخدام مفردة العبث بحيث صار يطلقها العوام على كل فن لا يخضع لضوابط منطقية ولا يلتزم بمسؤولية محددة، وهذا من سبيل الخطأ الشائع.

العبث كتيار فلسفي

يخال للبعض أن تيار العبث ما هو إلا تيار مسرحي يتمثل بأعمال كل من صموئيل بيكيت ويوجين يونيسكو، ولعل السبب في ذلك الشهرة الواسعة للأعمال المسرحية التي وُسِمت بهذا النوع من المسرح، لاسيما مسرحية بيكيت 'في انتظار غودو'. لكن في حقيقة الأمر نجد أن للعبث بذوراً فلسفية موغلة في القدم، تتمثل في بعض الأساطير اليونانية القديمة التي تعرضت لمفهوم العبث -ولو أن الكلمة لم ترد في شكل مباشر- وعدّته جوهر حياة الإنسان وصفته الملازمة، وأكبر مثال على هذه الأساطير هي 'أسطورة سيزيف'. إن احتقار سيزيف للآلهة، ونأيه عن الموت، وسعيه للتمتع بالحياة دفع بالآلهة اليونانية للحكم عليه بحمل صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل، ومن ثم رميها إلى الأسفل، ومن ثم حملها إلى الأعلى ورميها إلى الأسفل، وهكذا دواليك. إن هذه الأسطورة تؤكد التفات العقل اليوناني الذي اختلقها إلى عبثية الوجود الإنساني، فكل إنسان ما هو إلا سيزيف يحمل صخرة أحلامه وأهدافه ورُؤاه التي ما تنفك عن السقوط، ولا يقنط سيزيف/الإنسان من إعادة الكَرَّة موقناً وراضياً بهذه العبثية وخاضعاً لها.

أسطورة سيزيف

"اللاجدوى نقيضة الأمل"[5]، قد تكون الجملة السابقة أبسط جمل كامو في كتابه المعنون 'أسطورة سيزيف'، وأكثرها تعبيراً عن معنى اللاجدوى. فإن العقل الأوروبي -كما ذكرنا سابقاً- تعرض لصدمة وضعته أمام حقيقة لا مفر منها، وهي حقيقة الحرب الدامية. إن هذا الكم الهائل من الدمار والقتلى أفرز حالة من الإيمان بلاجدوى الفعل الإنسان وعبثيته في الحياة، وبذلك ظهر تيار العبث مؤكداً عجز الإنسان عن مواجهة قدره العبثي، وعن مواجهة "لامعقولية العالم" كما يعبر عنها كامو. ويمكننا القول أن كتاب كامو هذا كان الحجر الأساس لفلسفة العبث بعد الحرب العالمية الثانية، إذ يؤكد كامو فيه أن "هذا العالم غير معقول، ولكن اللاجدوى تمكن في مواجهة اللامعقول"[6]، فالعالم عند كامو يتأرجح على طرفي نقيض من لا جدوى الفعل من جهة، ولا عقلانية العالم من جهة أخرى.

4 الياس ماري، قصاب حسن حنان: المعجم المسرحي، تقديم سعد الله ونوس، دار ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.

5 كامو البير ــ أسطورة سيزيف ــ ترجمة: أنيس زكي حسين ــ مكتبة الحياة ــ لبنان ــ بيروت ــ 1983.

6 المرجع السابق ص54

يبحر كامو في 'أسطورة سيزيف' معبراً عن معنى اللاجدوى، ويضعها موضع العقدة بين العالم والإنسان، فاللاجدوى "تعتمد على الإنسان قدر اعتمادها على هذا العالم، وفي الوقت الحاضر فإن اللاجدوى هي الرابطة الوحيدة بينهما"[7].

فكامو يرى مزيداً على ذلك أن اللاجدوى هي العقدة التي تصل الإنسان بالعالم، هي صفة لا يتصف بها الإنسان وحسب، بل حتى العالم المحيط بنا كموجودات بشرية يتصف بهذه اللاجدوى، وهي طبيعة متأصلة به "إن اللّاجدوى ليست في الإنسان وليست في العالم، وإنما في وجودهما معاً، واللاجدوى هي الرابطة الوحيدة التي تجمع بينهما الآن"[8]. بهذه الكلمات يؤكد كامو على أن اللاجدوى ما هي إلا رابطة تجمع الإنسان وما يحيط به من العالم، بل هي الرابطة الوحيدة كما يقول، فالإنسان في فلسفة العبث لا يمكن له أن يتصل مع العالم إلا من خلال اللاجدوى، وهو، أي الإنسان، ليس جاهلاً بلا جدوى فعله ووجوده، بل هو مدرك لها أيّما إدراك، وأبرز مثال على ذلك يسوقه كامو، هو أسطورة سيزيف وما فعلت به آلهة الأولمب، كونه حارب الموت، وكره الآلهة، وسعى للحياة "إن المحال المطلق عند كامو هو شخصية سيزيف الأسطورية الذي بسبب احتقاره للآلهة، وكراهيته للموت، وعاطفته نحو الحياة، حكمت عليه الآلهة أن يدحرج حجراً بلا نهاية إلى قمة الجبل، وما أن يصل إلى القمة حتى يندفع الحجر مرة أخرى هابطاً إلى السفح من جديد"[9]. ينصب اهتمام كامو في سيزيف على اللحظة التي يهبط فيها سيزيف أسفل الجبل ويعي مصيره العبثي، وتأخذ هذه اللحظة أهميتها عند كامو من كون وعي سيزيف في هذه اللحظة لقدره يبدأ بقبوله، رافعاً الصخرة إلى أعلى الجبل، ولا يتخيل كامو عذاباً أعظم لسيزيف سوى أمله في النجاة.

بذلك كان كتاب ألبير كامو 'أسطورة سيزيف' أحد أهم الكتب التي نَظَّرَتْ للعبث. وحاول كامو من خلاله تحويل فكرة 'اللاجدوى واللامعقولية' إلى تيارٍ فلسفي، يرى الإنسان موجوداً بشرياً محكوماً باللاجدوى، وليس 'محكوماً بالحرية' كما رآه سارتر بفلسفته الوجودية.

الغريب وكاليجولا

لم يقتصر تجلّي فلسفة العبث عند ألبير كامو على كتابه 'أسطورة سيزيف'، بل نراه واضحاً أيضاً في كل من روايته 'الغريب' ومسرحيته 'كاليجولا'. ففي رواية 'الغريب' يجعل كامو من بطل روايته المثال الأفضل عن حتمية اللاجدوى في حياة الموجود البشري، إذ يتضح جلياً في العمل مدى الانفصال الحاصل بين بطل الرواية وبين عالمه المحيط، ما يؤكد فكرةً ما انفكَّ كامو عن ترديدها تلخص شعور الإنسان بالعبث وإدراكه للّاجدوى وهي: "إن الشعور بالعبث هو انفصال بين الإنسان وحياته"[10]. وبذلك يؤكد كامو من خلال فلسفة العبث؛ على أن إدراك الإنسان -وهو إدراك حاصل لا محالة على حد تعبير كامو- للاجدوى التي تحيط به وللامعقولية العالم الذي يعيش فيه يعمق شعوره بعبثية الفعل والوجود، ما يساهم في انفصال الفرد عن حياته. إن الانفصال الذي يقصده كامو ليس الانفصال الـمَرَضي القائم على العزلة عن المجتمع الواصل حدَّ التوحد، بل هو انفصالٌ ضمني مبطن ناتج عن شعور الإنسان بالعبث، فـ "العبث أو

7 المرجع السابق ص 56
8 المرجع السابق ص 77
9 ميروفيتش ديفيد زين، كوركوس ألن ــ أقدم لك البير كامي ـ ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ــ المشروع القومي للترجمة ــ القاهرة ــ 2002.
10 المرجع السابق ص47

المحال بحث لا طائل تحته من أجل المعنى في كون يخلو من الغرضية"[11]. إن ما يهتم به كامو أساساً هو الاتفاق مع العبث أو المحال لأن ذلك يفسر ثقل وغرابة العالم المرعبة كما يخبره كل موجود بشري.

ويشرع كامو من خلال روايته 'الغريب' إلى إبراز هذا الصراع القائم بين رغبة الإنسان في الوضوح والتجلي ولا معقولية العالم التي تصدمه على الدوام، ولا يَسِمُ كامو هذا الصراع بالعبثية فحسب، بل يجد أن هذا الصراع اللامتناهي بحد ذاته هو العبث عينه "إن ما هو محال أو عبث هو المواجهة بين معنى اللامعقول والرغبة العارمة في الوضوح التي ترن في أعماق الموجود البشري"[12]. إن تركيز كامو على فكرة العبث في روايته 'الغريب' دفع كثيرين للقول بأنها من أهم أعماله الأدبية التي تعرضت لفلسفة العبث وشرعت في تفسيرها، وهذا ما قاله كاتبا كتاب 'أقدم لك ألبير كامو' أن كامو "لم يُوَصِّف العبث بطريقة مناسبة في أي مكان أكثر مما وصفه في الرواية التي كان يحملها في حقيبته"[13]، وهنا يقصد رواية 'الغريب'.

وتجدر الإشارة بنا في ختام الحديث عن عمل كامو هذا أن مورسو بطل رواية الغريب يُوضع في اللّاخيار، ووضع كامو بطله في اللّاخيار هو خير مثالٍ على أمرين؛ الأول حتمية العبث بالنسبة للموجود البشري، والثاني هو مناقضة فكرة سارتر القائمة على الخيارات المتاحة أمام الإنسان، والتي تجعل الحرية -حرية اختيار ما أكون- من الصفات الأصيلة للكائن البشري.

ومثلما رأيناه في كل من 'أسطورة سيزيف' و'الغريب'، نرى العبث واضحاً وجلياً في مسرحية كامو الأشهر 'كاليجولا' التي تروي قصة ملكٍ طغى لما رآه من لاجدوى الحياة وعبثيتها. فدافع القتل عند كاليجولا ليس المال، فهو مترف، وليس السلطة، كما 'ماكبث' فهو ملك، بل دافع القتل الوحيد عند كاليجولا هو إيمانه بلاجدوى الفعل الإنساني ولا معقولية الحياة المعيشة؛ "نستطيع استنباط العبث عند كامو في كاليغولا، فهذا الملك الذي يلتفت إلى لا جدوى الحياة ويتصرف على أساسه معتمداً كامو في مسرحيته هذه على مقولة دستوفسكي: إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح للإنسان"[14].

وهكذا نلحظ التزام كامو في أعماله الثلاثة السابقة فكرة العبث، وتأكيده حتميتها سواء كطبيعة الموجود البشري أو طبيعة العالم الذي يعيش فيه هذا الموجود، فالعبث عنده هو المقدمة المعطاة في كل تجربة حديثة، شعور مزعج قبل كل شيء، شعور بالتناقض وليست سوى بداية لإدراك الحياة؛ معناها ونتائجها.

مسرح العبث

"يمكن تفسير ظهور العبثية الفرنسية المفاجئ على أنها ردة فعل عدمية على الوحشية وغرف الغاز والقنابل الذرية التي شهدتها الحرب، لقد كشف مسرح العبث عن الجانب السلبي من وجودية سارتر، وعبّر عن بؤس وعقم عالم بدا دون أهداف"[15]. بهذه الكلمات يفتتح ج.ل. ستيان في كتابه 'الدراما الحديثة بين

11 المرجع السابق ص49
12 المرجع السابق ص80
13 المرجع السابق ص45
14 المرجع السابق ص 105
15 ستيانج.ل. الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد جمول، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1995

النظرية والتطبيق' الفصل المخصص عن مسرح العبث مؤكداً الفكرة القائلة بأن مسرح العبث ما هو إلا رد فعل إبداعي ناتج عن الكم الهائل من الوحشية والدموية التي ظهرت في الحرب العالمية الثانية. كما ذكرنا سالفاً فإن الإنسان الأوروبي وجد نفسه فجأةً بمواجهة هذا الكم من الدمار والدم، فما كان منه إلّا أن وقف مذهولاً مؤمناً بعبثية الحياة كافراً بسلمية العلم ونتائجه، ومظلَلاً بحالة رهيبة من الكآبة كان أهم مفرزاتها مسرح العبث.

يظن المرء غير العالم بالعبث وظروفه ومنتوجاته الإبداعية، والقارئ غير الداري لمسرح العبث، أن مسرحية العبث ما هي إلا كلماتٌ مقتطعة في شكل عشوائي، خاليةٌ من الأحداث، وشخصياتها خاويةٌ لا تحمل أي معنى حقيقي، وكتّابها ما هم إلا ثلةٌ من المذهولين من آثار الحرب العالمية الثانية، وجدوا ضالتهم في هذا النوع من الكتابة المسرحية الذي لا يَنُمُّ إلّا عن رعونةٍ واستسهالٍ في الكتابة. لا ريب أن أصحاب هذا الرأي هم ناظرون سطحيون للمسرح في شكل عام، ولهذا النوع المسرحي في شكل خاص؛ فبعيداً عمّا تحمله كثيرٌ من مسرحيات العبث لكل من بيكيت ويونيسكو من مضامين فكرية عالية، تحاكي جوهر الوجود الإنساني وتنطلق من علاقته مع الخارج لتقدم رؤيةً فلسفيةً محضة ليس بالسهل فهمها، بعيداً عن هذه الأمور، تتميز المسرحية العبثية ببنية جديدة مغايرة ومخالفة لكل البنى المسرحية التي سبقتها وتلتها، ما جعل لمسرح العبث خصوصية يتميز وينفرد بها، إذ "تقع المسرحية العبثية ضمن التراث الرمزي، كما كانت خالية من أي عقدة منطقية أو تشخيص بأي معنى تقليدي، فشخصياتها تفتقر للدوافع الموجودة في الدراما الواقعية وبهذا الشكل يتعمق إحساسها بالعبثية، كما يعمل غياب الحبكة على إبراز رتابة وتكرارية الزمن في القضايا الإنسانية، ولا يزيد الحوار في شكل عام كونه سلسلة من الكليشيهات المفككة التي تُحَجِّمُ المتحدثين إلى مجرد آلات ناطقة، وهذه المسرحية لا تحاكي الظرف الإنساني بل تحاول تصويره في أسوأ أحواله من خلال صور ساخطة بقصد تحرير الساذج من أوهامه وتوجيه صدمة للقانع بواقعه"[16]. ولذلك يمكننا اعتبار مسرحية العبث إحدى أهم الأدوات التي تسعى لوضع الإنسان أمام واقعه الوجودي إن صح التعبير.

وأهم ما يميز هذه الأعمال المسرحية، هو نَحْوُها نحواً جديداً لم تَنْحُهُ أيٌّ من الفنون الأدبية السابقة، فدائماً ما كنا نلمس في الأدب والشعر في العالم تلك الحدود الحادة والقوالب الجاهز والاتصال المباشر والعميق مع الواقع، هذا الاتصال الفج هو ما ابتعدت عنه مسرحية العبث، فهي تَمُسُّكَ دون أن تقدم لكَ قوالبَ فكريةً جاهزة، ودون أن تحمل لكَ مقولاتٍ فكريةً وفلسفيةً وسياسيةً واضحة ومباشرة، بل هي تتضمن أفكاراً أعمق وأبعد قرارُها جوهر الوجود الإنساني. ويمكننا تلخيص بعض المحاور الرئيسية في مسرح العبث بالتالي:

أولاً: "الاغتراب التام للإنسان ووحدته في كونٍ يناصبه العداء، ويبدو كأنه ينكر عليه حق الوجود، فمسرح العبث يقدم لنا شخصياتٍ منبوذةً لامنتميةً لَفَظَتْها الحياةُ"[17]. إن الاغتراب المقصود هنا ليس الاغتراب الماركسي المتمثل باغتراب العامل عن حقه، ولا الاغتراب بمفهوم كولون ولسون القائم على اغتراب الإنسان عن المجتمع الذي يوجد به، بل المقصود هو الاغتراب كما رأيناه عند مورسو بطل رواية 'الغريب' لكامو: اغتراب الموجود البشري المتميز باللّاجدوى عن عالمٍ تحكمه اللّامعقولية. وهنا يظهر الأثر

16 المرجع السابق ص338

17 صويلحة نهاد، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997

المتبادل بين فلسفة العبث عند كامو ومسرح العبث عند كل من بيكيت ويونيسكو، وأهم ما يذكر في هذا السياق هو الأثر غير المباشر للفيلسوف الألماني مارتن هايدغر في هذا الجانب من فلسفة ومسرح العبث. فما يعبر عنه هايدغر في كتابه 'الكينونة والزمن' وبخاصة نظريته المسماة 'التواجد هناك' يشكل أرضيةً فلسفيةً صلّبةً قامت عليها فلسفة العبث في الاغتراب. إذ تتلخص نظرية 'التواجد هناك' بـما معناه "إن الموجود البشري يجد نفسه مرمى بين الآخرين وما يحيط به، فمنذ إدراكه الأول يحاول الإنسان أن يلائم نفسه مع الآخر-الغريب، وتتحول هذه المحاولات للتلاؤم -التي غالباً ما تتسم بالفشل- إلى سماتٍ أصيلةٍ في الموجود البشري تساهم بشكل رئيسي في وجوده"[18] يمكننا استنباط ذات الاغتراب من كلام هايدغر السابق وإن لم يصرح به بشكل مباشر، فوجود الإنسان بين محيط غريب عنه تماماً، ومحاولته الدؤوبة للتلاؤم مع هذا المحيط، تشكل نوعاً من اغتراب الإنسان عمّا حوله، اغتراب يؤثر في وحدة إنسان القرن العشرين وعزلته عن الآخر.

ثانياً: "فكرة اللّاجدوى التي تسيطر على كل شيء، فالعبث يرى أن كل الأفعال التي يقوم بها الإنسان لا طائل منها ولا جدوى"[19] كذلك نلمس هنا التأثر التام لمسرح العبث بفلسفة العبث التي طرحها كامو في 'أسطورة سيزيف'، فشخصيات مسرح العبث لا تفعل، وإن فعلت ففعلها لاجدوى له، وأبرز مثال على ذلك هو فعل انتظار فلاديمير واستراجون لغودو في مسرحية 'في انتظار غودو' لبيكيت، إذ أهم ما يميز فعل الانتظار هنا هو لا جدواه.

ثالثاً: "ترتبط فكرة لا جدوى الفعل بفكرة لا جدوى اللغة في مسرح العبث، فالإنسان في مسرح العبث يتكلم لا لشيء، بل ليخدع نفسه بلعبة التواصل، وليهرب بالإحساس المرعب بالخواء الكامل من حوله"[20]. وأبرز مثال على نظرة رواد مسرح العبث للّغة هو الحوارات التي اشتملت عليها كل مسرحيات العبث. إذ نجد في مسرحية العبث حضوراً جديداً للّغة، فهي ليست اللّغة كأداة للتواصل البشري وفهم الآخر، بل ما هي إلا مجموعة من الكليشيهات يرددها شخصيات المسرحية على سبيل الكلام لا التواصل، بمعنى أنه وفي كثير من الأحيان لا تلمس أي اتصال لغوي بين شخصية وأخرى في مسرح كل من بيكيت ويونيسكو، وهذا ما يكرس فكرة رواد مسرح العبث عن عجز اللّغة عن التعبير، وهذا ما سنشرع في تفصيله ومناقشته لاحقاً.

لا تشتمل هذه الميزات على كل ما يميز العبث كتيار مسرحي معاصر، ولكنها تقدم صورة بانورامية سريعة عن أهم ميزات العبث وأهم خصائصه. ولو حاولنا الالتفات إلى بعض نقاط التلاقي والاختلاف بين كل من مسرح العبث وفلسفة العبث لوقفنا على بعض ما قاله مارتن أسلن في كتابه 'دراما اللامعقول' حيث عقد أسلن مقارنة بين أسلوب مسرح العبث وبين العبث عند كامو وسارتر: "بينما سارتر وكامو يعبران عن محتوى جديد بأسلوب تقليدي قديم، تجد أن مسرح العبث يذهب خطوة أبعد من ذلك بمحاولته تحقيق وحدة بين تصوراته الأساسية والشكل الذي يصب فيه تلك التصورات. بمعنى آخر إن مسرح سارتر وكامو أقل ملائمة كتعبير عن فلسفة سارتر وكامو من الناحية الفنية كما هو متميز من

18 هايدغر مارتن، الكينونة والزمن، ترجمة وتقديم فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل مصدق، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، بنغازي، الطبعة الأولى، 2012

19 صويلحة نهاد، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997

20 المرجع السابق ص135.

الناحية الفلسفية عن مسرح العبث"[21].

صموئيل بيكيت

لا يخفى عن القاصي والداني أن أحد أهم رواد مسرح العبث وأشهرهم هو المسرحي الأيرلندي صموئيل بيكيت، فلا يذكر مسرح العبث إلا وذكر بيكيت والعكس أيضاً، لا سيما مسرحيته الشهيرة 'في انتظار غودو'. وكغيره من مبدعي أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، تبنّى بيكيت فلسفة اللاجدوى ووسم العالم باللامعقولية، وعكس هذا التبني على نصوصه وأفكاره، بحيث أضفى على مسرحه صفات جعلت منه تياراً مستقلاً بحد ذاته. وتفادياً للتكرار، فإن كل ما ذكر سابقاً من صفات لمسرح العبث ينطبق على مسرحيات بيكيت المتقدمة منها والمتأخرة. وأهم ما يُذكر هنا هو التناقض الكمي لمسرحيات بيكيت، وأقصد هنا بالتناقض الكمي ليس تناقص عدد المسرحيات المكتوبة في مراحل بيكيت المتأخرة، بل تناقص حجم المسرحية، إذ يلحظ الفرق الكمي مثلاً بين مسرحيته 'في انتظار غودو' ومسرحياته التجريبية الخمس. وتفسر د.نهاد صليحة التناقص الكمي الذي أصاب مسرحيات بكيت المتأخرة على أنه "لقد أدرك بيكيت أن الرؤيا العبثية رؤية عدمية تؤدي بالضرورة إلى انتفاء القول والفعل من الحياة، لذلك يلحظ المتتبع لأعماله الدرامية أن هذه الأعمال تتقلص في أحجامها تقلصاً اضطرادياً مع مرور الوقت حتى لا تكاد تشغل بضع صفحات"[22].

إن أهم ما يميز مسرح بيكيت هو لغة هذا المسرح؛ بمعنى أن بيكيت عكسَ رؤيتَه للغة على مسرحه، فهو يرى أن اللغة عاجزة عن التعبير عن كل المشاعر الإنسانية والأفكار. لذلك نرى شخصياته تتحدث بلغة غريبة لا تواصل فيها ولا انسجام، يسودها قطع غير مبرر، عاكسةً بذلك رؤية كاتبها عن اللغة "وتبلغ عدمية بيكيت الفكرية أقصى درجاتها في تلك المسرحيات التي ينفي فيها اللّغة تماماً ليركز على وحدة الإنسان في الوجود في كون يناصبه العداء، وعلى عجزه التام عن الفعل ومثال ذلك نصوص 'بلا كلمات'... ويتبين من هذا النص أن بيكيت قد وصل في التشكك من قدرة اللّغة على إحداث التواصل الإنساني، وفي فعاليتها كأداة تفكير في عالم يخلو من المعنى، إلى نقطة النفي الكامل لوجودها، أي إلى نقطة الصمت المطبق، وهو هنا يوظف شكلاً مسرحياً معروفاً، وهو المايم توظيفاً جديداً إذ يجعله أداة تعبير بليغة عن كفره باللّغة في إطار عبثية الوجود."[23]

ويتضح لنا من هذا أن بيكيت تبنى -بقصد أو دون قصد- رأي رائد الظاهراتية ومؤسسها، الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل، الذي رأى إن "الوجود الأول-الخالص لا لغة فيه، فالوجود الأول صامت واللغة في المرتبة الثانية"[24]. إن رأي هوسرل في اللغة يظهر في شكل جليّ في مسرحيات بيكيت، فاللغة أعجز عن التعبير، والوجود الخالص لا لغة فيه، وبذلك يكون بيكيت في رؤيته للغة قد انحاز لهوسرل وأيده في فكرة عجز اللغة عن أن تصاحب الوجود في جوهره، وخالف بذلك رأي هايدغر عن اللغة المتمثل بعبارته الشهيرة "اللغة بيت الوجود".

21 اسلن مارتن، دراما اللامعقول، ترجمة عبد القادر التلمساني، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت، العدد رقم 19، الطبعة الثانية
22 صويلحة نهاد، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997.
23 بكيت صموئيل، خمس مسرحيات تجريبية، ترجمة وتقديم ناديا البنهاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992
24 هوسرل أدموند: فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة: فتحي انقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007

يوجين يونيسكو

"يعود الفضل ليونيسكو في الاعتراف بأول عرض مسرحية عبثية صريحة بعد الحرب. فقد كانت 'المغنية الصلعاء' عام 1948. وفيها يقتصر عمل الزوجين على الجلوس والتحدث بكليشيهات تكاد لا تحمل أي معنى، وهذا ما يعتبر برأي المؤلف مأساة اللغة التي تقدم في شكل رمزي التفاهة الغرائبية لحياتهما الزوجية الخالية من الحب. تعبر الشخصيات عن آلية الحياة التي نعيشها دون تفكير"[25] نستنبط مما سبق أن يونيسكو كان له ذات الرأي الذي كان قد تبناه بيكيت بما يخص موضوع اللغة، فاللغة عنده، كما عند بيكيت، عاجزة عن التعبير عن دواخل النفس البشرية. وهذه الرؤية للغة التي اتسمت بها أعمال يونيسكو هي التي ساهمت في جعل نصوصه تقف جنباً إلى جنب مع نصوص بيكيت في ريادة مسرح العبث. لم يكن يونيسكو مجرد هاوٍ لمسرح العبث، ومطّلع عابر على أفكار العبث الفلسفية، بل تبناها بشكل عميق ودافع عنها بشراسة، سواء من خلال أعماله التي كانت توغل بالعبث مع تقدمها، أو من طريق مقالاته التي نظر فيها لهذا النوع من المسرح.

أبرز مثال على تنظير يوجين يونيسكو لمسرح العبث ودفاعه عنه على اعتباره كنوع مسرحي جديد وليس مجرد موضة كما اتهم، هو رده على الصحفي كينيت تيتان حين هاجم مسرح العبث واتهم رواده بأنه ليسوا أصحاب رسالة إنسانية "كان واضحا أن يونيسكو كوّن فلسفة ذات شأن عن العبث، حيث أثار ضجة عام 1958، في رده على الصحافي البريطاني كينيت تيتان الذي كتب (إنه ليس لهذا المؤلف المسرحي رسالة أو التزام)... كان لرد يونيسكو تأثير كبير إذ يقول فيه: لا علاقة للفن بالعقيدة. لكنه يتبنى وسائله الخاصة التي تمكنه من الفهم المباشر لما هو حقيقي"[26]. إن هذا المقتبس يؤكد تبني يونيسكو الكامل لتيار العبث والدفاع عنه في وجه من اتهمه بخلوِّ المضمون والفكرة وبالشكل الفارغ. ومن المفارقة الساخرة أن هذا النوع عومل في المسرح المصري على أنه موضة ولّى زمانها، ومن ذلك ما ورد في مقدمة مسرحية 'ياطالع الشجرة' لتوفيق الحكيم إذ كتب في مقدمة المسرحية إن "مسرح اللّامعقول ليس سوى موضة ظهرت في الستينيات وانتهى عصرها، وأنه ما كتب مسرحيته 'يا طالع الشجرة' إلا بهدف تغطية المسرح المصري بذاك اللون من التأليف؟!"[27]. إن مثل هذه الآراء التي ترى في مسرح العبث موضة ليس إلّا، لا يمكن فهم سبب قولها إلّا بعدم فهم أصحابها لمسرح العبث وبجهل تفاصيله ومكامن الإبداع والفكر فيه.

هارولد بنتر

لم يكن هارولد بنتر كاتباً مسرحياً ينتمي لمسرح العبث واللّامعقول بنفس طريقة بيكت ويونيسكو. فالقارئ لمسرح بنتر يلحظ مدى الفرق في بناء النص المسرحي بين بنتر وبين بيكيت ويونيسكو، ولعل أول اختلاف بارز بين بيكيت وبنتر هو أن الأخير "رفض، على العكس من بيكيت، التخلي عن الإطار الخارجي الواقعي في أعماله، ونسج دراماه من التناقض الحاد بين عقلانية الواقع الظاهرية وبين جوهره

25 ستيان ج.ل، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة محمد جمول، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1995

26 المصدر السابق ص 362

27 بكيت صموئيل، خمس مسرحيات تجريبية، ترجمة وتقديم ناديا البنهاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992

العبثي"[28]. ففي حين لا نلمح في كل أعمال بيكيت أي ملمح واقعي ولو كان عابراً، سواء من طريق اللغة أو الديكور أو الحدث، نجد عند بنتر في جل مسرحياته هذا الإطار الخارجي الواقعي الذي يحمل بجوهره العبث كجوهر للوجود الإنساني. فعلى سبيل المثال هناك فرق واضح بين لغة كل من شخصيات بيكيت ويونيسكو، وشخصيات بنتر. فاللغة عنده لا تتميز بنفس الحدية في القطع والشرذمة والتشظي التي نقرؤها عن بيكيت، بل دائماً ما يعتمد بنتر على لغة ليست واقعية حياتية لكن فيها شيء من التواصل البشري، عارضاً من خلال هذه اللغة ما يريد قوله عن جوهر الإنسان العبثي وجوهر العالم اللامعقول. لكن هذا لا يعني أن موقف بنتر من اللغة يُنافي موقف بيكيت أو يدحضه، بل على العكس نجده ينظر إلى اللغة لا سيما في أعماله المتأخرة ذات النظرة التي ينظرها بيكيت لها "ليس فقط باعتبارها أداة عقيمة توهم الإنسان بالتواصل مع الآخر، بل باعتبارها أداة قهر وتسلط"[29]. كذلك فإن الاختلاف بين بنتر وبيكت لم يكن اختلافاً جوهرياً رغم أن بنتر كان له ما يميّزه عن بيكيت، إلا أنه بقي مديناً له ومتأثراً به، وهذا ما نستنتجه من كلام الناقد ج.ل.ستيان عن تأثر بنتر بيكيت، إذ يقول "بنتر كان يعتبر بيكيت أعظم كاتب في أيامنا، وقد تجلى تأثره ببيكت من خلال ديكور بنتر البسيط واعتماده الحوار البسيط العفوي العرضي في بعض مسرحياته المبكرة... إلا أن موهبة بنتر الفذة تعود إلى هذا الغموض الموجود في حواره في شكل يميزه عن غيره"[30].

عودٌ على بدء، تبين لنا أن العبث سواء كتيار فلسفي كما عند كامو، أو كنهج مسرحي كما عند كل من بيكيت وبنتر ويونيسكو[31]، كان نتيجة ردة فعل إبداعية على حالة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان بمثابة حامل فكري للمرحلة التي ظهر فيها، ومثّل بذاته حالة نهوض ثورية-فكرية من ركام وخسارات الحرب العالمية الثانية. كذلك لم يرتبط العبث بمرحلة ما بعد الحرب العالمية فقط، ولم يقتصر كموضة دارجة في منتصف القرن الماضي، بل تمكن من خلال بنيانه الفكري والمسرحي الذي درسناه سابقا من حصد مقعد بين الأنواع المسرحية والفلسفات الخالدة، ففي حين كانت اللّغة في أوروبا تنفرد بعلم بذاته (تبدت بذوره مع الشكلانية الروسية، ومن ثم البنيوية، وفيما بعد في التفكيك على يد جاك ديريدا، وتنشط وتتطور كعلم مستقل له حوامل فلسفية أبرزها رؤية مارتن هايدغر للغة) قدر مسرح العبث على طرح رؤية مغايرة ومناقضة تماماً للّغة، مدللاً على فشلها وعجزها وتحولها إلى أداة تسلط كما رأينا عند بنتر، مستنداً على أرضية فلسفية لا تقل قيمة عن التي استندت عليها كل من البنيوية والتفكيك في جعل اللغة علماً. الحال ذاته فيما يخص تيار العبث الفلسفي الذي تمكن من طرح نفسه وبقوة كفكر مغاير لما طرحه سارتر من حرية الاختيار، وجدوى الفعل الإنساني. وهذا إنْ دل على شيء يدل على أن تيار العبث، بشقيه الفلسفي والمسرحي، سيبقى موجوداً على ساحة العقل البشري، وسيبقى لاعباً رئيسياً في لعبة جدل العقل في جدوى فعل الإنسان ووجوده أو عدمه، وسيظل هذا التيار من الفكر هو السائد في زمن الحروب والاقتتال بين البشر.

28 ستيان ج.ل، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد جمول، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1995

29 صويلحة نهاد، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997

30 ستيان ج.ل، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة: محمد جمول، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1995

31 تجدر الإشارة إلى الخطأ الحاصل في دراسة كل من بيكيت، ويونيسكو، وبنتر على أنهم كُتّاب ينتمون إلى مسرح العبث وحسب، إذ تمكن كل من هؤلاء في الانفراد بصيغ مسرحية مختلفة، ما يتوجب على الباحث في مسرح أي منهم، الانطلاق من خصوصية كل منهم، وعدم التسرع في جمع نتاجاتهم المسرحية تحت مظلة واحدة فقط.

لماذا العبث الآن/هنا

لم يكن لتيار العبث في المسرح والفلسفة حضوراً كبيراً في المنطقة العربية، عِلّة ذلك تناقض أفكار العبث الفلسفية والفكر الديني الطاغي في البلدان العربية. فرغم تعرض المسرح العربي في عدة بلدان (سوريا، تونس، مصر، إلخ) إلى مسرح العبث، حيث عُرِضَت مسرحيات بيكيت ويونسيكو وبنتر في العديد من البلدان العربية، إلا أن ذلك لم يخلق مزاجاً عاماً عربياً فنياً أو فلسفياً يتقارب ومفهوم العبث السائد في أوروبا. أضف إلى ذلك أفول نجم العبث مسرحياً في أوروبا (بعد أن صار لكل من بيكيت ويونيسكو وبنتر خصوصية مسرحية تفرض على دارسهم أن يخرجهم من مظلة واحدة). بيد أن ما تعيشه المنطقة العربية اليوم من فوضى وخراب، أعادت العبث إلى الواجهة، لا كتيار فلسفي أو صرعة فنية، إنما كحالة شعورية أنتجتها الحرب وفرضها الموت المجاني، حيث يتجلى عبث الوجود البشري ولا معقولية الحياة في نظر الإنسان العربي الذي دخل في دوامة من الصراع لا يعرف متى ينتهي أتونها، فصار يبحث عن معنى أصيل للحياة، أو عن هدف يحيا لأجله بعد أن دفع كل هذا الحجم الهائل من الدماء ومازال، فصار كبطلي بيكيت فلاديمير واستراجون ينتظر 'غودو/الفرح، الحرية، الأمن...'.

من هنا، نجد أن العبث يحضر اليوم في العالم العربي (الآن/هنا) لا كصرعة فكرية أو تيار فلسفية، بل كمفهوم حياتي متأصل في يومياتنا، نلتمسه مع فجر كل يوم أحمر؛ مفهوم قد ينتج فيما بعد نمطاً جديداً من التفكير العربي، نمطاً يستمد أصالته من الحالة العربية الراهنة وليس قالباً جاهزاً نستورده من الآخر.

البيبلوغرافيا

- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد السلام عبد العزيز، المكتبة التنويرية، لبنان، الطبعة الأولى
- بيكيت صموئيل، خمس مسرحيات تجريبية، ترجمة وتقديم نادية النبهاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992
- إلياس ماري وقصاب حسن حنان، المعجم المسرحي، تقديم سعد الله ونوس، دار ناشرون، الطبعة الأولى، بيروت، 1997
- كامو ألبير، أسطورة سيزيف، ترجمة أنيس زكي حسين، مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، 1983
- ميروفيتش ديفيد زين وكوركوس ألن، أقدم لك ألبير كامي، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2002
- ستيان ج.ل، الدراما الحديثة بين النظرية والتطبيق، ترجمة محمد جمول، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1995
- صويلحة نهاد، التيارات المسرحية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1997
- هايدغر مارتن، الكينونة والزمن، ترجمة وتقديم فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل مصدق دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، بنغازي،الطبعة الأولى، 2012
- اسلن مارتن، دراما اللامعقول، ترجمة عبد القادر التلمساني، سلسلة من المسرح العالمي، الكويت، العدد رقم 19
- هوسرل أدموند، فكرة الفينومونولوجيا، ترجمة فتحي انقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007

وجدي وهبي*

الدولة السورية
بين مصيدة المدى والقوة

الخلاصة:

كثرت الآراء حول العلاقة بين مدى الدولة (حجم وظائفها)، وقوة الدولة (كفاءة مؤسساتها). فبعض الاقتصاديين اعتبر أن كفاءة المؤسسات تستلزم تخفيض حجم الوظائف التي تؤديها الدولة، بينما رأى اقتصاديون آخرون أن كفاءة المؤسسات تعتمد على حجم وظائف كبير للدولة، فيما ذهب فريقٌ ثالثٌ للقول بأن هنالك انفصالٌ بين حجم وظائف الدولة وقوة مؤسساتها، لأن قوة المؤسسات تعتمد على عوامل متعددة؛ اقتصادية وغير اقتصادية. ولقد ظهرت دراسات عديدة تبين عدم وجود وصفة جاهزة نستطيع تطبيقها على جميع الدول. وقد بين فوكوياما في كتابه بناء الدولة أنه لا علاقة حتمية بين المدى والقوة، فقد انخفضت قوة الدولة 'كفاءة مؤسساتها' في كل من روسيا واليابان عندما قلّصوا من حجم الوظائف التي تقوم بها الدولة، بينما حصل العكس في نيوزيلندا حيث ترافق انخفاض وظائف الدولة مع زيادة كفاءة مؤسساتها. فمتضادة المدى والكفاءة غير واقعية، والسؤال الخاطئ لن يؤدي إلا إلى إجابة خاطئة. فالوصول إلى الأداء الاقتصادي الأمثل لا يكون بالاختيار بين حجم وظائف أكبر أو مؤسسات أكفأ. لأن تقليص وظائف الدولة لن يؤدي بالضرورة الى زيادة في كفاءة مؤسساتها، وكفاءة المؤسسات لا تعتمد على تقليص وظائف الدولة، بل على عوامل متعددة أهمها عوامل مؤسساتية. سنقوم بتسليط الضوء على العلاقة بين حجم الدولة السورية وقوة مؤسساتها، انطلاقاً من دراسة حجم الوظائف التي تقوم بها الدولة ضمن ثلاث مستويات: دنيا، ومتوسطة، وعليا. ودراسة قوة مؤسسات الدولة ضمن نفس المستويات السابقة، معتمدين بذلك على معيار البنك الدولي -تقرير التنمية العالمية 1997- المقتبس من فوكوياما في كتابه 'بناء الدولة'، ومكتفين بوظيفتين من وظائف الدولة ضمن كل مستوى.

* يحمل إجازة في الاقتصاد من جامعة دمشق. يحضر حالياً رسالة ماجستير بعنوان 'السياسات الاقتصادية في ضوء النظرية الكنزية'. ويعمل كخبير في مديرية البحث والتطوير في الصندوق الوطني للمعونة الاجتماعية في سوريا.

أولاً: وظائف الدولة

وظائف الدولة تاريخياً

لقد تطورت وظائف الدولة لتتلاءم ومتطلبات المرحلة الاقتصادية، فكانت الدولة أول الأمر مقتصرةً على الدفاع الخارجي، والأمن الداخلي والقضاء أي 'الدولة الحارسة'. ثم مرت بعدة مراحل من حيث التدخل في النشاط الاقتصادي أو عدم التدخل ضمن فترات زمنية متعاقبة، فشهدنا: 'الدولة التدخلية' بأشكالها المختلفة و'الدولة الليبرالية'. وضمن هذه الأشكال المختلفة للدولة، كانت وظائف الدولة تتغير للتوافق مع نمط الدولة السائد مع الانتباه إلى أن وظائف الدولة عموماً أخذت منحنى تصاعدياً -وفي الحالات الليبرالية منحنى تنازلياً- من حيث توسع الدولة في الوظائف التي تقدمها لمواطنيها من أجل تحقيق مزيد من الرفاهية لهم، ورفع مستوى معيشتهم بالإضافة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية.

وظائف الدولة السورية

الوظائف الدنيا:

هي الوظائف الأساسية التي ينبغي على جميع الدول القيام بها، نظراً لأهميتها ومنفعتها المرتفعة.

- توزيع الخدمات والمنافع العامة: الخدمة العامة: "هي الخدمة التي منفعتها تجاوز المستفيد منها، ويفيد منها الغير بالضرورة، ولا يصدق عليها مبدأ القصر"[1]. وقد اتسع مفهوم الخدمة العامة مع ظهور 'دولة الرفاهية' وازدياد حجم الدولة ليشمل وظائف متعددة، ولكن سنقتصر على أهمها وهي: تأمين المياه والكهرباء والصرف الصحي والطرق، حيث تقوم الدولة السورية بتأدية مهامها فيما يتعلق بتوزيع الخدمات والمنافع العامة.

1 البيلاوي، حازم: دور الدولة في الاقتصاد، دار الشروق، ص 23.

- حماية الفقراء: تقوم الدولة السورية بحماية الفقراء وفق منهجيتين، الأولى: هي الاستهداف الشامل لجميع أفرد الشعب السوري في تقديم الدعم التمويني لمادتي السكر والرز بالإضافة إلى بيع الخبز بأسعار مدعومة. الثانية: الاستهداف المحدد من خلال الصندوق الوطني للمعونة الاجتماعية، حيث قدمت الدعم النقدي للشرائح الأفقر في المجتمع ضمن أربع مستويات للدعم.

الوظائف المتوسطة:

- الضمان الاجتماعي: تقوم مؤسسة التأمينات الاجتماعية بتقديم راتب تقاعدي شهري للعاملين بعد انتهاء الخدمة، وتقديم تعويض نقدي وفق شروط محددة، بالإضافة إلى تواجد عدد من النقابات والاتحادات التي تقدم تعويض نقدي للعامل عند انتهاء خدمته.
- تنظيم الاحتكارات: رغم العديد من القوانين التي تنص على مكافحة الاحتكارات ومعاقبتها، إلّا أنه لا قرار فعلي اتخذ في هذا الخصوص، فيغلب على الاقتصاد السوري احتكار القلة في جميع قطاعاته الاقتصادية بدءاً بالشركات الكبرى وصولاً إلى سوق الهال. وقد تراخت الدولة عن القيام بوظائفها في هذا المجال فتركت القطاع الخاص دون تنظيم للسوق ودون أي تطبيق فعلي لمكافحة الاحتكار.

الوظائف الناشطة:

- السياسات الاقتصادية: تقوم الدولة السورية بسياسة الخطط الخمسية منذ ستينيات القرن الماضي، ويعتبر التخطيط الاقتصادي المركزي سمةً أساسيةً في سوريا، باستثناء التحول الذي جرى في الخطة الخمسية العاشرة، حيث تم الانتقال إلى التخطيط التأشيري. ويعد هذا نقطة تحول جوهرية في السياسة الاقتصادية السورية. فالدولة السورية تقوم بتنفيذ وظائفها في ما يتعلق بالسياسات الاقتصادية -من ناحية التخطيط- فكانت تقوم بالتخطيط المركزي بدءاً من الخطة الأولى إلى الخطة التاسعة، وانتقلت إلى التخطيط التأشيري بدءاً من الخطة العاشرة، وهي ما زالت تمارس عملية رسم السياسات الاقتصادية ولو نظرياً على الأقل.
- إعادة توزيع للثروة: شهد الاقتصاد السوري حالة غياب لسياسات توزيع الثروة الممنهجة؛ سواء السياسات المحددة للتوزيع الأولي للثروة أو التوزيع الثانوي، واقتصر على تقديم الخدمات الصحية والتعليمية مجاناً وتوزيع السلع التموينية بأسعار مدعومة، بالاضافة الى دعم الخبز. أما السياسات المدروسة التي تفضي إلى إعادة توزيع الثروة لصالح تحقيق العدالة الاجتماعية فكانت مغيّبة، سواء السياسات النقدية أو المالية أو سياسات الأجور.

وكمثالٍ على ذلك: سنقوم بمقارنة مساهمة الأغنياء وفئات الشعب الأخرى في دفع الضرائب التي ترفد الموازنة العامة، وذلك من خلال مقارنة الضرائب المباشرة (الضرائب على الدخل، على الأغنياء، الأكثر عدالة) و الضرائب غير المباشرة (الضرائب على الاستهلاك، على جميع الشرائح، غير العادلة) خلال الفترة الممتدة من 2000 إلى 2008: حيث يظهر لنا الجدول التالي ازدياد نسبة الضرائب غير المباشرة (على

الشرائح المختلفة) من 2.5% من الناتج المحلي الإجمالي الى 8.8%، وانخفاض الضرائب المباشرة، كضرائب الدخل التي تتناسب مع دخل المكلف، من 13% من الناتج المحلي الإجمالي الى 6.5%. ويبين ما سبق غياب توجهٍ جدّي في اتخاذ سياسات اقتصادية تحقق العدالة الاجتماعية[2].

العام	نسبة الضرائب غير المباشرة إلى الناتج المحلي (غير العادلة)	نسبة الضرائب المباشرة من الناتج المحلي (الأكثر عدالة)
2000	**2.5**	
2001	5.6	**13**
2002	7.3	11
2003	7.2	11
2004	6.6	10
2005	6.5	7
2006	7.7	7
2007	7.4	7
2008	**8.8**	**6.5**

تقييم حجم وظائف الدولة السورية:

يظهر لنا من التحليل السابق أن الدولة السورية تقوم بمهامها ضن المستويات الثلاث، ولكن في شكل مجتزأ ضمن كل مستوى. وقد صنفنا القيام بالوظائف ضمن ثلاث تصنيفات: ضعيف، ومتوسط، وجيد. والجدول التالي يوضح مدى حجم وظائف الدولة:

المستوى	الوظائف	القيام بالوظائف
دنيا	توزيع الخدمات والمنافع العامة	جيد
	حماية الفقراء	متوسط
متوسطة	الضمان الاجتماعي	جيد
	تنظيم الاحتكارات	ضعيف
ناشطة	السياسات الاقتصادية	متوسط
	إعادة توزيع الثروة	ضعيف

2 بيانات غير منشورة، وزارة المالية، منقولة عن محاضرة السياسة الضريبية في سوريا، الدكتور حسين القاضي، جمعية العلوم الاقتصادية، 2011/1/3.

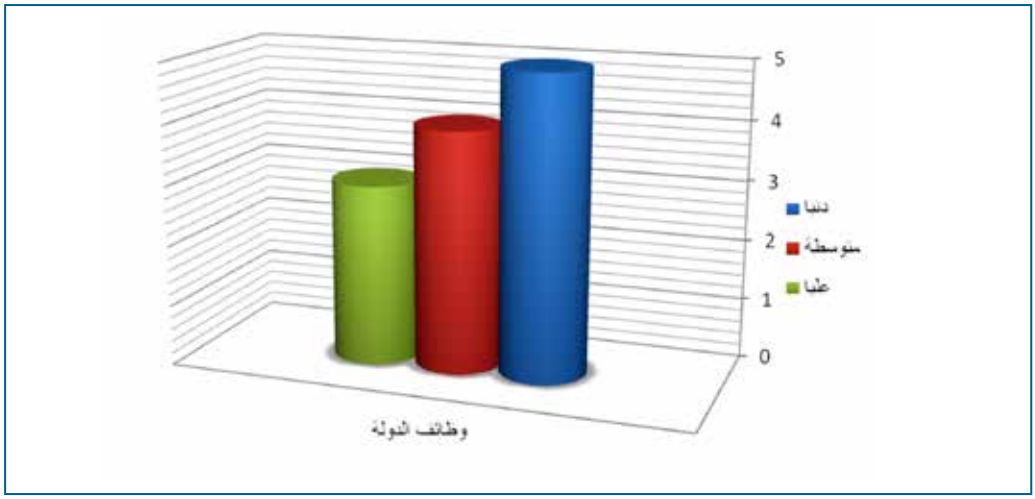

الشكل البياني: وظائف الدولة السورية

	التقييم	دنيا	متوسطة	عليا
توزيع الخدمات والمنافع العامة	جيد	3		
حماية الفقراء	متوسط	2		
الضمان الاجتماعي	جيد		3	
تنظيم الاحتكار	ضعيف		1	
السياسات الاقتصادية	متوسط			2
إعادة توزيع الثروة	ضعيف			1
المجموع	5	4	3	

الجدول: التقييم الرقمي للوظائف

ثانياً: قوة الدولة السورية (كفاءة مؤسساتها)

تقاس قوة الدولة بقوة مؤسساتها، وبقدرتها على تنفيذ المهام المطلوبة منها وتنفيذ وظائفها.

- الخدمات الأساسية: تعتبر الدولة السورية ذات كفاءة جيدة في تقديم الخدمات العامة، فهي تقدم حجم خدمات كبير وبكفاءة جيدة، فشبكة خدمات الصرف الصحي والكهرباء والماء تغطي نسبة كبيرة جداً من المدن والقرى السورية.
- حماية الفقراء: لم تنجح الدولة السورية فعلياً في منع انتشار الفقر وازدياده،حيث ارتفعت خطوط الفقر كما يظهر الجدول التالي مما يدل على ازدياد انتشار الفقر وعدم القدرة على حماية الفقراء، حيث وصلت نسبة الفقر حالياً الى 50% من مجموع السكان[3]:

3 عام 2004، 2007 دراسة الفقر في سورية. عام 2013: تقديرات الباحث.

العام	الإنفاق الإجمالي	خط الفقر الغذائي	خط الفقر الأدنى	خط الفقر الأعلى
2004	3541	1012	1458	2052
2007	4467	1439	2183	3037
2013	12002.6	3866.5	5865.6	8160.2

عام 2004، 2007 دراسة الفقر في سورية. عام 2013: تقديرات الباحث.

- تنظيم الاحتكارات: تعتبر الدولة السورية ذات كفاءة ضعيفة في تنظيم الاحتكارات، حيث يشهد الاقتصاد السوري انتشار كبير لهذه الاحتكارات.
- الضمان الاجتماعي: إذا درسنا قدرة الدولة في تأمين الضمان الاجتماعي من حيث العاملين في القطاع الحكومي لظهر لنا قدرة عالية من قبل مؤسسة التأمينات الاجتماعية في تحقيق الضمان الاجتماعي لجميع العاملين، ولكن عندما ندرس العاملين في القطاع الخاص يظهر لنا ضعف مؤسسة التأمينات في هذا المجال لأن غالبية العاملين في القطاع الخاص غير مسجلين بالتأمينات الاجتماعية، ولم تستطع مؤسسة التأمينات الاجتماعية – فعلياً - إلزام القطاع الخاص على تسجيل العاملين لديه بالتأمينات الاجتماعية.
- السياسات الاقتصادية: بالرغم من الخطط الخمسية المتعاقبة التي تنفذها الدولة إلّا أن النتائج التي تمخضت عن هذه الخطط تعكس العجز في تنفيذ السياسات المرسومة، وكمثال لذلك سنعرض الخطة الخمسية التاسعة[4]:

القطاع	المخطط	المنفذ	الفرق
الزراعة	3.8	3.7	-0.1
التعدين	5.5	-7.7	-13.2
صناعات التحويلية	41.7	18.6	-23.1
ماء، كهرباء	12.8	3.9	-8.9
صناعة	0.8	-5	-5.8
بناء وتشييد	3.1	4.1	1
تجارة	5.7	9.2	3.5
نقل	2	8	6
مال وتأمين	7.6	8.9	1.3
خدمات	3.1	7.9	4.8

يظهر لنا من الجدول، وبمقارنة نسب التخطيط مع نسب التنفيذ في معظم القطاعات الاقتصادية:

4 هيئة تخطيط الدولة، تقييم أداء الخطة التاسعة.

- العجز عن تنفيذ السياسات المرسومة.
- النسبة المنفذة كانت أقل من المخططة في قطاعات: الزراعة، التعدين، الصناعات التحويلية.
- النسبة المنفذة أكبر من المخططة في قطاعات التجارة والخدمات والمال، أي القطاعات التي تمثل الشرائح التي ينتمي إليها - المتنفذون، مما يعكس أثر القطاع الخاص في تنفيذ وتوجيه السياسات الاقتصادية.

• إعادة توزيع الثروة: لقياس عدالة التوزيع سوف نعتمد 'معيار جيني' الذي يقيس العدالة الاجتماعية، حيث قدر بـ 0.35 في عام 2009 ويعتبر معدلاً معتدلاً، ولكن إذا قارنا توزع الإنفاق الاستهلاكي حسب مستوى الغنى، يظهر لنا أن العشير الأغنى يستهلك 28% من الاستهلاك الكلي، والعشير الأفقر يستهلك 3% من الاستهلاك الكلي، ما يعكس لنا ضعف المؤسسات وعدم قدرتها على تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية.

تقييم كفاءة المؤسسات السورية:

يظهر لنا من التحليل السابق أن المؤسسات السورية مختلفة الأداء ضن المستويات الثلاث، وقد صنّفنا أداء المؤسسات ضمن ثلاث تصنيفات: ضعيف، متوسط، جيد. والجدول التالي يوضح كفاءة المؤسسات:

المستوى	المؤسسات	كفاءة المؤسسات
دنيا	توزيع الخدمات والمنافع العامة	جيد
	حماية الفقراء	ضعيف
متوسطة	الضمان الاجتماعي	متوسط
	تنظيم الاحتكارات	ضعيف
ناشطة	السياسات الاقتصادية	ضعيف
	إعادة توزيع الثروة	ضعيف

جدول يوضح كفاءة المؤسسات السورية

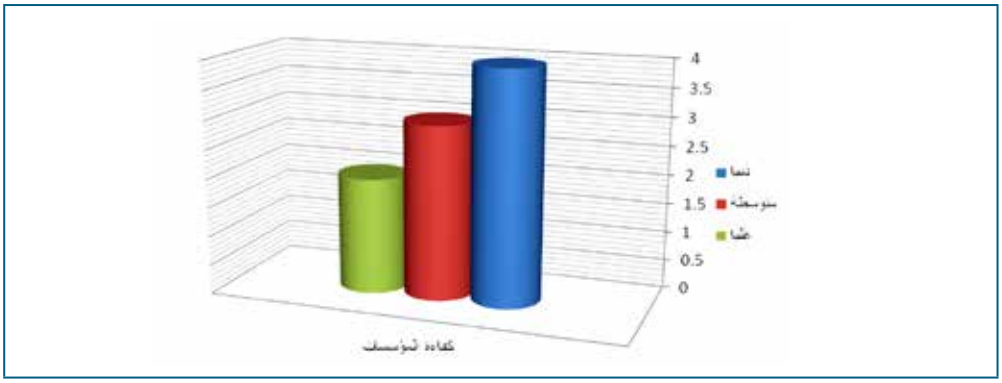

مخطط بياني يوضح كفاءة المؤسسات السورية

	التقييم	دنيا	متوسطة	عليا
توزيع الخدمات والمنافع العامة	جيد	3		
حماية الفقراء	ضعيف	1		
الضمان الاجتماعي	متوسط		2	
تنظيم الاحتكار	ضعيف		1	
السياسات الاقتصادية	ضعيف			1
إعادة توزيع الثروة	ضعيف			1
المجموع	4	3	2	

جدول يوضح التقييم الرقمي للمؤسسات السورية

ثالثاً: العلاقة بين حجم الوظائف وكفاءة المؤسسات في الاقتصاد السوري

قوة المؤسسات لا تعتمد على حجم الوظائف بل على عوامل أخرى اقتصادية وغير اقتصادية، رسمية وغير رسمية، منها: مدى انتشار الفساد، والعادات والتقاليد. ولا يمكن ربط تحسن كفاءة المؤسسات بانخفاض حجم الوظائف التي تؤديها الدولة، بل هي متعلقة ببنية هذه المؤسسات التي هي مستندة الى بنية الدولة، ومن خلال دراسة العلاقة إحصائياً -المستندة إلى التقييمات الرقمية في الدراسة أعلاه- بين حجم الوظائف التي تؤديها الدولة السورية وقوة مؤسساتها، تبين أن معامل ارتباط الرتب -سبيرمان- يساوي 0.914+. الإشارة الموجبة تدل على طردية العلاقة بين حجم وظائف الدولة في سوريا وقوة مؤسساتها، أما القيمة فمرتفعة، وقريبة من الواحد، ما يدل على وجود علاقة قوية بين المتغيرين، وأن كفاءة المؤسسات وحجم الوظائف التي تؤديها الدولة يؤثران في بعضهما البعض، ومرتبطان ببعضهما. بالنسبة لمعامل الانحدار فهو 0.83، أي أن نسبة تفسير المتغير الأول للمتغير الثاني 83%، وهنالك 17% يعود لعوامل أخرى.

الاستنتاج[5]

- هذا يعني أن حالة الدولة السورية ستكون مشابهة لحالة الدولة الروسية والدولة اليابانية، التي أدّى تقليص الوظائف التي تؤديها الدولة إلى انخفاض في قوتها (قوة مؤسساتها).
- العلاقة الموجبة في الحالة السورية منطقية، نظراً لأن قوة المؤسسات السورية مستندة إلى حجم وظائف محدد، وانتفاء هذه الوظائف، سيعني انتفاء هذه المؤسسات، وقد لا يكون الاقتصاد قادراً على الاستعاضة عنها بمؤسسات أخرى غير حكومية.

5 تعقيب مهم: معامل الارتباط غير كافٍ لتقييم العلاقة بين متغيرين بل هنالك محددات إحصائية أساسية أخرى للتثبت من صحة العلاقة، ومن الممكن عند التوسع في الدراسة وأخذ وظائف أخرى للدولة أن تختلف النتائج. كما أن تغيير التقييمات لوظائف الدولة أو لكفاءة المؤسسات سيؤدي إلى اختلاف معامل الارتباط واختلاف النتائج.

دنكان توماس*

جعل المكان عاماً:
فن الشارع في ايران**

الخلاصة:

تبحث هذه المقالة في الجدل الدائر حول مسألة الحيز العام في إيران من خلال التركيز على فن الشارع المعاصر (الغرافيتي)، ففي الوقت الذي استحوذ فيه النشاط الاحتجاجي للشباب الإيراني على الاهتمام الأكاديمي، لايزال فن الشارع منسياً. في كل الاحوال وبينما تبقى العديد من النشاطات الثقافية العارضة إما مقتصرة على الحيز الخاص أو تتسرب خفية إلى العلن، يبقى فن الشارع مظهراً احتجاجياً علنياً يتم إنتاجه واستهلاكه مباشرةً ضمن الحيز العام المتاح جهاراً. مثل هذا النوع من التسلل يتيح المجال لأصوات متعددة مقموعة لكي تملأ الفضاء العام، حيث يتم إحضار القيم والهويات المهمشة والمستبعدة إلى العلن. كما أن ما يتيحه ذلك من إمكانية مشاركة جمهور المشاهدين يسهم في إضعاف الحواجز الفاصلة بين العام والخاص، بين المتاح واللامتاح، بين مايمكن قوله وما لايمكن التعبير عنه، بالشكل الذي يُظهر محدودية ونسبية وهشاشة النظام السائد. ويُعتقد أن فن الشارع يُظهر تحولات هامة في مواقف الشباب الإيراني تجاه مسائل السلطة والهوية والحداثة منذ اندلاع الثورة. تناقش هذه المقالة المسائل السابقة مدعّمةً بمجموعة من الصور.

* دنكان توماس Dunkan Thomas مرشح لدرجة الماجستير في سياسات الشرق الاوسط في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. يكتب حول السياسة في المنطقة، وقد نشر في العديد من المواقع الالكترونية، بما فيها 'فير أوبزرفر' و'الشرق'.

** هذه الدراسة ترجمة للنص الأصلي المرسل إلى مجلة دلتا نون باللغة الإنكليزية بعنوان: Making Space Public: Street Art in Iran

مقدمة

"يتم إنتاج وهيكلة الفضاء الاجتماعي عبر الصراعات. بهكذا فهم تبدأ السياسة الديمقراطية بالتشكل في الحيز المتاح" (دوتشه، xxiv:1996)

يتم عادةً تصوير الحياة في جمهورية إيران الإسلامية على أنها مقيدةٌ في شكلٍ ميؤوس منه، ومكبلةٌ بجملةٍ من المطالب تفرضها دولةٌ قمعية كُلّية القدرة. ولكن رغم القيود التي يفرضها النظام، في إيران كما في غيرها، تبقى الهيمنة غير كاملة ومشروعاً متطوراً يخضع للعديد من نقاط الاختلاف. لكن بينما يتزايد الاهتمام بالممارسات الثقافية الاحتجاجية اليومية للشباب الإيراني[1] لا يزال فن الشارع مهملاً إلى حد بعيد[2].

على خلاف أشكال الاحتجاج الثقافي الأخرى، يتم إنتاج واستهلاك فن الشارع مباشرةً ضمن الحيز العام المتاح في شكل دائم، حيث يمثل معارضةً علنيةً وجذرية. وبالتالي يصبح المكان معرفاً بأنه 'عام' بكل ما للكلمة من معنى (أي يصبح مكاناً للتفكير النقدي والتبادل الرمزي غير الخاضع للرقابة، تقطنه وتتنافس فيه العديد من الأصوات). وعلى النقيض من الإيقاعات الموجّهة وبنى الـمُلكية التي تفرضها الحداثة الرأسمالية عموماً على الحياة المدنية، يكتسب هذا الشكل من التحدي معانٍ أكثر أهميةً عندما يمارس في الفضاء المؤدلج بصورة صارخة في الجمهورية الإسلامية.

لا يكشف فن الشارع فشل نظام الهيمنة في تعميم قيمه فقط، بل يكشف أيضاً محدودية قدرة الدولة على القسر وممارسة السيطرة المكانية. هكذا يتم إخراج الرفض من الدوائر المهمشة والاستثنائية

1 على سبيل المثال: نوشين (2005) وروبرتسون (2012) يبحثان في المشهد الموسيقي تحت الأرض في إيران، شهابي (2006) يناقش الـ 'بريكولاج' الثقافي في أنماط اللباس، بيات (2010) يبحث في 'سياسات المرح'، ومثيلاه فارزي (2006) وبسمنجي (2005) يستقصيان طيفاً واسعاً من الممارسات المماثلة. سريبرني وتارفه (2013) يقدمان ربما التحليل الأحدث والأشمل حول هكذا أنماط.

2 يتقاطع 'فن الشارع' مع الغرافيتي، ولكنه يتمايز عنه ببعض النواحي. بينما يوصل الأخير معاني مرتبطة بمجتمع معين ومكتوب وعادة غير متطور فنياً، فإن السابق عادة يعتمد على الصورة أو الرمز، ويسعى للتواصل مع شريحة واسعة، وأكثر اهتماماً بكسر الرتابة المدينية من ادعاء ملكيته الحصرية للمكان. راجع دي نوتو (2014) لمناقشة المزيد من هذه التمايزات.

والحصرية فيصبح منقوشاً مباشرةً ضمن عمارة المدينة كحقيقة لا يمكن تجاهلها خلال الحياة اليومية.

هذه الدراسة مقسمةٌ الى ثلاثة أقسام؛ قسمٌ نظري، وقسمان عمليان إلى حد كبير. أولاً، أناقش الأهمية السياسية للممارسات الفنية، قبل أن أدرس بشيء من التفصيل العلاقة التي تجمع فن الشارع والحيز العام والنظام السياسي. القسم الثاني يناقش مسألة أدلجة الحيز العام في فترة ما بعد الثورة، مع تركيز خاص على سياسات الدمج الانتقائي للغرافيتي الثوري وفن الشارع في المخيال الشعبي الرسمي. أخيراً، أوضح الكيفية التي يعيق بها فن الشارع المعاصر النظام البصري المفروض، ولماذا تسهم التطورات التقنية في جعل تلك الإعاقة أكثر مقاومة للاحتواء والرقابة من قبل السلطة.

توضح الصور الحديثة أيضاً تحولاً في المواقف من السلطة والمعايير السائدة والهوية الثقافية والحداثة - كل العمليات الاجتماعية الأوسع التي تسعى الدولة الإيرانية للتحكم بها (راجع أديب مقدم، 2013). يجعل فن الشارع هذا المسعى نحو التغير 'عاماً' بطريقة مميزة وفعالة.

القسم الأول: فن المقاومة

1-1: الفن كسياسة:

تؤكد الطاقة والموارد التي تخصصها الدولة للفن، سواء كداعم أو كمراقب، قدرة هذا الأخير على تدعيم أو مقارعة السلطة. وبنفس الطريقة فإن الفاعلين المعارضين يشيرون إلى قدرة الفن على الحشد والدفع نحو تغيير الوضع القائم. كلاهما –السلطة والمعارضة-يشتركان في افتراضٍ أساسي: إن الفن لا يمثل السلطة فقط، "وإنما يشارك بفعالية في الصراع على السلطة" (غرويس، 2008:3)، ربما في شكل غير مباشر ولكن بالتأكيد "كفاعل يصوغ البنية التي تتشكل فيها المواقف من السلطة" (تريب، 2013:308). وبالتالي فإن أشكال ومحتوى وحدود الفن هي مناطق صراع تتشكل فيها الهيمنة –الوجه الرمزي للسلطة- ويتم تطبيعها وإعادة إنتاجها، أو بدلاً من ذلك قد يتم إخضاعها "للمساءلة والاختلاف والتنافس والتداول والتفاوض والتغيير مع الزمن" (تالي، 1999:170). في بيئة تسلطية، كتلك السائدة في إيران، يؤمِّن الفن وسيلةً لإنجاز هذا الصراع وعاملاً يتم من خلاله سبر التحولات في معايير القوة. وفق هكذا فهم للفن يغدو الفنان شخصيةً سياسية؛ ليس بالضرورة كداعمٍ للنظام أو كعضوٍ في طليعةٍ ثورية، بل كمُنْتِجٍ لرموزٍ ذات مغزى فقط عندما يُقرأ ضمن (وضد) نماذجٍ التبادل الرمزي السائدة. كما كتب موف (2007:7) "تلعب جميع الممارسات الفنية دوراً في تأسيس وصيانة نظام رمزي محدد أو في تحدي هذا النظام، وذلك ما يمنح تلك الممارسات بعدها السياسي. الشأن السياسي بدوره يُعنى بمسألة الترتيب الرمزي للعلاقات الاجتماعية... وهنا يكمن بعده الفني". وبصورة مشابهة فإن مفهوم رنسير لـ 'توزيع المعقول' يعتبر أن هيكلة النظام السياسي تتم عبر "ممارسات فنية تقدم سلوكيات معينة للمواطنين على أنها مجموعة الممكنات المتوفرة... نظاماً من الحقائق المثبتة ذاتيا... منظوراً مبنياً على ما يُرى ويُسمع وما يمكن قوله أو التفكير به او صناعته أو فعله" (رنسير، 2004:85).

على هذا النحو ترسم القيود والضوابط المفروضة على الفن حدود النشاط الفكري، وتعرِّف مجال الممكنات السياسية والاجتماعية والثقافية. في هذه الأثناء، عندما يقوم الفنان النقدي بـ 'إعادة توزيع'

النظام الفني السائد وتوسيع "أطر الإدراك والخبرة، بدلاً من تعزيز أو إبراز الرؤى السياسية حول التقسيمات الاجتماعية القائمة" (باباستيرجادس، 2006:19)، فإن ذلك الفنان يماثل إلى درجة كبيرة تعريف سعيد (1994:11) للمثقفين العامّين "الذين يشمل دورهم طرح أسئلة محرجة ومواجهة التشدد والعقائد الجامدة، وأن يؤدوا دور الشخص الذي لا يسهل تطويعه من قبل الحكومات أو المؤسسات". سواء عبر شحن الطاقة التعبيرية للصورة برسالة معينة أو عبر تطوير فن راديكالي جديد، فإن هكذا فنان يأمل بأن يتسبب بإحداث تحول في مفهوم النظام السائد، ليصبح هشاً ونسبياً وتمكن منافسته، بدلاً من أن يكون طبيعياً وحتمياً ولا تمكن مجابهته.

كذلك قد يمارس الفن دوراً بنّاءاً في إنتاج سرديات وهويات وتضامنيات جديدة، ما يجعل احتكار وكسر احتكار الإنتاج الفني قضيةً جوهريةً فيما يتعلق بتأسيس الهيمنة أو القضاء عليها.

2-1: فن الشارع والحيز العام

يؤدي فنانو الشارع هذا الدور بطريقة خاصة وربما فريدة من نوعها. كما يناقش بيات (2010)، تفضل الدول –سواء كانت ليبرالية أم تسلطية – الاستخدام السلبي للمكان، وتدفع باتجاه أسلوب تفكير يعاد فيه إنتاج النظام السائد عبر النشاطات اليومية بصورة لا واعية. بوصفه نقطة تتكثف فيها القوى السياسية الحيوية والانضباطية، يأخذ الحيز العام دور "أداة لممارسة سيطرة وغلبة ورقابة الدولة" (دوتشه، 1999:121). لا يدار ذلك فقط بواسطة البنية المادية للمدينة وقدرة الدولة على الإجبار، وإنما أيضاً عبر سيطرةٍ مُحْكَمَةٍ تمارسها الأنظمة الفنية.

يعيق فن الشارع هذه السيطرة عبر جعل الصور والهويات والقيم المستثناة والمهمشة مرئيةً وواضحةً للعلن. فقط عبر هكذا تدخلات يصبح المكان 'عاماً' بأي معنى كان، ويعاد تعريفه بوصفه بيئةً عضويةً "تشكلت من خلال التفاعل والاندماج بين ممارسات متنوعة" (لدرت، 1986:122). هذه الممارسات، كما الهمينة بحد ذاتها، "ليست ناجزةً أو مغلقة... بل دائماً قيد البناء" (ماسي، 2005:9) فهي بالنتيجة مفتوحةٌ في وجه التنافس.

ملء المكان بالأصوات المتعددة والمقموعة من قبل الأنظمة 'التمثيلية' المسيطرة، يوضح ويقر بانهيار القدرة التعبيرية لهكذا أنظمة (عدم قدرتها على تمثيل المجتمع بكليته، أو حل تناقضاته، أو غرس السيطرة اللامفكر بها والأساسية لمشروع الهيمنة). عبر خلق مجالٍ للاغتراب، "للاعتراض والانحراف... للمحرمات... للممنوع، لتجاوز المعايير والقيم السائدة" (كوتر، دي رو وفان هايسبروك،2011:10)، فإن فن الشارع يعيق فكرة المكان المسكون سلبياً، وذلك عبر إدخاله لعناصر اللامتوقع والعفوي. تسعى المواجهة مع هكذا صور، سواء قوبلت بالتقدير أو الرفض او الفضول أو الذهول أو التفكر، إلى أن تستحث في المشاهدين التفكير النقدي والارتباط وجدانياً بالأمكنة اليومية، وبالتالي مع القوى التي تبني وتشغل المكان وتتنافس عليه. بهكذا ارتباط يصبح المكان 'عاماً'، والموضوع العام بدوره يصبح 'سياسياً'، مُنتِجاً ومُنتَجاً للبيئات الاجتماعية (فكرياً وعاطفياً وتصورياً وفنياً ورمزياً).

لا ينبغي أن تُرى الصور المدروسة أدناه كمجرد شواهد على الصراع حول تعريف 'الحيز العام' و'النظام السياسي' في إيران، وإنما كجزء لا يتجزأ من ذلك الصراع. إذ يشكّل الحقل الرمزي ساحةً للتنافس،

ويعيق فنانو الشارع بصورة نشطة الهيمنة الحكومية والمؤسساتية على هذا الحقل. إن كلاً من سعي النظام لرسم الصورة الطوباوية لثورة 1979، وكذلك فشل هذا المشروع في تعميم قيمه لتصبح 'بدهيات' حسب مفهوم غرامشي، يدل على دور الصور العامة في البناء والهدم المستمرين للنظام المهيمن.

القسم الثاني: الجمهورية الإسلامية وأدلجة الحيز العام

2-1: مجتمع خالِ العلام

"ليست جمهورية إيران، ولا جمهورية ايران الديمقراطية، ولا جمهورية إيران الإسلامية الديمقراطية، فقط جمهورية إيران الإسلامية" (خميني وأرجومند، 1988:137). لخّص خطاب الخميني الى الأمة، عشية التحضير للتصويت على الدستور الجديد لعام 1979، رؤيته للمجتمع الجديد. لم يقبل إسلام الخميني أو يتطلب مجتهدين إضافيين، كونه "تقليدٌ لا يكتنفه الغموض" (خميني، 1981:68). بناءً عليه، وبينما انبثقت الثورة نفسها من كوكبةٍ من الرؤى الراديكالية "الروحانية والعملية، الدينية والعلمانية، الغربية والشرقية، التقدمية والإقصائية، الحديثة والأصولية، الثورية والرجعية" (أديب مقدم، 2011:255) - تصور مهندسو نظام ما بعد الثورة "مجتمعاً خال العلام" (ختام، 2009)، مُطّهراً من العناصر المفسدة. بعيداً عن الفكرة الأولية لـ "الغضب المسلم" (لويس، 1990) يشكل هذا الاندفاع للوحدة والنظام order استجابةً حديثةً ومتطورةً للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي - مجتمع "يسعى بصورة يائسة نحو هيكلية ما" (باوفان، 1992) في مواجهة التأثيرات التفكيكية للحداثة الرأسمالية، وفي حالة إيران، الجشع الاستعماري والإمبراطوري[3].

لطالما شكّلت السيطرة على 'الحيز العام' جزءاً من مشروع الدولة. فالسلوك العام خاضعٌ للإدارة الجزئية، من خلال مراقبة "حركة الجسد، ونبرة الصوت، ومستوى الضحك، وحدّة النظرات" من قبل عملاء للدولة (بيات، 2010:143). كذلك يمارس المواطنون هذا الآلية على أنفسهم وعلى بعضهم البعض، ما يقود إلى حالةٍ من القلق والشك والرقابة الذاتية ضمن 'الحيز العام' (فارزي، 2006). وكما كتب قاشاني-ثابت (2002:170) عن النظام البهلوي، وفي ظل الجمهورية الإسلامية، يبقى جسد الشخص "وسيلةً لتطبيق السياسة الثقافية والاجتماعية"، مع تجريد الرعايا من حق "تأكيد ذواتهم والانحراف عن المعايير". ورغم تعدد طرق المخالفة غير العلنية للمعايير المفروضة (راجع فارزي، 2006، شهابي، 2006، بيات، 2006)، تُغْرَسُ في 'الحيز العام' حوكمةٌ فوكويةٌ Foucauldian Governmentality[4] معينة، حتى لو كان ذلك الامتثال عبارة عن مجرد تأدية لما تدعوه ويدين (1999) سياسة "كما لو as if". الحيز العام هو أيضاً المكان الذي تستعرض فيه الدولة سلطتها المطلقة، فتُنفَّذُ هناك الإعدامات وعقوبات الجلد. وكمركز تجميع لقدرة الدولة السياسية الحيوية والانضباطية والقضائية فإن 'الحيز العام' هو بالتالي أداةٌ لتعريف الرعايا على المعايير المفروضة وعلى العواقب الوخيمة التي تترتب على مخالفة تلك المعايير. ورغم أن مستوى القسر

3 كما أظهر العديد من الباحثين، استبدلت الشيعية الانقلابية منافسيها الأيديولوجيين واستوعبتهم حيث كان الخطاب الثوري الشمولي مبتكراً ومنتَجاً مركَّباً: "تقليدٌ مخترَع" (هوبسبون 1983) ظهر من، وتأثر بشدة بقربه من الأيديولوجيات الغربية -خاصة القومية والماركسية- كاستجابة لأزمة الحداثة الاستعمارية. راجع دباشي (1993)، بروجردي (1996)، مرسباسي (2000)، وحدت (2002).

4 الحوكمة الفوكوية ترجمة للتعبير التالي Foucauldian Governmantality وهو مصطلح طرحه الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو يقصد به عدة أمور منها: الأساليب التي تتبعها الحكومات لإنتاج مواطنين منسجمين مع سياساتها (هيئة التحرير).

قد تأرجح مع تعاقب الإدارات السياسية (انفراجٌ نسبيٌّ في ظل خاتمي والآن روحاني، وعودة إلى الحماس الثوري في ظل أحمدي نجاد)، يبقى السلوك والتعبير العلني خاضعين لتقييداتٍ شديدة، مع منعٍ صارمٍ لأيِّ شكلٍ من أشكال المعارضة العلنية. بالطبع تبقى رغبة الدولة في إنتاج 'حيزٍ عامٍ إسلاميٍّ ومتماسك' حيويةً بالنسبة لادعاءاتها بامتلاك سلطة أخلاقية وشرعية شعبية. يقوم الإجماع السياسي والاجتماعي المفروض بتسخير الحيز العام وجعله أداةً لإعادة إنتاج الأيديولوجية الرسمية.

2-2: فن الدولة وإنتاج الهوية

تحققت سيطرة الدولة على 'الحيز العام' بصورة مذهلة في فترة ما بعد الثورة بفضل ما أنتجته من فنون. أكثرها شهرةً هي الجداريات الضخمة التي تعرض شهداء وشخصيات دينية وصوراً وشعاراتٍ مناهضة للإمبريالية، والتي "تروج وترسخ وتنشر المبادئ الأساسية للجمهورية الإسلامية" (غروبر، 2008:24). تسهم هكذا صور بتوسيع الجهاز الانضباطي للدولة، مكونةً بذلك الحيز العام الذي تسيطر عليه وتراقب فيه السلوك العام.

كذلك دمجت الدولة، أو وظّفت لصالحها، الغرافيتي الثوري في صورة انتقائية. كما وضّح العديد من الكُتّاب (راجع دباشي وشيلكوسكي، 1999؛ سريبرني-محمدي ومحمدي، 1994)، كان الغرافيتي منتشراً جداً خلال الثورة، شاغلاً الأمكنة والمعلومات المتداولة حول المظاهرات القادمة، في الوقت الذي حملت اللوحات أجندات قومية وماركسية ونسوية وديمقراطية إلى جانب أجندات إسلامية[5]. نتج من ذلك مجالٌ بصريٌّ تعدديٌّ وحيوي، تنافست وانعكست فيه أصواتٌ متعددة. يلعب الدمج الانتقائي للغرافيتي الثوري، وتسخير هذه اللوحات لصالح نظامٍ فنيٍّ أحادي، دوراً في الشرعنة، حين يُقَدَّمُ نظامُ ما بعد الثورة كنتيجةٍ مباشرةٍ وحتميةٍ وعضويةٍ للثورة ذاتها. توضح الحملة التي شنتها السلطات بالتوازي على كاتبي الغرافيتي وفناني الشارع (تريب، 2013:273) أهميتهم لتحقيق السيطرة البصرية العامة.

تم خلال الثورة إنتاج لوحاتٍ (بوسترات) لتياراتٍ أيديولوجيةٍ متنوعة في ورشات إحداث التغيير؛ صحافةٌ حرةٌ بكل معنى الكلمة: بمقدور أي شخص المشاركة، التي كانت غير موجهة كما المحتوى... وكان كل شيءٍ يوزع بدون مقابل" (سريبرني-محمدي ومحمدي، 1994:123). بعد الثورة، فرضت الدولة سيطرتها على تلك الورشات، وصودر العديد من الأعمال. اللوحات والرسومات "التي بدأت تجريبية وشخصية" تم بالنتيجة "تسخيرها ووضعها في خدمة الاستخدام الأيديولوجي... لخلق هوية وذاكرة عامة" (غروبر، 2009:687). هذا

الشكل 1: هذه اللوحة، أنتجت من قبل الحرس الثوري الإيراني، تعيد إنتاج غرافيتي ثوري عفوي كدعاية رسمية.

5 لمجموعة من هذه اللوحات، راجع: http://www.floodgallery.org/postersweb.pdf

الانتقال من الشعري إلى الوظيفي، من اللاهرمي إلى المؤسساتي، غيّر معاني الأعمال جذرياً، حتى لو لم يتبدل محتواها. سواء كانت مصادرةً من فنانين مستقلين، أو مُنْتَجَةً مباشرةً من قبل الدولة، تُستخدم الصور التالية من الغرافيتي لكسب قبولٍ شعبي:

الشكل 2: جدار غرافيتي، فيه شعارات مناهضة للشاه وأمريكا وإسرائيل وروسيا، إضافة لصور للخميني وشريعتي.

يعرض كلاهما كفاً أحمر، رمزاً للشهادة، مطبوعةً بدم متظاهر جريح، إضافة إلى صور الخميني. كذلك يبين الشكل 1 تغيير تسمية ميدان غاله إلى 'ميدان الشهداء'. بإعادة إنتاج هذه اللوحات كعناصر للدعاية الرسمية، تقوم الدولة بتسخير وتجسيد فعل الشهادة نفسه. بينما يستحيل معرفة الغايات التحررية للشهداء الحقيقيين المتوفين، فإن أولئك اللذين تعرضهم اللوحات الرسمية قد منحوا حياتهم للدولة الإسلامية بصورة لا لبس فيها. وبادعاء ملكية الموتى وتوسيع شهادتهم عبر الزمان والمكان، يغير الفن الرسمي معاني تضحياتهم كلياً: ما كان تعبيراً عن تضامنٍ في صراع، غدا مطلباً سلطوياً للامتثال والخضوع.

يتكرر تكتيك التوظيف ذاته في الأمثلة التالية:

تعرض الصورتان نفس السطر المأخوذ من قصيدة لحافظ، والذي أصبح لازمةً ثوريةً معروفة: "عندما يغادر الشيطان ستدخل الملائكة". في الظاهر يحتفل كلاهما برحيل الشاه وعودة الخميني من المنفى. لم يصبح آية الله الشخصية الرمزية في الثورة لأن الإيرانيين شاركوا رؤيته للدولة الإسلامية المستقبلية بصورة دقيقة، بل على العكس، جَمْعُهُ لأفكار متأثرة بالفكر الشيعي والقومية والماركسية ومعاداة الإمبريالية هو ما أكسبه تأييداً جماهيرياً "تماماً لأنه عنى أشياء مختلفة لمتنافسين مختلفين" (معدل 1992). وبالتالي، بينما كانت الصورة السابقة تخمينيةً وعفويةً أصبحت الصورة اللاحقة رجعيةً ومحسوبة. وفي حين من الصعب أن نعرف بدقة أي 'خميني' هو الذي يصوره كاتب الغرافيتي، تمجد اللوحات الرسمية المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية. أما الشكل 4، الذي أنتج بمناسبة الذكرى

الشكل 3: يُقرأ في الغرافيتي: "عندما يغادر الشيطان ستدخل الملائكة". بالإشارة إلى الشاه والخميني، بذات الترتيب، كان ذلك شعاراً ثورياً مشتركاً. طُلي فوقه جزئياً من قبل مؤيدي الشاه.

الشكل 4: احتفالاً بالذكرى الخامسة والعشرين لانتصار الثورة، تظهر هذه اللوحة دمج الشعار الأعلى، الذي يظهر في الأسفل واليسار، في دعاية الدولة.

الخامسة والعشرين للثورة، فيستوعب الشعار الأصلي في ترتيبٍ رمزيٍّ محدد، ومع طغيان الصور الضخمة للخميني والعلم الإيراني، تحولت الأهمية الثورية للغرافيتي إلى إذعانٍ للنظام.

وبتحول النقوش العابرة إلى صورٍ ثابتة تصبح رموز التحرر إشاراتٍ للهيمنة، ويوضح استخدام الغرافيتي الثوري وفن الشارع هذا التوظيف بطريقة صارخة. استعمر هذا الفن الرسمي 'الحيز العام'، مُحَوِّلاً ما كان مؤخراً ساحة للتنافس والصراع إلى موقعٍ للسيطرة. تماماً كما كانت الثورة وفنها متلازمين معاً (رام 2002:90)، كذلك خُصِّصَ تأثير الصور العامة لصالح مشروع هيمنةٍ جديد.

القسم الثالث (تآكل الهيمنة واستعادة المكان)

3-1: فن الشارع المعاصر

يتدخل فن الشارع المعاصر في هذا المجال شديد الأدلجة. ففي حين يخضع نظام الهيمنة في إيران لعدد لا يحصى من نقاط التنافس، من شق صف النخب (أرجومند 2009) إلى 'اندفاع تعددي' من الأسفل للأعلى (أديب-مقدم، 2013)، يتميز فن الشارع بإحضار الاعتراض مباشرةً إلى الحيز العام اليومي.

رغم الشعارات والصور التي زينت الجدران خلال الثورة، يمثل فن الشارع المعاصر بوضوح شيئاً جديداً تماماً في إيران. فنياً، يسهم الفنانون في ثقافةٍ عالميةٍ تصفها إرفين (2012:25): "مانيفستو عملي للأشكال المعقدة للعولمة والتهجين الثقافي وإعادة المزج التي أصبحت الحالية الطبيعية للحياة في مدن عالمية ومتشابكة". يتحدى هذا الاختيار الفني في صورة مباشرة الخطابات الرسمية حول 'الأصالة'، مبيّناً الميل المتزايد لدى الشباب الإيراني "للتفكير في ما وراء الأمة" (أبادوراي، 1996). في نفس الوقت، يعبر العديد من الفنانين عن الرغبة في "تطوير نمط إيراني مميز قدر المستطاع"[6]، جاعلين من فن الشارع مجالاً هاماً لما يسميه روبرتسون (1995) "العولمة على أسس محلية". النموذج الفني المميز الناتج من هذه العملية يعني أيضاً أنه بينما تعلَّمَ السكانُ "أن يتجاهلوا أو ببساطة أن لا يمتثلوا" للصورة الذهنية الرسمية البالية (فارزي، 2006:128)، فإن فن الشارع يميز نفسه باستمرار عن ما حوله، معززاً المشاركة التي نوقشت في القسم الأول من هذه الدراسة. كذلك سهلت الاتصالات العالمية انتقال المعرفة بين المجتمعات الفنية، متيحةً للفنانين الإيرانيين أن يطوروا تقنيات معقدة للرسم على الجدران، بما يفسح المجال لمزيدٍ من الصور المعقدة.

تقلّل تقنيات التخزين والنشر في العالم الافتراضي من تعرض فن الشارع المعاصر لمخاطر الحذف ببساطة في العالم الواقعي. يحدث الانتقال بين العالمين الافتراضي والواقعي بالاتجاهين معاً: بينما يتم التصوير والتحميل في العالم الفيزيائي، قد توزَّع تصاميم القوالب والملصقات في العالم الافتراضي، كما يعاد تصنيعها في عدة أماكن في العالم الواقعي. بجمعه للافتراضي والواقعي في سياقٍ واحد، يحوي فن العمارة المكانية هذا على عدة جوانب متعلقة بالوصول والنشر تجعل من قدرة الدولة على الاحتواء أقل سهولة. عندما تظهر الصور على المواقع الالكترونية والمدونات ووسائل التواصل الاجتماعية فإنها تستحث نقاشات سياسية وفنية، الأمر الذي يزيد من حجم تأثيرها ويُنتج منتدى آخر للحوار العام.

6 مقابلة مع فناني 'طهران راتز'، متوفرة على: http://www.youtube.com/watch?v=I_pFQdJYXf0

نشاهد تحولاً ملحوظاً في المحتوى أيضاً، فالصور التي تظهر اليوم في شوارع إيران ليست أيديولوجية. إذ لا تعكس تحولاً اجتماعياً شاملاً، ولا ترتهن لأي برنامج ثوري؛ إسلامي أو قومي أو شيوعي. بدلاً من ذلك فإنها مغرقةٌ في فرديتها وغامضةٌ في الغالب. وعندما تحمل نقداً واضحاً فإنها تفضح إقصائية النظام الحالي، بدلاً من أن تسعى لتأسيس نظام جديد. الابتعاد عن السرديات الشمولية، الفردية، اعتماد التلاقح والتدوير من خلال شبكات التبادل؛ كل ذلك يشير إلى الانتقال بعيداً عن الأيديولوجيات الحديثة والحقبة الثورية نحو ما بعد حداثة أكثر نقدية، ما ينسجم مع اقتراح أمثال بيات (2007) ودباشي (2008) في أن الثورة الإيرانية، للمفارقة، قد افتتحت عصراً 'ما بعد إسلامي'. وفي حين كان الغرافيتي الثوري إما موظفاً أو ملغىً من قبل الدولة، فإن التميز الفني والمحتوى غير الأيديولوجي ودورة الحياة المتنقلة لفن الشارع المعاصر تجعل منه أكثر مقاومةً لهكذا مصير.

2-3: إعادة تعريف المكان:

تختصر الصورة التالية العديد من هذه الاتجاهات. بينما يعيد فوراً للذاكرة أسلوب 'العلامات' الذي طُوِّر بدايةً في نيويورك في الثمانينيات، نمط التراكب المتكرر يشابه تقليد سياه-مشق Siyah Mashq[7] في الخط الإسلامي. النتيجة هي أسلوبٌ وخطٌّ هجينٌ يجمع فناً عالمي النزعة مع جذورٍ محلية:

يعلق الفنان المعروف بـ "A1one" على هذا التهجين:

"إنني مرتبط ببلدي وثقافتي بعمق... أياً يكن ما أفعله فإنه يأتي من هكذا خلفية، إضافة لبعض التراكيب المرغوبة/غير المرغوبة الآتية من العالم عبر الإعلام. أحاول أن أبحث في التراث البصري لشعبي. يؤثر فيَّ أحياناً ويلهمني، وأضيف نكهتي الخاصة" (مقابلة مع كاتب 2014/4/6).

شكل 5: كلمة "حقيقة" مكتوبة بأسلوب شديد التعقيد، من قبل الفنان A1one، بمزج للمحلي والعالمي. أنماط الخط، طهران.

لا يرى هذا التهجين المتعمد 'إيران' و'الغرب' ككيانات متماسكة، ويرفض الخطاب الرسمي بطرق أخرى أيضاً. بناءً على كتابات متعددة ومتقاطعة وبالكاد مقروءة لكلمة 'حقيقة'، يضم العمل تعددية جذرية، تشابه جداً فكرة غرويس (2003:3) حول "شيء متناقض قادر على تجسيد التناقض الذاتي الأكثر جذرية" عبر حمله بداخله لعوامل نقضه. حسب الفنان، يسعى العمل لإيصال 'تعقيد الحقيقة' كمفهوم لا يمكن أن يُستوعب تماماً (مقابلة مع الكاتب 2014/4/6) – ابتعاد جذري عن المبادئ الإطلاقية للخطاب الثوري لصالح لا مؤسساتية مشاكسة وما بعد حداثية. يتيح ذلك علاقةً بين المشاهد والبيئة مختلفةً كلياً

7 سياه مشق Siyah Mashq من الفارسية بمعنى 'المسودات'، حيث اعتاد الخطاطون أن يتدربوا على حسن الخط عبر كتابة الكلمات والحروف بشكل متكرر على رقع من الورق. لاحقاً تبين أن بعض هذه المسودات (التي تحوي كلمات عديدة تملأ الصفحة، ولا يجمعها أي معنى محدد) ذات جمالية فنية من حيث توزع وتقاطع الحروف (هيئة التحرير).

عن تلك المفروضة عبر صورةٍ ذهنيةٍ رسمية: علاقة ديمقراطية ونقدية ومنفتحة وغير قسرية.

بالابتعاد قليلاً عن هذا المعنى، الفني بحد ذاته مذهل. تُظهر العديد من صور فن الشارع المارة وهم يقفون أو يلتفتون إلى الأعمال الفنية في صورةٍ معبرة. للحظة، تم إبعاد المكان عن سيطرة الدولة ومصالح الشركات، وأعيد تعريفه كمكانٍ للتفكير في ما يمكن أن يواجَه بصورة عفوية غير متوقعة:

في الشكل 6، صورة الطفل، يفكر بتجاوز إشارة 'توقف'، ربما كي يوصل رسالةً مفادها تجاهل السلطة والإيقاعات الموجهة في الدولة الحديثة. العمل الثاني في الشكل 7، رغم أنه أكثر غموضاً، يمزق الواجهة الحضرية الرتيبة ليكشف ما تخفيه من فوضى ونشاز، إضافة إلى الأصوات المعارضة المخفية تحت السطح تماماً. تُظْهِرُ الصورتان قدرةَ فن الشارع على دفع الحضور للمشاركة خارج إطار التركيب السكاني ضمن ثقافة الشباب. إذ تعبّر النظرة المؤثرة للمرأة المسنة عن تواصلٍ خاطفٍ، ولكنه قوي بينها وبين الفنان، حيث يلعب الفن والحيّز الذي تتيحه المدينة دور الوسيط. ورغم أن الطفل صغير جداً ليقدّر أي أهميةٍ سياسيةٍ للعمل الفني، فإن هذا العمل الفني قد جذبه بتميزه عن محيطه نوعاً ما. تكمن قوة هكذا مواجهات عفوية في صميم قدرة فن الشارع على التحدي.

عندما تكون الأعمال الفنية نقديةً في صورةٍ واضحةٍ فإنها غالباً ما تركز على تلك الشخصيات المهمّشة أو المحرومة من قبل النظام السائد، أو تلك الحقوق التي لا يقرّها النظام. الأطفال من أكثر المواضيع تكراراً، وغالباً ما يترافقون مع الفقر في المناطق الحضرية:

شكل 6: امرأة تقف لمشاهدة عمل من فن الشارع (الفنان: غير معروف).

شكل 7: كسرٌ للرتابة شد انتباه طفل (الفنان: A1one)

شكل 8: طفل يحمل ألعاباً تركيبيةً في موقع بِناء (الفنان: آيسي وسكوت).

من المهم دراسة هذه الصور وفي الذهن مسألة تمثيل الأطفال من قبل الدولة الإيرانية تاريخياً. فقد اشترك أطفالٌ بعمر الحادية عشرة أو الثانية عشرة في القتال في الحرب العراقية-الإيرانية، وغالباً ما تم تخليدهم كشهداء في جداريات الدولة. يعرض غروبر (2008) مثالاً مشهوراً جداً، مصوِّراً طفلاً ذي اثني عشر عاماً اسمه فهميده، أوقف زحف الدبابات العراقية عندما قفز تحتها وفجر قنبلة يدوية. يعاد توصيف الطفل الآن كشخصيةٍ تم استغلالها؛ لم يعد ميتاً في سبيل الدولة، وإنما بسبب إهمال الدولة واستغلالها له.

حرية التعبير هي موضوع مشترك آخر:

تتناول هذه الأعمال القضية من خلال نقد الرقابة الذاتية. تمسك الطفلة في الشكل 11 قلماً غطى حبره كلماتها، وتكشف الشخصية في الشكل 12 هويات متعددة جميعنا نخفيها، في حين يخفي الرجل في الشكل 13 شعوراً حقيقياً خلف ابتسامة مزيفة. كتَبَ فارزي (2006) عن 'انفصام الشخصية الاجتماعي' الناجم عن الحواجز المتينة بين المجالين العام والخاص في إيران. تتحدى هذه الصور ذلك الانقسام وما يرسخه من إدارة بالرقابة الذاتية في ما يتعلق بالمواضيع العامة. كذلك يشير تركيزها على الخضوع الفردي إلى التحوّل بعيداً عن الموضوع الجماعي المتعلّق بالخطاب الثوري؛ تطورٌ ينسجم مع تغيراتٍ في الحقلين الفكري والسياسي (راجع: وحدت 2002).

في بعض الأحيان يوجَّه نقدٌ مباشرٌ للدولة أيضاً. على سبيل المثال تحتج الأعمال التالية على عنف الدولة:

بتصويرها للقمع العنيف تجاه متعة مسالمة، تسيِّس هذه الأعمال علناً ما يدعوه بيات (2010) 'سياسات المرح'، التي يحاول عبرها الشباب الإيراني التأسيس لذهنيةٍ بديلة. ويشير الشكل 15 إلى حدثٍ معين في تموز 2011، عندما تجمَّع المئات للتراشق بالماء في إحدى حدائق طهران. بعد سلسلة

شكل9: تقول العبارة: "في أي لحظة في العالم، يموت طفلٌ بسبب ضغوطات الفقر والعمالة القسرية" (الفنان: نافر).

شكل 10: طفل عامل، خارج المنظمة الإسلامية الدولية لحماية حقوق الطفل. الفنان: آيسي وسكوت.

شكل 11: كلمات طفل موضوعة تحت الرقابة (الفنان: جيو).

اعتقالات، قام إعلام الدولة ببثِّ اعترافاتٍ بالمخالفة الأخلاقية – للسخرية فإن مجرد تعميم الحدث شجّع أحداثاً مماثلة في عموم البلاد[8]. على هذا النحو يقدم فن الشارع خطاباً معارضاً بديلاً بواسطة أشكالٍ عامة مفهومة أو سهلة الفهم، ومن ثم يتم تصويرها وتحميلها ومناقشتها في العالم الافتراضي. بينما قوِّضت قدرة الدولة على تصوير الأحداث، فإن المقاربة بين عفوية النشاطات وردود الفعل العنيفة تبيّن مدى خطورة الممارسات المخالفة اليومية –بما فيها فن الشارع- على نظامٍ ذي حساسيةٍ مفرطة.

شكل 12: شخصيات متعددة تشق طريقها نحو المشاهدة العامة (الفنان: A1one)

لعب فن الشارع كذلك دوراً في احتجاجات عام 2009 ضد التزوير المفترض لإعادة انتخاب أحمدي نجاد. تظهر الصور التالية التحولات التي نقلت ما كان أعمالاً فنيةً غامضة إلى صورة احتجاجٍ سياسيٍّ علني:

شكل 13: ابتسامة كاذبة تخفي المشاعر الحقيقية (الفنان: آيسي وسكوت).

نلاحظ هنا كيف تم توظيف البنية التحتية لفن الشارع، والموجودة مسبقاً، في خدمة حدثٍ سياسيٍّ محدد. يعني تخزين ونشر هذه الصور في العالم الافتراضي أنه، خلافاً للفترة التي تلت عام 1979، لم يعد بمقدور الدولة أن تستعيد بفعاليةٍ تَحَكُّمَها بالتمثيل البصري للصراع الشعبي. غطى الغرافيتي والأشكال المرسومة بقوالب أقل احترافية شوارع إيران خلال احتجاجات 2009. وفي حين لم ينجو سوى القليل من الصور من ثورة 1979، فإن آلاف الصور لشعاراتٍ ورسوماتٍ جدارية من أحداث 2009 نجت واستمرت في العالم الافتراضي[9].

شكل 14: ثنائي يرقصان وسط الدم والطلقات (الفنان: نافر).

8 http://www.guardian.co.uk/world/2011/aug/04/water-fight-pistols-iran-arrests

9 في هذا الخصوص فإن موقع www.greens-arts.net مثير للاهتمام كأرشيفٍ بديلٍ عامٍ ومتاح يحوي آلاف الصور الصادرة من كل من الأطراف؛ المعارضة والمؤيدة للنظام.

تسعى تلك الصور لتغيير نظام الهيمنة ليس فقط عبر إحداث تغييرٍ جذريٍّ شامل، بل عبر صنفٍ فنيٍّ 'الزحف بصمت' (بيات، 2010) ينهي تدريجياً قدرة الدولة على رسم معالم الحياة العامة. عبر ملء الحيز العام بأصواتٍ متعددةٍ ومقموعة، يكشف فن الشارع الحدود والإقصاءات التي تؤسس لنظامٍ سياسيٍّ معينٍ غير مستقل، ويبدأ بتقويض الدعائم التي تسند ذلك النظام.

خاتمة:

يعتبر فن الشارع مثالاً قوياً على أساليب معارضة الناس لبُنى الهيمنة من خلال ممارسات المقاومة اليومية. بينما تبرز جداريات زمن الحرب كمعالم لرسوخ وثبات الدولة، فإن فن الشارع متغيرٌ ومفعمٌ بالحياة ومفتوحٌ للمشاركة مالئاً بذلك الحيز العام بأصواتٍ متعددةٍ مختلفةٍ ومضطهدة. إذاً يصبح ذلك الحيز 'عاماً' ويتم إخراجه -ولو جزئياً وفي صورة خاطفة- من نطاق أنظمة السيطرة المتعددة التي يخضع لها.

كذلك فإن التأثير الواضح للأساليب العالمية، ونشر وتخزين الصور في العالم الافتراضي، يجعل من فن الشارع مثالاً على طرق تكييف الثقافة العالمية لاستخدامها محلياً، وعلى أساليب صياغة إعلامٍ افتراضيٍّ في ظل الممارسات الواقعية للهيمنة المقابلة، عبر تضخيم أثر تلك الممارسات. يتيح ذلك لنا إمكانية تقدير الإمكانات الحقيقية لهكذا تقنية، من دون 'الهوس' بقدرتها على التغيير: الإعلام الجديد ليس محرضاً على التغيير السياسي ولا تقدمياً بالضرورة، ولكنه قد يساند الممارسات في العالم الحقيقي ويساهم في إنتاج أشكالٍ جديدة للتعبير والمقاومة.

رغم أن فن الشارع لا يزال في بداياته في إيران، فإنه يبرز كتحدٍّ هامٍ لدولةٍ لطالما شَرْعَنَتْ

شكل 15: طفل معه مسدس مائي تواجهه شرطة الشغَب (الفنان: A1one).

شكل 17: أثناء التحضير لانتخابات 2009، حملة 'الوحوش' نشطت لصالح المرشح الرئاسي موسوي.

شكل 16: لسنوات غطى A1one طهران بملصقات 'الوحش' التي ترافقت بالحياة المدينية بصورة غير مفهومة (الفنان: A1one).

شكل 18: خلال قمع النظام للمتظاهرين بعنف، أصبحت 'الوحوش' رمزاً للاحتجاج الشعبي.

وممارست سلطتها من خلال التحكم بالتعبير الثقافي والحيز العام. ذلك بحدِّ ذاته يجعل من فن الشارع ظاهرةً سياسيةً وثقافيةً واجتماعيةً وفنية. يُضعف فن الشارع الحواجز الفاصلة بين العام والخاص، بين الظاهر والخفي، بين ما يُقال وما لا يمكن قوله. كما يُظهر لنا مواقف واهتمامات جيل الشباب الإيراني، الذين لا يُعيرون الكثير من الاهتمام لأزمة المحاكمات خلال الفترة الثورية. ما بعد أيديولوجي، لكنه سياسي لدرجةٍ كبيرة، يشكِّكُ فن الشارع الغرافيتي بالسرديات الكبرى ولكنه يحمل نوايا تغييرية، ويتيح للعديد من الأصوات الأخرى المهمّشة والمستبعدة فرصة الظهور للعلن بقوة.

مصادر الأشكال

- شكل 1: صورة 'ساحة الشهداء مع صورة الخميني'. مرجع:
Chelkowski، P. & Dabashi، H.، 2000.، Staging a Revolution: The art of persuasion in the Islamic Republic of Iran، Booth-Chibborn Editions: London، pp. 109
- شكل 2: 'الملصق الرسمي، ويضم كتابات على الجدران وصور الخميني وشريعتي'. راجع الرابط:
www.lib.uchicago.edu/e/webexhibits/iranianposters/revolution.html
- شكل 3: 'استخدام شعر حافظ على أنها كتابات ثورية على الجدران'. مرجع:
Chelkowski، P. & Dabashi، H.، 2000.، Staging a Revolution: The art of persuasion in the Islamic Republic of Iran، Booth-Chibborn Editions: London، pp. 112
- شكل 4: 'الذكرى السنوية للوحة الثورة تجمع بين الخميني وسطراً من شعر حافظ'. مرجع:
Gruber، C.، 2008، The Message is on the Wall: Mural Arts in Post- Revolutionary Iran، Persica، vol. 22
- شكل 5: 'الكتابة على الجدران، الحقيقة بأسلوب سياه-مشق'. صورة راجع الرابط:
[taking-back-streets-iranian-graffiti.html> [Accessed 02.05.14/12/http://aidaforoutan.blogspot.co.uk/2012
- شكل 6: 'صبي يقّطع إشارة توقف' راجع الرابط:
[http://soalife.com/the-best-cities-for-street-art-hunting> [Accessed 22.04.14
- شكل 7: 'صبي ينظر إلى فن لشارع'. راجع الرابط:
[http://www.fatcap.com/article/iranian-graffiti.html> [Accessed 25.04.14
- شكل 8: 'طفل يحمل قرميد على موقع البناء'. راجع الرابط:
[http://www.streetartutopia.com/?p=6874> [Accessed 21.04.14
- شكل 9: 'طفل ينتحر'. راجع الرابط:
20%http://www.stencilarchive.org/archives/var/albums/Middle_East/artists%20of%20middle%20east/a1one/IR%20A1one%20
[painting%20a%20flower.jpg?m=130595694> [Accessed 02.04.14
- شكل 10: 'عمالة الأطفال، خارج المنظمة الإسلامية الدولية لحماية حقوق الطفل'. راجع الرابط:
[http://icyandsot.com/wp-content/uploads/child-labor.jpg> [Accessed 15.04.14
- شكل 11: 'الأطفال، الرقابة الذاتية'. راجع الرابط:
[http://www.fatcap.com/uploads/sht/19651/bgp_1629197ae8256d9a1e2c7fde5a6b2fc13c54ef69.jpg> [accessed 23.04.14
- شكل 12: 'الأنفس متعددة'. راجع الرابط:
20%http://www.stencilarchive.org/archives/var/albums/Middle_East/artists%20of%20middle%20east/a1one/IR%20A1one%20
[painting%20a%20flower.jpg?m=1305956941> [accessed 03.05.14
- شكل 13: 'ابتسامة كاذبة'. راجع الرابط:
type=1&theater?/349727325043971/https://www.facebook.com/icyandsot/photos/a.182295011787204.49508.181763281840377
[[Accessed 27.04.14
- شكل 14: 'ثنائي يرقصان'. راجع الرابط:
[n.jpg [Accessed 22.04.14_387983956_520891707929757_556874/https://scontent-a-ams.xx.fbcdn.net/hphotoash3/t1.9
- شكل 15: 'الأطفال وضابط مكافحة الشغب في معركة المياه'. راجع الرابط:
20%http://www.stencilarchive.org/archives/var/albums/Middle_East/artists%20of%20middle%20east/a1one/IR%20A1one%20

[painting%20a%20flower.jpg?m=1305956941 [Accessed 20.04.14

- شكل 16: 'الوحش يطل من خلال صدع في الجدار'. راجع الرابط:
[artist-profile-a1one-stencil-artist-iran/ [Accessed 02.05.14/25/06/http://papermonster.wordpress.com/2009
- شكل 17: 'الوحش يحمل صورة لموسوي'. راجع الرابط:
[images-for-a-new-age-tehran-street-art/ [Accessed 30.04.14/14/06/http://fryingpanfireblog.wordpress.com/2009
- شكل 18: 'وحش يحمل لافتة: أين صوتي'. راجع الرابط:
[where-is-my-vote-street-art-emerges-in-tehran-photo/ [Accessed 02.05.14/17/06/http://hragvartanian.com/2009

المراجع

- Adib-Moghaddam، A. (2011). A metahistory of the clash of civilisations. 1st ed. New York: Columbia University Press.
- Adib-Moghaddam، A. (2013). On the Arab Revolts and the Iranian Revolution. 1st ed. New York: Bloomsbury Academic.
- Appadurai، A. (1996). Sovereignity without territoriality: notes for a postnational geography. In: P. Yaeger, ed., The geography of identity، 1st ed. Ann Arbor، Michigan: the University of Michigan Press, pp.4058-
- Arjomand، S. (1988). The turban for the crown. 1st ed. New York: Oxford University Press.
- Arjomand، S. (2009). After Khomeini. 1st ed. Oxford: Oxford University Press.
- Basmenji، K. (2005). Tehran blues. 1st ed. London: Saqi.
- Bauman، Z. (1992). Intimations of postmodernity. 1st ed. London: Routledge.
- Bayat، A. (2007). Making Islam democratic. 1st ed. Stanford، Calif.: Stanford University Press.
- Bayat، A. (2010). Life as politics. 1st ed. Stanford, Calif.: Stanford University Press.
- Boroujerdi، M. (1996). Iranian intellectuals and the West. 1st ed. Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press.
- Cauter، L.، Roo، R. and Vanhaesebrouck، K. (2011). Art and activism in the age of globalization. 1st ed. [Rotterdam]: NAi.
- Chelkowski، P. and Dabashi، H. (1999). Staging a revolution. 1st ed. New York: New York University Press.
- Dabashi، H. (1993). Theology of discontent. 1st ed. New York: New York University Press.
- Dabashi، H. (2008). Islamic liberation theology. 1st ed. London: Routledge.
- DeNotto، M. (2014). Street art and graffiti Resources for online study. College \& Research Libraries News, 75(4), pp.208--211.
- Deutsche، R. and Foundation، G. (1996). Evictions. 1st ed. Cambridge Mass.: MIT Press.
- Deutsche، R. (1999). Uneven Development: public art in New York City. In: R. Ferguson، M. Gever، T. Minh-ha and C. West, ed., Out There: marginalization and contemporary cultures، 6th ed. Cambridge، Mass: MIT Press, pp.107130-.
- Groys, B. (2008). Art power. 1st ed. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Gruber, C. (2008). The Message is On the Wall: Mural Arts in Post-Revolutionary Iran. Persica, (22)، pp.1546-.
- Hobsbawm، E. and Ranger، T. (1983). The Invention of tradition. 1st ed. Cambridge [Cambridgeshire]: Cambridge University Press.
- Kashani-Sabet، F. (2002). Cultures of Iranianness: The Evolving Polemic of Iranian Nationalism. In: N. Keddie and R. Matthee, ed., Iran and the Surrounding World, 1st ed. Seattle and London: University of Washington Press, pp.162181-.
- Khatam، A. (2009). The Islamic Republic's Failed Quest for the Spotless City. MERIP Report, (250), pp.44--49.
- Khomeini، R. and Algar، H. (1981). Islam and revolution. 1st ed. Berkeley، [Calif.]: Mizan Press.
- Ledrut، R. (1986). Speech and the Silence of the City. In: M. Gottdiener and A. Lagopoulos، ed.، The City and The Sign: An Introduction to Urban Semiotics، 1st ed. New York: Columbia University Press, pp.114134-.
- Levine، M. (2012). The Work on the Street: Street Art and Visual Culture. [online] Georgetown University. Available at: http://faculty.georgetown.edu/irvinem/articles/Irvine-WorkontheStreet-1.pdf [Accessed 14 Apr. 2014].
- Lewis، B. (1990). The roots of Muslim rage. The Atlantic Monthly، 266(3), pp.47--60.
- Massey، D. (2005). For space. 1st ed. London: SAGE.
- Mirsepassi، A. (2000). Intellectual discourse and the politics of modernization. 1st ed. Cambridge: New York.
- Moaddel، M. (2002). The study of Islamic culture and politics: An overview and assessment. Annual Review of Sociology, pp.359--386.
- Mouffe، C. (2007). Art & Research: Chantal Mouffe. [online] Artandresearch.org.uk. Available at: http://www.artandresearch.

org.uk/v1n2/mouffe.html [Accessed 5 Apr. 2014].
- Nooshin، L. (2005). Underground, overground: rock music and youth discourses in Iran. Iranian Studies, 38(3)، pp.463--494.
- Papastergiadis، N. (2006). Spatial aesthetics. 1st ed. London: Rivers Oram.
- Ram، H. (2002). Multiple Iconographies: political posters in the Iranian Revolution. In: S. Balaghi and L. Gumpert, ed., Picturing Iran: art, society and revolution، 1st ed. London: I.B. Taurus، pp.89202-.
- Rancière، J. (2004). The politics of aesthetics. 1st ed. London: Continuum.
- Robertson، B. (2012). Reverberations of dissent. 1st ed. New York: Continuum.
- Robertson، R. (1995) Glocalization: Time-space and Homogeneity-heterogeneity. In: M. Featherstone et al (ed) Global Modernities، 1st ed. London: Sage. pp. 2544-
- Said، E. (1994). Representations of the intellectual. 1st ed. New York: Pantheon Books.
- Shahabi، M. (2006). Youth subcultures in post-Revolution Iran: an alternative reading. In: P. Nilan and C. Feixa، ed.، Global Youth? Hybrid identities، plural worlds، 1st ed. London and New York: Routledge، pp.111129-.
- Sreberny، A. and Mohammadi، A. (1994). Small media، big revolution. 1st ed. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Sreberny، A. and Torfeh، M. (2013). Cultural revolution in Iran. 1st ed. London: I.B. Taurus.
- Tally، J. (1999). The agonic freedom of citizens. Economy and Society, 28(2), pp.161--182.
- Tripp، C. (2013). The power and the people. 1st ed. New York، NY: Cambridge University Press.
- Vahdat، F. (2002). God and juggernaut. 1st ed. Syracuse: Syracuse University Press.
- Varzi، R. (2006). Warring souls. 1st ed. Durham: Duke University Press.
- Wedeen، L. (1999). Ambiguities of domination. 1st ed. Chicago: University of Chicago Press.

طاهر زمان*

حق الجيرة:
مخرجٌ من مستنقع الطائفية**

الخلاصة:

يسعى هذا المقال لتفنيد المنهجية الطائفية التي تؤثر على نظرتنا لما يحدث في سوريا اليوم. لن يتحدث المقال عن مخاطر الطائفية، الموجودة بالفعل، لكنه سيبدأ حواراً لمحاولة إيجاد نص مشترك يساعد في تحويل مؤشرات هذا الصراع المدمر. للقيام بذلك، اقترح نقل الصراع إلى أولئك الذين يطالبون بالسلطة عبر تحريك الرمزية الدينية. يمكن أن يتم ذلك من خلال التشكيك بالأسس المعرفية التي يعتمدون عليها للمطالبة بالسلطة عن طريق الدين. بناءاً على حوارات أجريتُها مع نازحين في المنطقة، وصلتُ إلى ما مفاده إن الدين مرتبطٌ بالعلاقات، وليس بالهوية. إذ يحثُّنا الدين على النظر إلى داخلنا لتعزيز العلاقات مع الذات ومع الله، ويتجلّى ذلك عملياً، أي على مستوى الدين الـمُعاش، من خلال تغذية العلاقات مع الآخرين. نحن مخلوقاتٌ اجتماعيةٌ بالأصل والدين قوة نابذة. أما تنظيم علاقاتنا مع الآخرين فهو الشغل الشاغل للتعاليم الدينية. في ما يلي سأدرس الاحتمالات التي تتيحها التقاليد الإسلامية لتحويل الغرباء إلى جيران، وكيف يمكن لسياسات التقارب تأمين أطر بديلة للصراع الدائر.

* طاهر زمان Tahir Zaman حاصل على الدكتوراه وباحث زائر في 'مركز أبحاث الهجرة واللجوء والانتماء' في جامعة إيست لندن. يركز في عمله البحثي على الملامح الثقافية الاجتماعية لحياة النازحين في الشرق الأوسط. أما اهتمامه البحثي الآخر فيتمحور حول سياسة العمل الإنساني، مع التركيز على المبادرات الإنسانية ذات الأساس الإيماني.

** هذه المقالة ترجمة للنص الأصلي المرسل إلى مجلة دلتا نون باللغة الإنكليزية بعنوان: The Right to Neighbourhood: a Way Out of the Sectarian Quagmire

مقدمة

يُنتجُ حصرُ الهوية بالانتماءات الدينية الأولية مجموعةً متميزةً من العمليات والممارسات الساعية لإخضاع الآخر والسيطرة عليه أو إقصاءه، في الوقت الذي يغلق فيه الباب أمام العوامل، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، التي تتقاطع مع الانقسامات الطائفية ذاتها. اتضح مؤخراً أن الشكل الطائفي للصراع السوري قد بدأ بالسيطرة. بدأ المحللون السوريون والدوليون عموماً بتفسير الصراع السوري من خلال المنظور الطائفي. يُبدي القائمون على مراكز الدراسات وصنّاع السياسات والصحافيون والأكاديميون هوساً مَرَضِياً بالقراءات الجيوسياسية التي تركز على سيطرة المجموعات المسلحة الطائفية، وتعتّم على دور ملايين السوريين. تتماشى هذه القراءات مع رواية نظام الأسد للأحداث والتي ومنذ بداية الصراع استخدمت الخطاب الطائفي الذي بدأت مجموعات من المعارضة المسلحة باستخدامه. وعلى رغم صياغة الخطاب بلغة الرمزية الدينية إلا أنه بعيدٌ في شكل كبير عن المفاهيم اليومية الحية للدين.

يسعى هذا المقال لتفنيد المنهجية الطائفية التي تؤثر على نظرتنا لما يحدث في سوريا اليوم. لن يتحدث المقال عن مخاطر الطائفية، الموجودة بالفعل، لكنه سيبدأ حواراً لمحاولة إيجاد نص مشترك يساعد في تحويل مؤشرات هذا الصراع المدمر. للقيام بذلك، اقترح نقل الصراع إلى أولئك الذين يطالبون بالسلطة عبر تحريك الرمزية الدينية. يمكن أن يتم ذلك من خلال التشكيك بالأسس المعرفية التي يعتمدون عليها للمطالبة بالسلطة عن طريق الدين. بناءاً على حوارات أجريتُها مع نازحين في المنطقة، وصلتُ إلى ما مفاده إن الدين مرتبطٌ بالعلاقات، وليس بالهوية. إذ يحثُّنا الدين على النظر إلى داخلنا لتعزيز العلاقات مع الذات ومع الله، ويتجلّى ذلك عملياً، أي على مستوى الدين الـمُعاش، من خلال تغذية العلاقات مع الآخرين. نحن مخلوقاتٌ اجتماعيةٌ بالأصل والدين قوة نابذة. أما تنظيم علاقاتنا مع الآخرين فهو الشغل الشاغل للتعاليم الدينية. في ما يلي سأدرس الاحتمالات التي تتيحها التقاليد الإسلامية لتحويل الغرباء إلى جيران، وكيف يمكن لسياسات التقارب تأمين أطر بديلة للصراع الدائر. لكن أولاً سأحاول استكشاف كيف تآكل حق الجيرة في سوريا في العهد الحديث.

غرباء بيننا

لم تولد الطائفية في ليلة وضحاها، كما أن التعبير عنها لم يكن بأسلوبٍ واحد. في الواقع يمكننا القول إنها تقنية استخدمها نظام حزب البعث للسيطرة على تحركات السوريين ودرجة تفاعلهم مع بعضهم. كل ما نحتاجه فعلاً هو ملاحظة ضعف الحركة بين المناطق المدنية الأمر الذي يساهم في ترسيخ المفهوم الضيق للهوية. من الأمور الهامة التي تمكن ملاحظتها أنه حتى في المدينة الواحدة لا سبب يدفع بسكان منطقةٍ ما إلى زيارة منطقة أخرى. المساحات التي لديها تفاعل حقيقي مع مساحات أخرى قليلة جداً ومتباعدة. وحيث توجد مناطق كهذه فإنها، وسأعطي هنا مثالاً المدينة القديمة في دمشق، تخضع لمراقبة شديدة من النظام. يسهل رصد ومراقبة الأماكن الضيقة لاكتشاف جميع حالات الانشقاق. أصبح مركز المدينة مكاناً محايداً يحوي خليطاً موجَّهاً بعناية. لا وجود لأسواق يمكنها جذب أشخاص من مجتمعات أخرى، ولا وجود لأنشطة رياضية تأخذ ممارسيها ومشجعيها في رحلات إلى مناطق أخرى. المسارح، معارض الفنون، المعارض، الحفلات الموسيقية، السينما، ملاعب الرياضة والمطاعم جميعها تنحصر في المركز. تدار أغلب الرحلات اليومية بعناية شديدة. غالباً ما يكون التحرك عبر المدينة عن طريق السرفيس (باص صغير خاص يتسع لحوالي 14 راكباً يجوب طرقات ثابتة بين دمشق وضواحيها). التكلفة المعقولة وتواتر رحلات السرافيس يجعل منها وسيلة النقل المفضلة في المدينة لذوي الدخل المنخفض. لم يكن تحديد مخططات الطرقات أمراً اعتباطياً، وهذا يدل على أن تحديد المخططات بهذا الشكل كان أمراً مطلوباً. لا يوجد خط سير مباشر يربط جرمانا بالمهاجرين، أو مخيم اليرموك بالسيدة زينب؛ وهي مناطق ذات مجموعات عقائدية مختلفة. وهكذا يتم تعزيز حالة الانعزال والتباعد بما يسهم في إعادة إنتاج مفهوم 'الآخر'.

نحو سياسة التقارب

ماذا نعني بعبارة 'حق الجيرة'؟ عند الحديث عن الحقوق فإننا نعتمد في كلامنا على فهم الحقوق الفردية. أدى ذلك الفهم إلى تقدم النقاشات حول الحرية والعدالة الاجتماعية، فالتأييد المبدئي للفرد يؤدي إلى إهمال المجموعة ككل لصالح التركيز على أفرادها. لكن الفرد يعيش من خلال علاقاته في داخل أو خارج مجموعات اجتماعية أكبر؛ كالعائلة أو الحي أو مكان العمل. ويمكن لحق الجيرة الخاضع لسياسات التضامن، التي تبنى عليها العلاقات المحلية، أن يحمي رفاهية وكرامة ونزاهة جميع مكونات الحي حتى أولئك الغرباء القادمين حديثاً. يحمي هذا الحق الأحياء من نزوات الدولة التي تسعى للدفاع عن مصالح المقربين منها، أولئك الذين يملكون كافة الحقوق الاجتماعية والثقافية والسياسية وأيضاً الاقتصادية. سياسة التقارب هذه ليست سياسة محدودة ولا تعمل على الإقصاء. بدلاً من ذلك، تعتبر المسافات الاجتماعية مساحات يجب تخطّيها بدلاً من التقيد بها. تفهم هذه السياسات أن الفرد والحي وحتى المدينة هم جزءٌ من كل، حيث تبدأ العلاقات من الداخل إلى الخارج. يمكننا هنا تخيّل مجموعة من الدوائر ذات المركز الواحد تتزايد بشكل تصاعدي، كما في 'دمى الماتريوشكا Materyoshka Dolls'[1] – حيث لا يكون الفراغ الفاصل بين الأقسام المختلفة خالياً بل يكون مليئا بالعلاقات الهادفة.

1 دمى الماتريوشكا هي دمى تقليدية في روسيا تصنع من الخشب بأحجام مختلفة. يستخدم تعبير دمى الماتريوشكا مجازياً لوصف الظواهر المتداخلة ضمن بعضها البعض مثل طبقات البصل (هيئة التحرير).

يمكن إرجاع أسباب الصراع السوري إلى عقود طويلة من سياسة ترسيخ الطائفية التي أدت إلى تآكل حق الجيرة تدريجياً. "من أين أنت؟"؛ سؤالٌ ذو طابع طائفي حتى عند استخدامه في المناطق المدنية. بدأ تمييز الأحياء والمناطق تبعاً للانتماء الديني المحدد للمجموعات التي تسكنها. ويمكننا القول أن هذا النوع من التطور بالنسبة للأحياء هو تطور منظم، بمعنى أن الناس تميل نحو السكن في مناطق حيث يتواجد لديهم مسبقاً أقرباء أو شبكة علاقات اجتماعية، ولكن مع ذلك فإن السؤال ما زال قائماً حول ما إذا كانت دولة البعث قد شجعت على خلاف ذلك.

عشية الصراع في سوريا، كان التحول الاجتماعي يجري بسرعة. أدى سوء إدارة القطاع الزراعي، جنباً إلى جنب مع الجفاف القاسي، إلى جعل سبل العيش في المناطق القروية شبه مستحيلة، ودفع بأكثر من 3 مليون مواطن سوري كي يعيشوا في فقر مدقع[I]. أُجبرت المجتمعات المتآكلة في حوران في الجنوب، والحسكة ودير الزور والرقة في الشمال والشرق، على الانتقال الجماعي، بأكثر من خمسين ألف عائلة إلى المناطق المحيطة بالمراكز المدنية الرئيسية حمص ودمشق وحلب، هذه المناطق التي ينتشر فيها الفقر بسرعة كبيرة. بسبب بقاء هؤلاء الفقراء المحرومين مهمشين في مناطق نائية مهمشة أصلاً، فإن نظام الأسد تخيل أنهم لم يعودوا موجودين. طبعاً تغيّر كل ذلك بعد بداية الأحداث في 15 آذار 2011.

دوما، المدينة التي كانت قلب الثورة ضد نظام الأسد، تعتبر مثالاً واضحاً. حيث تمت التضحية بالحقوق الاقتصادية للمنطقة لإفساح المجال لتحرير الاقتصاد السوري الذي ينحاز للمراكز المدنية على حساب المناطق النائية[II]. كما تم تقليص دور الشركات الصغيرة والمتوسطة، التي تعتبر أساس الاقتصاد في دوما، بسبب انتشار البضائع التركية الرخيصة وذلك بعد أن وصل الانفراج السوري-التركي إلى ذروته عام 2010. هنا باتت تداعيات العولمة جليّةً للجميع: البطالة، ضعف اقتصاد الطبقات العاملة المدنية، وتآكل قدرة المجتمعات المحلية. انطلقت في دوما مطالبات بالخبز والحريات والعدالة الاجتماعية كردٍّ على الوسائل المتعددة التي استخدمها نظام الأسد في إهمال الحقوق الاقتصادية للحي.

حقيقةُ أن المظالم الشعبية هي من قاد الانتفاضة التي اندلعت في كافة أنحاء البلاد ضد النظام، وحقيقةُ أن مطالب المتظاهرين كان يمكن تأويلها بأكثر من معنى، كل ذلك كان مؤشراً على صعوبة تماسك المعارضة. يجب أن يفهم التعبير المستمر عن السخط والاستياء من السياسات غير المبنية على أسس واقعية -سواء كانت سياسات المجتمع الدولي أو الأسد أو داعش أو النصرة- على أنه دعوة صريحة لإيجاد حلول محلية. لذا فإن تحدي الطائفية يتطلب أولاً وقبل أي شيء سياسة التقارب، كي تزول المسافات الاجتماعية (سواء كانت خيالية أو حقيقية). هنا يكمن دور التقاليد الدينية في المساعدة على بناء الإطار العام لحق الجيرة بما ينسجم مع قراءات علمانية لمجتمع مدني، حيث يمكن للغةٍ دينيةٍ مميزة جذب أتباع لها وتعليمهم قواعد التفاعل مع 'الآخر'.

مفردات منسية؟

قبل البدء بتحريك هذه القواعد علينا أولا الاتفاق على بعض المفردات. في اللغة العربية غالباً ما تترجم كلمة 'أمة nation' بمعنى 'وطن'. في سياق الدول القومية nation states[2] في العصر الحديث

2 ترجمة مصطلح nation state غير متفق عليه في العربية، وأحياناً يترجم إلى الدولة القومية أو الدولة-الأمة أو حتى الدولة الحديثة (هيئة التحرير).

ينص حق الانتماء على ولادة الفرد في ذات البلد 'قانون التراب jus soli' أو على الحق الموروث 'قانون الدم jus sanguinis'. يشير المصطلح العربي 'وطن' إلى أي مكان مأهول بالسكان، بدون ذكر قانون التراب أو الدم. وفي قوانين ما قبل الحداثة في العالم المسلم تُشترط الإقامة الفعلية في المكان المنتمى إليه 'قانون المنزل jus domicili'. في المقابل، تحت حكم الدولة القومية[III]، يصبح حق المواطنة حقاً رسمياً يمنح لكل من له وضعٌ قانوني: وبالتالي فهذا المنطق يقلص الانتماء إلى الأمة، ويجعله مشروطاً بحق الولادة. لذا يجب فهم كلمة 'وطن' في السياق الصحيح. كلمة 'وطن' هي مصطلحٌ مرن مرتبط بالعلاقات التي يغذيها الفرد بانتقاله من مكانٍ إلى مكان. آثار هذا التقليد المفتوح، الذي يعتبر أن تنقُّل الناس هو القاعدة لا الاستثناء، منقوشةٌ في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية للناس في سوريا اليوم.

قام الإصلاحيون الإسلاميون بتبني واستخدام كلمة 'وطن' بعد مواجهتهم للقوى الاستعمارية الغربية في القرن التاسع عشر. خلط الطهطاوي بين مفهوم 'الوطن' ومفهوم الأرض/الإقليم ما أدى إلى ترسيخ مفهوم 'الوطن' في إطار الدولة القومية. منذ ذلك الحين، يواجه المفكرون المعنيون بدور الإسلام في العالم المعاصر مهمةً صعبةً: وهي التوفيق بين دينٍ ذي طابعٍ عالمي ونظام الدولة القومية الذي يعرف بأنه إقصائي. دفعت هذه المفارقة بالعديد نحو مستنقعٍ فكريٍّ والخوض في نقاشات حول صحة اعتبار الدين قضية هوية. وعليه لا يوجد أفضل من عبارة "أنت ما تأكل وما تلبس" لوصف المناقشات التي تدور حالياً حول الإسلام؛ من قبل المسلمين وغير المسلمين على حد سواء.

كذلك فإن الإفراط في تبسيط فكرة مجتمع المتدينين المتخيل –الأمة– هو أمرٌ ضار. فبالنسبة للكثيرين أصبحت الفكرة ببساطة مرادفاً للتضامن الإسلامي. أما بالنسبة لـ 'الوطن' فقد تم امتصاصه في نموذج الدولة القومية؛ حيث تصبح 'الأمة' كونفيديرالية للدول القومية عندما يلائم ذلك النخب الحاكمة. ومن هنا تخرج الدعوات لبناء دولة إسلامية، فمع إقحام مفهوم 'الأمة' في مفهوم 'الوطن' (كما شرحها الطهطاوي) نرى ظهور خطاب إسلامي في نهاية القرن التاسع عشر، بخاصة مع كتابات جمال الدين الأفغاني. تزامن ذلك مع خروج نداءات تحث 'الأمة' على الدفاع عن الخلافة خلال فترة تفكك الإمبراطورية العثمانية؛ ومرة أخرى قراءات نخبوية لـ 'الأمة'.

الغريب في رأي المسلمين العرب

مرة أخرى، في سياق المواجهة مع الاستعمار الغربي وظهور نموذج الدولة القومية، نجد أن اللغة المستخدمة لوصف العلاقات مع 'الآخر' أصبحت أقسى: فقد أصبح الغريب 'أجنبياً'. تشتق كلمة 'أجنبي' (وجمعها أجانب) من الجذر 'جنب'، أو يوضع على جنب. كلمة تجنّب التي تشترك في الجذر مع كلمة أجانب تعني التفادي؛ وهذا يحوّل 'الغريب' أو 'الأجنبي' إلى شخص يجب تفاديه واجتنابه. يُعزى هذا في جزءٍ منه إلى المواجهات مع الاستعمار، وإلى الارتباك الذي تولد بسبب التبعية لأولئك الذين لا يتشاركون النظرة ذاتها. شهد القرن التاسع عشر تنافساً بين المحافظين والإصلاحيين للسيطرة على قلوب وعقول السكان المحليين للمناطق الخاضعة للإمبراطورية العثمانية. بدا أن الإصلاحيين يحاولون تحدي المعتقدات التقليدية ووضع قوانين جديدة في تقليد للقوى الاستعمارية. بينما اعتبرت العقول الإصلاحية في الاستعارة الثقافية والمادية من أوروبا فرصة للتخلص من قيود الجمود المنسوبة للمعتقدات التقليدية،

فهم الإصلاحيون تلك الإصلاحات في ضوء التوسع الاستعماري -اعتبار الغرباء كضيوف غير مدعوين وغير مرغوب بهم. للمفارقة، فإن من يدعم المعتقدات التقليدية -الذين أدخلوا الدين في خطاباتهم القومية- كانوا يناصرون فكرةً تختلف مع الإسلام الذي استمر لقرون عديدة والذي كان يدعو لفضيلة حسن استضافة الغرباء.

استُخدم مصطلح 'غريب' في فترة ما قبل الحداثة كتصنيفٍ قانونيٍّ أقل من استخدامه لوصف من غادر وطنه الأصلي طوعياً أو قسرياً، ولم يعد يعتمد على طول مدة الإقامة. أصبح المصطلح مشتملاً على الطلاب وعلماء الدين والزاهدين المتجولين والحجاج والتجار والنازحين، وبات واضحاً أن المصطلح غدا غامضاً وضبابياً. من ناحية أولى، كان حسن معاملة الغرباء أمراً قيّماً في الثقافة العربية ما قبل الإسلام مثل أولئك الذين اشتهروا بالتعامل الحسن والكرم مع الغرباء والذين منحوا لقب 'مأوى الغريب'[IV]. تم تشريع هذا الأسلوب بالتعامل مع الغرباء من قبل التعاليم القرآنية والنبوية التي شجعت على اللياقة والتعامل الحسن مع الغرباء. تحديداً، إن تعزيز الممارسات القبلية ما قبل الإسلام والتي تتعلق بالجوار -منح الحماية والمساعدة لمن يبحث عن الملجأ- يوضح الأهمية البالغة لحسن الضيافة تجاه الغريب[V]. ربما لم يكن هذا الأمر مفاجئاً نظراً للطبيعة الجغرافية البدوية لشبه الجزيرة العربية. استلزم المناخ القاسي والرحلات الشاقة في الصحراء حسن الضيافة. باختصار كان هذا الخُلُق ضرورياً لضمان البقاء على قيد الحياة. نتذكر هذا يومياً كلما حيينا أحدهم بعبارة أهلاً وسهلاً: وطأت سهلاً وحللت أهلاً.

وَرَدَ في أحد الأحاديث المنسوبة للنبي "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء". ما زال المعنى الحقيقي لهذا الحديث قابلاً للتأويل، إلا أن فيه تقديراً واضحاً للغريب؛ مشجعاً على حسن معاملة الآخر كمبدأ أساسي في الإسلام. عبارة أخرى تستخدم في التقاليد الإسلامية تدعو لمساعدة الغرباء ومن بينهم 'ابن السبيل' وكذلك 'عابر السبيل'. يقول حديث للنبي "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[VI]، مشيراً إلى الاستعارة الدينية وعيش الحياة في شكل كامل بناءً على الوصايا الإلهية باعتبارها رحلةً أو معبراً. علينا أن نتذكر أيضاً أن 'ابن السبيل' يعتبر من الفئات المستحقة للدعم المالي من خلال آلية توزيع الزكاة.

مع ذلك، ففي مخيلة العرب، فإن فقدان الإمكانيات الاجتماعية والمادية بسبب الاغتراب هو مصيرٌ أسوأ من الفقر المدقع؛ إنه فقرٌ في العلاقات. هناك مثلٌ شائعٌ في دمشق يحذر من المصير الذي ينتظر ذلك الذي يضطر لمغادرة وطنه: "من ترك داره قل مقداره". لتعويض هذه الخسارة، يعاد تفسير النشاطات البشرية من خلال الروايات الدينية. مثلاً فكرة أن بإمكان الدين تقديم الشرعية بالطريقة التي تستطيع الدولة أو لا تستطيع أن تقدمها هي فكرة مرت أكثر من مرة خلال حواراتي مع نازحين في الشرق الأوسط.

الإيمان بالإسلام يخفف من الألم الذي يترافق مع الاغتراب، واللجوء ليس وصمة عار. قال لي عارف، أحد اللاجئين العراقيين في دمشق: "كانت مغادرة العراق بالنسبة للعراقيين أمراً صعباً جداً. لم يرد أحد المغادرة، لم يحتاجوا سوى المكان الآمن كي يلجؤوا إليه. وجدت أن الإيمان بالإسلام يجعل من كوني لاجئا أمراً أسهل. من الصعب جداً مغادرة وطنك، ولكني أعلم أن النبي فعل ذات الشيء، وأنه كان أيضا لاجئاً. إذا فكرنا بهذا الأمر نجد أن لا أهمية للحدود في الإسلام، وأنه لا توجد جنسيات في الإسلام. الاختلاف فقط في اللغة والأرض؛ كلها هي أرض الله ويمكنك إيجاد مكان لتعيش وتعمل به أينما ذهبت".

التعاليم الإسلامية تسمح للنازحين بإعادة تفسير الهجرة. كما يذكرنا عارف "الأرض ملكٌ لله". السيادة الإقليمية ملكٌ لله ليست ملكاً للدولة. للجميع الحق في التجول بحرية بدون عوائق، ولا وجود للحدود في هذا المشروع. يأمر القرآن بالتعاطف مع مجموعةٍ من الناس؛ من ضمنهم الجار ذو القربى، والجار الجنب الذي لا يَمُتُّ لنا بصلة قربى[VII]. يشير تفسير الطبري للقرآن أن الجار الذي لا يمت لنا بصلة قربى لا يجب بالضرورة أن يكون مسلماً، وأن القرآن يأمر بحسن معاملة جميع الجيران. لذا فإن التفسير التقليدي لمعنى الجار الذي لا يمت لنا بصلة قربى يتوافق مع معنى كلمة غريب، حيث تأمر تعاليم القرآن بمنح الغريب مكاناً للعيش والعمل أينما اتجه.

أن تتحول إلى 'آخر': دروس مستفادة من حالات النزوح الجماعي

تشير البحوث التي أجريتها حول حالات النزوح الجماعي، ودور الدين في تلك المسألة، إلى فهم مختلف لمفهوم 'الأمة'. كان العنف الناجم عن الصراع، إضافة إلى النزوح الجماعي، من أهم أسباب التحول الاجتماعي؛ تم تفتيت المجتمعات ونهب الاقتصاد أو تدميره، وتمت إعادة النظر وتفسير سبل الحياة في شكل جديد. تكمن خسارة الموارد الثقافية الحيوية (التي تؤسس للفهم العقلاني لكلمة 'وطن' ومن ثم محاولة استعادتها أو إعادة خلقها من جديد، أو ربما إعادة تشكيلها) في قلب عملية صنع القرار والممارسات والمعتقدات الدينية لدى النازحين في الشرق الأوسط. كما يقول ديفيد تارتون David Turton الباحث الاجتماعي في علوم الإنسان "النزوح لا يتعلق فقط بخسارة المكان، والألم والفجيعة الناتجة عن هذه الخسارة. لكنه يتعلق أيضاً حتمياً بالنضال لإيجاد مكانٍ آخر في هذا العالم"[VIII]. وهكذا، ومع كل تجزئة جديدة تأتي إعادة تخيل وإعادة تكوين للمجتمع والأحياء، ومع تدمير موارد الاقتصاد تأتي التغيرات في إستراتيجيات سبل العيش، ومع كل إعادة نظر في الهيكلية الاجتماعية التقليدية تتولد تصوراتٌ جديدةٌ للهوية والانتماء.

وصف العديد من النازحين الذين تحدثتُ إليهم خلال السنوات الثمانية الماضية الأماكن الشعبية (كالمساجد والكنائس وأماكن التعلم والمراكز المجتمعية) بأنها كانت مساعدة جداً لهم في استعادة شيءٍ من الاستقرار بعد حالات النزوح. عادة ما توصف المراكز المجتمعية، بخاصة تلك التي تعتمد على ذاتها، كملاجئ من الظروف الصعبة التي يعيشها النازحون عادة. وبصرف النظر عن كونها تستخدم كمراكز للتعلم فإن هذه المراكز تستخدم أيضا كأماكن للاحتفال بالمناسبات (كالأعراس والمناسبات الدينية السنوية)، وتنظيم أنشطة رياضية وثقافية، وتعريف الجيران على بعضهم البعض وللصلاة. باختصار، تَحضُر هذه الأماكن بعمقٍ في حياة النازحين. إن استخدام هذه الأماكن الشعبية بكثافة، بما فيه استخدامها كأماكن لالتقاء الأصدقاء ليتناولوا الطعام والمشروبات ويحسنوا ضيافة بعضهم، يجعل النازحين يؤكدون على أهمية فهم معنى 'الوطن' من خلال التفكير والممارسة الدينية. يُعنى الدين أساساً بتغذية العلاقات الاجتماعية. وتشكل التفاعلات الفردية أو الجماعية اليومية المفهوم الحياتي للدين. إن قدسية الوطن هي أمرٌ ظرفي، وهي ليست أمراً ثابتاً متعلقاً بالحجر فقط بل بالعلاقات؛ حيث يتحول الوطن إلى رحّال، ويصبح حق الحصول على ملجأ ومأوى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالهجرة.

ارتبط مفهوم الجوار بفهم مفهوم بناء المنزل والدين. يكمن فهم الأمة كممارسة حياتية في فهم

الحقوق والواجبات المتعلقة بالحي والجوار. وبعيداً عن الفهم السياسي لمعنى 'الأمة'، كما تشرحها جهود التحديث لإسلاميين كجمال الدين الأفغاني منذ نهاية القرن التاسع عشر وما بعد، تذكرنا تجارب النزوح التي يعيشها النازحون أن 'الأمة' وُجِدَتْ أولاً وقبل كل شيء في السياق المحلي. كرر نازحٌ سوريٌّ قابلته في أورفا ما ذكره نازحون عراقيون كنتُ قد التقيتهم سابقاً في دمشق في 2010. وأشار إلى أهمية زيارات الجوار كمقياس للعلاقات الجادة: "يعجبني حين يعاملنا الأتراك بشكل مساوٍ لهم، لا كلاجئين فقراء. عندما يزورونا أو يدعوننا لزيارتهم في منازلهم أشعر بأني شخصٌ عادي ومساوٍ لهم. لم أخلق لأشعر بشعور اللاجئين. زيارة الناس لك تمنحكَ شعوراً رائعاً. وزيارة الناس في منازلهم بهذا الشكل يعني أن لدينا علاقات سليمة."

الخلاصة: ملاذ سوري

من هو الغريب إلا ذلك الشخص المختلف عني؟ أي 'الآخر'. إن تجربة التحول إلى 'الآخر' تولد عندنا حساسيةً تجاه الاختلاف. التقاليد الإسلامية تؤمن لنا لغةً للاحتفاء بالتنوع والتعددية. وهذا ما تدعمه آية في القرآن (49:13): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا * إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ * إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهكذا يتحول الغريب بسهولة إلى جار. يتحول من كونه ضيفاً، لا يجب أن يطيل إقامته، إلى جار. يجب أن لا ننسى أن للجار حقوقه في التقاليد الإسلامية، فعن عائشة أن رسول الله قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[IX]. وحذر النبي من المعاملة السيئة للجار: "لن يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه"[X]. للتأكيد على عواقب التعامل السيء مع الجار، بغض النظر عن عقيدته أو عرقه أو جنسه، يذكرنا النبي أن التعامل الجيد مع الجار هو سمة المؤمنين. ويقول النبي: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت"[XI].

بتوجيه أنظارنا إلى النازحين الموجودين داخل الحدود الإقليمية السورية، نتذكر أن مناطق الصراع لم تنتج فقط أحياء محطمة وقرى مهجورة وعنفاً لا يمكن تخيله، بل أنتجت أيضاً شبكاتٍ تعتمد على نفسها ومساحاتٍ للضيافة، ملاجئ وملاذات رغم تدهور وتآكل الموارد المتضائلة التي تحت تصرف المجتمعات المضيفة.

في خضم الصراع يتم صون حق الجيرة في سوريا يومياً. وبينما يصبح إيصال المساعدات الإنسانية إلى المناطق التي تقع خارج سيطرة النظام أكثر تحدياً وأقل تواتراً، يجبر السوريون أكثر فأكثر على الهجرة إلى مناطق يسهل فيها الحصول على المساعدات الإنسانية ويخف فيها تهديد القصف الجوي. بحلول شهر تشرين الثاني/نوفمبر أصدر نظام الأسد تقريرا يقول فيه أن نسبة 3% من 6.5 مليون نازح تتم استضافتهم في مراكز إيواء عامة (مساجد ومدارس وغيرها من المباني العامة)، فيما وجد أكثر من 85% من النازحين ضمن الحدود السورية الملجأ في منازل الأقرباء والعائلة وفقاً لإحصاءات الحكومة[XII].

استقبلت مدن كمدينة السلمية ومدينة السويداء، ذات الأقليات الإسماعيلية والدرزية، عدداً كبيراً من النازحين السنة، وعرض الأهالي عليهم المأوى داخل منازلهم. يعتبر استقبال السنة من قِبَلِ مدنٍ ذات

أغلبية من الأقليات أمراً مهماً لأنه يتعارض مع الرواية الطائفية. يتحدّى هذا الأمر اعتبار الصراع صراعاً تحاول فيه مجموعةٌ عقائدية السيطرة على أخرى. بدلاً من ذلك، يعتبر الغريب موضع ترحيب ودعم من قبل 'الآخر'. لا شك أن الضغوط التي تواجهها المجتمعات المحلية كبيرة: نقص في الموارد، فرص عمل أقل، أسعار متصاعدة للحاجات اليومية، ونقص في إمكانية توفير حاجات الوافدين الجدد؛ جميعها عوامل تساهم في تشكيل بؤر للتوتر. ومع ذلك فإن الأزمة تمنح فرصاً لتنمية علاقات الجوار واستعراض مظاهر الضيافة: معرفة كيفية معاملة الغريب الموجود بيننا بطريقة أخلاقية، وبناء سياسة التقارب.

الهوامش والمراجع

I http://www.irinnews.org/report/90442/syria-drought-pushing-millions-into-poverty

II Popular Protest in North Africa and the Middle East (VI): The Syrian People's Slow-motion Revolution Crisis Group Middle East/North Africa Report N°108, 6 July 2011. Available at: http://www.crisisgroup.org/en/regions/middle-east-north-africa/egypt-syria-lebanon/syria/108-popular-protest-in-north-africa-and-the-middle-east-vi-the-syrian-peoples-slow-motion-revolution.aspx

III Rifa'a al Tahtawi (2006) "Fatherland and Patriotism" in Donohue J & Esposito J (eds) Islam in Transition (Oxford: Oxford University Press)

IV Rosenthal, F. (1997), "The stranger in medieval Islam". Arabica, 44(1), pp.3575-.

V Shoukri, A.M. (2010), Refugee status in Islam: concepts of protection in Islamic tradition and international law. London: I.B.Tauris.

VI Sahih al- Bukhāri Vol.8, Book 076, No.0425

VII Al-Qur'an 4:36

VII Turton, D. (2005), "The meaning of place in a world of movement: Lessons from long-term field research in Southern Ethiopia". Journal of Refugee Studies, 18(3):258280-. p.278.

IX Sahih Muslim Book 032, Chapter 40, No.6354

X Sahih Muslim Book 001, Chapter 19, No.0074

XI Sahih Muslim Book 001, Chapter 20, No.0078.

XII See "2014 Syrian Arab Republic Humanitarian action Response Plan" Available at: http://reliefweb.int/report/syrian-arab-republic/2014-syrian-arab-republic-humanitarian-assistance-response-plan-sharp

المشهد البصري

’أمل‘

رسم: رامز منزلاوي*

حول العمل الفني:

العمل مقتنى من قبل وزارة الثقافة في العام 2012. حاز العمل على المركز الثاني في معرض ’دار الكفيل‘ في العراق لعام 2013.

* رامز منزلاوي: فنان فلسطيني اختصاص تصوير ضوئي، وخريج معهد الفنون التطبيقية (2005). مصور صحفي في الوكالة العربية السورية للأنباء (سانا)، ومدرس مادة التصوير الضوئي في المعهد التقاني للفنون التطبيقية. عضو ’تجمع فناني فلسطين‘، وعضو ’اتحاد الصحفيين‘، وعضو ’اتحاد المصورين العرب‘. شارك في عدة معارض جماعية داخل وخارج سوريا.

’توقف الزمن‘

تصوير: أسماء الدوس*

حول العمل الفني:

تم تصوير العمل في عام 2012، محاولةٌ لإيقاف الزمن في لحظاتٍ مختلفة!

* أسماء الدوس: فنانة سورية خريجة معهد الفنون التطبيقية، قسم التصوير الضوئي. تعمل كمصورة صحفية. شاركات في معارض جماعية وورشات عمل فنية عديدة.

’فلسطينية منكوبة‘

رسم: رنا شعبان*

حول العمل الفني:

اللوحة 50×70 سم، قماش أكريليك وغواش وبقايا قهوة وحبر صيني.

* رنا شعبان: فنانة فلسطينية خريجة معهد دمشق المتوسط، فرع هندسة الديكور. مارست العمل الفني في مجال الرسوم المتحركة وقصص الأطفال منذ حوالي 10 سنوات (رسم الخلفيات، واللي آوت، وتصميم الشخصيات، وتحريكها، والإشراف الفني وتسجيل الصوت). كما عملت في مجموعة من شركات الإنتاج الفني بسوريا والوطن العربي. شاركت مع ’تجمع فناني فلسطين‘ بمعارض فنية في دمشق.

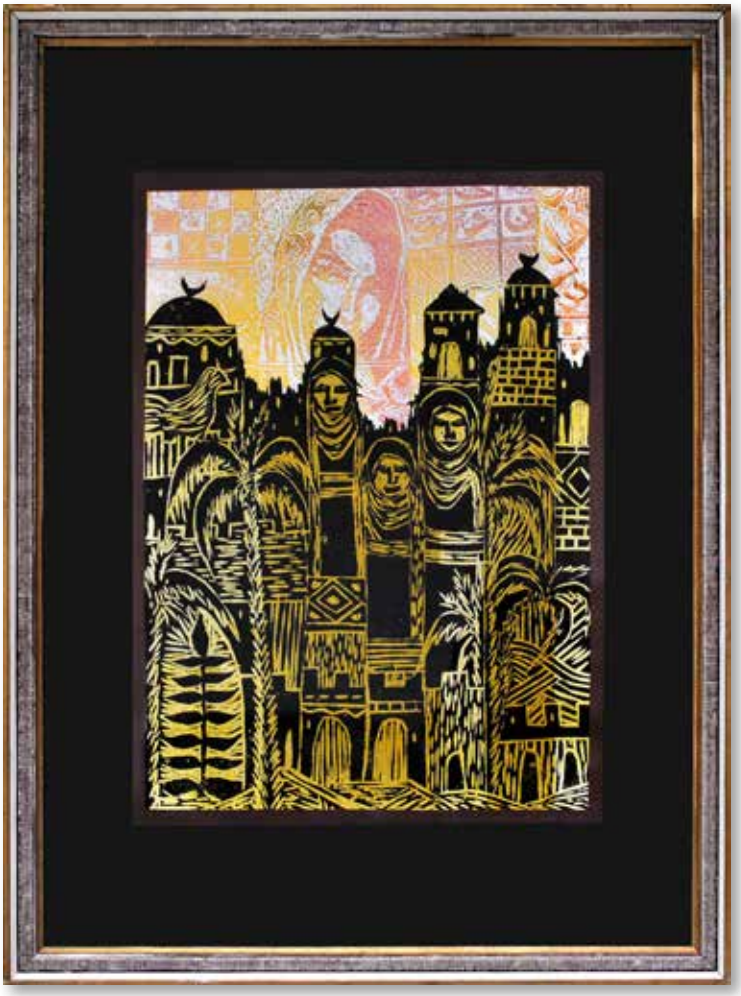

’حالة جدل‘

رسم: معتز العمري*

حول العمل الفني:

اللوحة 50×70 سم، قماش أكريليك وغواش وبقايا قهوة وحبر صيني.

* معتز العمري: فنان فلسطيني خريج معهد أدهم إسماعيل للفنون التشكيليه، ودبلوم بالرسم والديكور. عضو ’اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينين‘، وعضو ’تجمع فناني فلسطين‘. شارك في معارض خارجية وداخلية عديدة. حاز على الجائزة الأولى في ’يوم القدس العالمي‘.

تصوير: عيسى محمد الخضر*

حول العمل الفني:

فازت هذه الصورة بمسابقة الطبيعة الصامتة التي أقامتها مؤسسة 'روبينا آرت' للإنتاج الفني 2014. نوع الكاميرا: DMC-FZ8 Panasonic

* عيسى محمد الخضر: طالب في السنة الثالثة هندسة ميكانيكية. شارك في معرض مشترك أواخر الـ 2012 في 'صالة جسور'، ومعرض 'أنتِ' في منتدى البناء الثقافي 2014. حاصل على المركز الأول في مسابقة الطبيعة الصامتة التي أقامتها مؤسسة 'روبينا آرت' للإنتاج الفني 2014.

’ناشرين عرضا – خرجت للتو من غسّالة المجتمع‘

رسم: مايا عدنان محمود*

حول العمل الفني:

ألوان مائية على ورق قياس 29×37 سم - تاريخ 2014/5/6. تعبر عن التقييد المفروض على النساء والفتيات في مجتمعاتنا، في تجسيد للمقولة العامية ’ناشرين عرضا‘.

* مايا عدنان محمود: تدرس إدارة الأعمال في جامعة تشرين باللاذقية.

’لايك‘

كاريكاتور: ياسر أحمد*

* ياسر أحمد: فنان سوري خريج معهد إعداد المدرسين (1997). حاصل على العديد من الجوائز العالمية، وعضو لجنة تحكيم لأكثر من مسابقة. عمل في الصحافة منذ عام2005، وشارك في العديد من المعارض. مرشح لجائزة الصحافة العربية أربع دورات ضمن أفضل ثلاثة فنانين. عضو في موقع ’كيجل‘ العالمي لرسامي الكاريكاتير.

’جدار‘

تصوير: عمار خضور*

حول العمل الفني:

حيطان مُهملة، لوحات طرقية، ضربات ألوان عفوية، تشكيلات لونية. هذه بعض الصفات التي أستطيع أن أصف بها ما أراه على الجدران، والتي تدفعني إلى تصويرها وتوثيقها.

* عمار خضور: يدرس في كلية الحقوق بجامعة دمشق. شارك في عدة معارض فنية عامي 2012 و2013، فضلاً عن نشاطات تطوعية عامة في دمشق.

يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام. دمشق - لندن

حول مجلة دِلْـتَا نُـون

مجلة دِلْـتَا نُـون مجلة يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام (دمشق - لندن). تسعى المجلة إلى دراسة العلاقة بين الفكر والشأن العام في منطقة غرب آسيا وشمال إفريقيا (الشرق الأوسط) عموماً، وفي سوريا خصوصاً. تعمل المجلة على نشر مواد تتراوح بين المقالات والدراسات والريبورتاجات الصحفية ومراجعات الكتب، إضافة إلى قسم خاص بالصور الفوتوغرافية والرسومات والكاريكاتور. وتهتم المجلة بنشر المواد التي تناقش، في صورةٍ مترابطةٍ ومنهجية، ما ينضوي تحت المحاور الثلاثة التالية:

- **الفكر:** بما يشمله هذا العنوان العريض، على سبيل المثال، من أفرادٍ (كالمثقفين والأكاديميين والخبراء والكُتّاب والإعلاميين)، ومؤسساتٍ (المراكز بحثية، والجامعات، والصحافة، ودور النشر)، ومُخْرَجَاتٍ (كالكتب، والأفكار، والحركات الفكرية)، وغيرها.
- **الشأن العام:** بما يشمله هذا العنوان العريض، على سبيل المثال، من أعرافٍ وثقافاتٍ سائدة ومُهَمَّشة، وقضايا الاقتصاد والتنمية والخدمات، والمجتمع المدني، والصحة والتربية والتعليم، وتطبيق القانون والتشريعات والحقوق الأساسية، والممارسات السياسة، وغيرها.
- **العلاقة بين المحوَرَيْن السابقين، أي بين الفكر والشأن العام:** سواء على مستوى التأثر والتأثير، والتقاطع، والسببية، والانفصال، والاستقلالية، وغيرها.

دعوة للكتابة في 'مجلة دِلْـتَا نُـون'

بعد إصدار العدد الأول في تموز/يوليو 2014، تسعى 'مجلة دِلْـتَا نُـون' إلى إصدار عددها الثاني في أواخر شهر أيلول/سبتمبر 2014. وعليه ندعوكم إلى إغناء المجلة بمساهماتكم الفكرية والنقدية والمستقلة، بعد الاطّلاع على شروط وتعليمات النشر في الموقع الإلكتروني للمجلة: delta-n.c-tpa.org. ويمكن إرسال مساهماتكم على البريد الإلكتروني: editors@c-tpa.org، علماً أن آخر موعدٍ لاستقبال المساهمات هو نهاية آب/أغسطس 2014.

رسائل القراء

ترحب مجلة دِلْـتَا نُـون برسائل القراء سواء كانت تعليقات أو تعقيبات أو ردود على المواد المنشورة في المجلة، أو اقتراحات وانتقادات تسهم في الارتقاء بعملها. يمكن للقراء توجيه كافة الرسائل إلى هيئة التحرير على البريد الإلكتروني: editors@c-tpa.org

مقالات

- مقاربة لنقد الطائفية في سوريا – نيروز ساتيك
- الافتراضي يخضع للواقع – مناف زيتون
- كي لا تُفسد الثورة السورية بأيدي من يمتطونها – هوشنك أوسي
- مفارقات لونية في الداخل السوري – رهام كوسا
- الألتراس: النشأة والدور – فيكتوريوس شمس
- التوجهات السياسية لرأس المال في سوريا – عبد الله شلاش
- المسرح السوري أزمة عميقة تتطور – مايا جاموس
- الأدب السوري المعارض – عبد الوهاب عزاوي
- علاقة المذاهب الفنية – ليليان بلان
- داعش وتجاوز حدود المزاودات – مارك براتشر
- في الصورة البصرية لمجلة دابق وإسقاطاتها – مصطفى دباس

مراجعات كتب

- رواية سرمدة لفادي عزام – نور شلغين
- قلق في العقيدة لسعيد ناشيد – عمار ديوب

ريبورتاجات

- المساكنة – كفاح زيني
- لبنان: لاجئون في الخيام ولاجئون في القصور – عمار المأمون وعبد الله قاسم
- ملف المخطوفين في سوريا – قصي عمامة
- الرياضة السورية: ضحية من ضحايا الأزمة؟ - علاء إحسان وأحمد حاج حمدو
- المسلحون في سوريا: البحث عن الدعم والقيادة – طارق العبد
- رحى الحرب في سوريا تطحن حقوق الطفولة – ديما نقولا

دراسات

- الحروب الأهلية بين المظلومية والطمع – سنان الحواط
- من البنية التحتية لوسائط النقل إلى السياسة في بيروت – أحمد عثمان
- تيار العبث بين الفلسفة والمسرح – علاء العالم
- الدولة السورية بين مصيدة القوة والمدى – وجدي وهبي
- فن الشارع في إيران واستعادة الحيز العام – دنكان توماس
- حق الجوار كوسيلة للخروج من المستنقع الطائفي – طاهر زمان

مركز دراسات الفكر والشأن العام
Centre for Thought and Public Affairs
email: info@c-tpa.org
www.c-tpa.org
CTPA.Arabic @CTPA_Arabic

مجلة دلتا نون
يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام. دمشق ـ لندن
email: editors@c-tpa.org
www.delta-n.c-tpa.org
DeltaN.Arabic @DeltaN_Arabic